«هذا هو الكتاب الأهم لأحوالنا الحاضرة»

هيلين كيندي كيوسي

انتحار الغرب

ريتشارد كوك & كريس سميث

نقله إلى العربية

محمد محمود التوبة

تقريظ لكتاب انتحار الغرب

«... بصيرة وتحليل نادران، مع بعض الاستنتاجات المقلقة... لقد أطلق المؤلفان صيحة اليقظة الإنذار وقدّما حلاً في الوقت نفسه معاً»

(سير مينزيس كامبيل، زعيم الديمقراطيين الأحرار)

«... يصف ماضياً من الإنجازات وحاضراً من الهشاشة، فيجب أن يوجه أهلَ التفكير إلى جهود جديدة تبذل من أجل حماية الحريات والثقافة التي يقدرونها حق قدرها...».

(نيل كينوك، الزعيم السابق للعمال والمندوب الأوروبي)

«أنت تنتهي من قراءة الكتاب وتساورك مشاعر غير مريحة من أن المؤلفين يطرحان السؤال الصحيح: هل مستقبل قيمنا وحضارتنا آمن؟»

(ماتثيو بارِّيس، كاتب عمود في التايمز)

«ما كان لهذا الكتاب أن يأتي في وقت أنسب من الوقت الذي صدر فيه».

(جون بلنديل، مدير عام معهد الشؤون الاقتصادية)

«صيحة اليقظة الإنذار المفيدة التي تهدف إلى نفض الخوف، والارتياب، والاكتئاب... واستعادة التفاؤل بشأن التقدم الإنساني إلى الأمام».

(بوللي توينبي، كاتب عمود في الغارديان)

«تحليل قوي ومتحد للقيم التي يستند إليها النجاح البارز الذي حققه المجتمع الغربي، وللتهديدات لبقاء الغرب الناجمة عن فقدان ثقته بنفسه بشكل بارز مساو».

(لورد بلاكويل، الرئيس السابق لوحدة السياسات لأعضاء البرلمان، 10 داوننغ ستريت)

«احترس، فقد يغير هذا الكتاب الطريقة التي تفكر بها... قراءة واجبة للزعماء في السياسة، والأعمال التجارية والصناعية، والمجتمع».

(البروفسور آندرو كامبيل، مؤسس مركز أشريدج للإدارة الإستراتيجية)

«كتاب تبصرة يفتح العيون... استبصار متألق في المكمن الذي يمكن أن توجد فيه الحلول».

(سير ستيفن شيربورن، سياسي إستراتيجي، ومستشار سابق لمارغريت تاتشر)

«... يبدو أننا نقوم بجهد جيد مخيف في (انتحار الغرب)، مثلما يشير هذا الكتاب بوضوح».

(سيمون جينكنز، صحافي)

«أطروحة أصيلة وآسرة... إنجاز عظيم، فاقرأها، ولن تفكر في عالمنا أبداً بالطريقة نفسها تماماً».

(أندرو روبرتس، مؤرخ وكاتب)

«صدمة للنظام ملحة ومعبرة...».

(مارتن كيتل، كاتب عمود في الغارديان)

«مـهم، ومـحـرض، وفي الوقت المناسب جـداً... يضع الحـوارات الحاضرة ضمن سياق تاريخي مضيء إضاءة شديدة».

(لورد بوتمان، مخرج أفلام)

«كتـاب رائع يجـمع التـاريخ، والاقـتـصـاد، والأعـمـال التـجـارية والصناعية، والسياسة، فيجب أن يقرأه كل زعيم طامح في الأعمال وفي المجتمع».

(بيتر جونسون، زميل، كلية إكزيتر، جامعة أوكسفورد)



انتحار الغرب



«هذا هو الكتاب الأهم لأحوالنا الحاضرة»

هيلين كيندي كيوسي

انتحار الغرب

ريتشارد كوك & كريس سميث

نقله إلى العربية

محمد محمود التوبة





الطبعة العربية الأولى

1430هـ - 2009م

ردمك: 978-9960-54-696-4

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان Obeikan Research & Development & كلمة KALIMA

كلمة:

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث KALIMA كلمة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما تعبر آراء الكتاب عن مؤلفها.

ص. ب: 2380 أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

هاتف: 6314468 2 971 + فاكس: 6314462 2 971+

www.Kalima.ae

العبيكان Obeikan Research & Development

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 - 2937581 فاكس: 2937588 ص. ب: 67622 الرمز: 11517

يتضمن هذا الكتاب ترجمة عن النص الإنجليزي لكتاب:

Suicide of The West

Richard Koch - Chris Smith

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 - 4654424 فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرمز: 11595


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات



إلى

لي ديمبسي ودوريان جابري

شكـر

إحدى مباهج كتابة كتاب يتقاطع مع العديد من التخصصات هي أننا تعرفنا بمجموعة كبيرة من الكتب والبحوث التي كانت قبل الكتابة جديدة بالنسبة إلينا، وكان هذا في بعض الأحيان مسألة نهم في القراءة ومحاولة وخطأ، ولكننا في حالات عديدة كنا محظوظين في أن نتوجه في الاتجاه الصحيح بفضل تلطف الأصدقاء، ويجب أن نقول: إن الأصدقاء كثيرون جداً، إنهم أكثر من أن نذكرهم جميعاً فرداً فرداً ـ ليس أقله في حالة أن ننسى أي شخص (كان ذلك معروفاً) ـ ولكننا نود أن نشكر على وجه الخصوص جون بلنديل، وروجر بوتل، ونيكولاس بريلي، وأندرو كامبيل، وديفيد كانادين، وكريس إيليس، وريك هولر، وبيتر جونسون، ومارتن ناي، وكريس أوترام، وأندرو روبرتس، وإي، إف. (بات) تومبسون، وجورج والدون، على مهاراتهم الحاذقة وعلى كرمهم بأوقاتهم.

ونحن مدينان ديناً خاصاً لروبن فيلد، الذي تعاون مع أحد المؤلفين في الكثير من البحث والأفكار التي استخدمت في نهاية الأمر ودخلت في فصلي النمو والفردية، والكثير من الأفكار في هذين الفصلين استمدت من روبن، أو من مناقشاتنا معه، وكان في غاية اللطف، إذ وافق على أن من الممكن إدماج تلك الأفكار في هذا الكتاب.

والأطروحة التي استند إليها الكتاب كانت متداولة تداولاً كثيفاً، وعقب عليها كثيرون من المفكرين الممتازين، ونحن لا نعني بذلك أن أياً

منهم يوافق على آرائنا، ولكنهم بالتأكيد حرضوا أفكارنا، ومرة أخرى نشكر بشكل استثنائي ماركوس أليكساندر، واللورد (نورمان) بلاكويل، وبيتر إنغلاندر، وفرانك فيلد، وريتشارد فوللر، وجون هيويت، وتوني كيبنبيرغر، وجون ميكل ثويت، وفرديناند ماونت، وجيسي نورمان، ومارتن ناي، ومايكل أوبرماير، وكريس أوترام، وماتثيو باريّس، ومايكل بورتيللو، وجيمس ريف، وديفيد جيه، وريتولدز، وأندرو روبرتس، وأنتوني رايس، وستيفن شيربورن، وفيليب ويبستر على مدخلاتهم البارزة المعينة.

إن عمل تركيب مثل هذا يستقر استقراراً مباشراً على عمل مئات من الكتاب الآخرين وبصائرهم، ولقد لفتنا الانتباه إلى أهم هذه الأعمال في ملاحظاتنا تحت النص، ولكن كتباً معينة كانت ذات تأثير مهم نود أن نبرزها ونشكر مؤلفيها: نشكر مانويل كاستيللز عن صعود مجتمع الشبكات، ونيل فيرغسون عن العملاق، وجيرت هوفستيد عن عواقب الثقافة، وكيث هوبكنز عن عالم مليء بالآلهة، وصامويل بي. هنتنغتون عن صراع الحضارات ومن نحن؟، وريتشارد ئي. نيسبت عن جغرافية الفكر، وستيفن بنكر عن اللوح الفارغ، وناثان روزنبيرغ وآي. ئي. بيردزيل، الابن، عن كيف صار الغرب غنياً، ورودني ستارك عن من أجل مجد الله، وريتشارد تارناس عن عاطفة العقل الغربي، وتشارلز تيلر عن مصادر الذات، وبيتر واطسون عن جمال وأفكار مرعبة، ومن الطبيعيّ أننا لا نوافق على كل استنتاجات هؤلاء المفكرين ـ ونحن على يقين أنهم لا يوافقون معنا في كثير من النقاط ـ ولكن

أعمالهم كانت ذات قيمة لا تقدر بثمن بالنسبة إلينا، ونحن نوصي بهذه الكتب الرائعة لأي قارئ يريد المزيد من العمق في الموضوعات المدروسة.

وأخيراً، فإن هذا الكتاب ما كان ليكتب أبداً من دون تدخل ماتثيو بارّيس، الذي عرف المؤلفين أحدهما بالآخر، ونحن قد استمتعنا متعة عظيمة بتعاوننا، وإننا لشاكرون شكراً جزيلاً!

> إن التغيير إلى نوع جديد من الموسيقا هو شيء يجب الحذر منه بوصفه خطراً على جميع حظوظنا؛ لأن أساليب الموسيقا لا تضطرب أبداً من دون أن تصيب بالاضطراب معظم التقاليد السياسية والاجتماعية الأساسية.

(أفلاطون، الجمهورية، الكتاب 4)





المقدمـة

في العام 1900، كان معظم أهل الغرب يشعرون بالاعتزاز الهائل والثقة الكبيرة بحضارتهم، إذ كان هناك إحساس قوي، مشترك لدى الأمريكيين والبريطانيين، ولدى الأوربيين والكنديين، ولدى الأستراليين والنيوزيلنديين، بالانتماء إلى حضارة قوية، ومتوسعة، وتقدمية ومثيرة، وأفضل حضارة في كل العهود.

أما اليوم، فإن ذلك المعنى قد تلاشى، فلماذا؟ ليس بسبب الاقتصاد، أو الأحداث الخارجية أو الأعداء الخارجيين، وعلى الرغم من أهوال النصف الأول من القرن الماضي، ووفق أكثر المعايير موضوعية، فإن الحضارة الغربية قد صنعت منذ العام 1900، تقدماً مادياً، وعسكرياً، وطبياً، وعلمياً عظيماً، بل صنعت تقدماً سياسياً كذلك، وتوقف الغربيون عن قتل بعضهم بعضاً وعن تعذيب بعضهم بعضاً، وودعت الحضارة الغربية أشد عدوين لها قتلاً وترويعاً، وهما النازيون والشيوعيون، وكلاهما كان محضوناً في الغرب، فإذا كانت هناك أزمة للغرب ـ ونحن نستخدم هنا صيغة فعل الكون المفرد ـ فهي أزمة تولدت تولداً داخلياً، إنها تكمن في انهيار الغرب في الثقة بالنفس، إنها تكمن في الرؤوس الغربية، إنها تكمن في الأفكار.

وقد عبر أسامة بن لادن تعبيراً بارعاً عن الرابطة بين الأفكار والأحداث، فقد تشفّى بعد 11/9 بالقول: «قيم هذه الحضارة الغربية

قد دُمرت، وهذه الأبراج الرائعة الرمزية التي تتحدث عن الحرية، وحقوق الإنسان والإنسانية قد دمرت، فلقد تلاشت في الدخان.»
وبكلمات أخرى، فإن الإرهاب يخمد الحضارة الغربية؛ لأنه يسحق بذلك الإيمان بالقيم الغربية.

هذه في الأغلب دعاية، أو هو تفكير يعبر عن الرغبة، لا عن الحقيقة.

والحقيقة أسوأ، فبغض النظر عن القاعدة، أو عن أي عدو آخر للغرب، فإن حضارته مهددة تهديداً فادحاً؛ لأن معظم الغربيين لم يبقوا الآن مؤمنين بالأفكار التي جعلت الغرب ناجحاً إلى هذه الدرجة، فإن انهيار الثقة بالنفس الغربية ليس له إلا القليل من العلاقة والارتباط مع الأعداء، وله كل شيء من العلاقة والارتباط مع التحولات الزلزالية في الأفكار والمواقف الغربية، ولذلك وبدافع الرحمة، فهناك القليل في هذه الصفحات عن السيد ابن لادن وأمثاله.

إن سؤالنا بسيط جداً، ونحن نسأل أربعة أسئلة: هل هناك أي شيء خاص بشأن الحضارة الغربية؟ لماذا كانت ناجحة على هذا النحو الكبير؟ ولماذا هي الآن مهددة؟ وهل ستبقى؟ ونحن نجيب عن هذه الأسئلة، ولو أعطينا أجوبة جريئة من البداية تماماً، فإنها ستفسد حبكة الكتاب، ولكننا نستطيع أن نعطي بعض الإيماءات.

لقد ازدهرت الحضارة الغربية أكثر من أي حضارة أخرى في الماضي أو في الحاضر ـ وكانت هذه الحضارة أكثر نجاحاً في النواحي الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وفي العلم والتقانة، وفي

الفنون، وفي تعزيز صحة مواطنيها، وثروتهم، وطول أعمارهم، وربما سعادتهم زيادة على ذلك، وبرغم جميع أخطائه العديدة الظاهرة والخطيرة، فإن الغرب يعلق أهمية على قداسة الحياة الإنسانية وكرامتها أكثر مما فعلت الحضارات الأخرى أو تفعل الآن، وعلى تعليم كل شعبها، وعلى المساواة في الفرص، وعلى حرية الفرد واستخدام مواهبه أو مواهبها، وعلى المساواة الجوهرية وأخوة الإنسانية، وعلى استئصال الانحياز ضد الأفراد والجماعات، وعلى تعزيز العلم والفنون، وعلى اختراع منتجات أفضل، وأرخص وأكثر ملاءمة للغرض، وعلى تخفيف المعاناة، وبالحكم بموجب هذه المعايير الغربية للحضارة ـ التي قد يكون الغربيون فخورين بالمناداة بها، والكثير من هذه المعايير هي طموحات إنسانية شاملة ـ نجد أنه ما من حضارة أخرى اقتربت من الإنجازات الغربية.

لقد حقق الغرب نجاحه إلى حد كبير جداً بسبب عدد من الأفكار والأفعال الأساسية التي استلهمها الغربيون ـ وأدخلوها في أنماط الفكر والسلوك المتأصلة عميقاً في اللاشعور في الغالب، ونستطيع أن نتتبع درجة كبيرة من نجاح الغرب ونعيدها إلى ست «فِكَر» رئيسة أو «عوامل نجاح» وهي ـ المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو الاقتصادي، والليبرالية، والفردية، ومن الطبيعي، أن بالإمكان القيام باختيارات أخرى لما يجعل الغرب مختلفاً ومهيمناً، ولكن الفحص المتبصر للفِكَر الست يكشف كشفاً حسناً بما فيه الكفاية طبع الحضارة الغربية وخاصياتها، ويوفر عدسة قوية لفحص تاريخ الغرب، وقوته ووحدته الجوهرية.

ولعل التركيز على هذه الفِكَر الست يعطي المزيد من الكشف أيضاً. فهو يقدرِنا كذلك على أن نرى، برغم جميع النجاحات، ما الذي يوجد خلف الانتشار الواسع لعدم الثقة في الغرب؟ فعناصر النجاح الستة، التي دعمت أساس الجرأة الغربية، قد عانت قرناً من الهجوم المستمر، وعلى وجه العموم، لم تبق هذه المعتقدات الآن تلهم الغرب أو توحده، أو تعطي الأفراد الثقة التي تعتبر جوهرية للفعل المنسق في اللاشعور، فنحن لا نستطيع، طبعاً، أن نتجنب ملاحظة وجود البرابرة على أبوابنا، ولكن الحضارات العظيمة نادراً ما تنهار بسبب الأعداء الخارجيين وحسب، فلم يكن البرابرة قادرين على تحدي الإمبراطورية الرومانية تحدياً ناجحاً إلا بعد أن صارت منحلة ومنقسمة، ولم يكن هتلر قادراً على تحطيم الحضارة الإنسانية والديمقراطية لألمانيا إلا لأن هذه الأخيرة لم تملك إلا القلائل جداً فقط من المدافعين عنها، واليوم أيضاً، تكوّن الانقسامات والعيوب الداخلية، بالنسبة إلى الغرب، التهديد الحقيقي، وهناك القليل من التقدير لما يجعل الغرب مختلفاً وقيماً على نحو فريد، والارتياب، والتشاؤم، واللامبالاة هي الموجودة كثيراً، والانجراف نحو الانتحار الجماعي واضح، وهو مُشرب في تاريخنا على نحو عميق منذ العام 1914، ومن الممكن تتبعه ورده إلى انهيار التعلق بالأفكار التي كان من عادتها أن تلهم الغرب والعالم.

ومراجعتنا للعوامل الستة، تبين، على كل حال، أنها تمتلك مرونة عظيمة وهي، في بعض الحالات، تأتي من خلال التطور الدقيق، والقوة الثابتة الضخمة، وإن الانطباعات السطحية مخطئة في الغالب،

ولكننا حين نفحص التحديات الموجهة إلى عوامل النجاح الستة في السنوات المئة الأخيرة أو ما يقاربها، سوف نرى، بالنسبة إلى كل واحد من العوامل الستة، جدية التهديد لمستقبل الغرب، ومن أجل الاختصار، سنستخدم نظاماً من ألوان «أضواء المرور»، مستخدمين «الأخضر» ليعني «لا مشكلة أساسية»، والأصفر ليعني «خطراً»، والأحمر ليعني «مشكلة خطيرة، ويمكن أن تكون مميتة».

ونستطيع أن نعِد بشيء واحد، وهو أن هذا ليس مرثية تندب حضارة مفقودة، ولا هو دعوة للعودة إلى القيم الخالدة، فإذا كانت الأفكار تحت الهجوم، فهناك عادة أسباب وجيهة جداً لذلك، على الرغم من أنها لا تكون دائماً الأسباب الواضحة، فلكي تكون الأفكار نابضة بالحيوية، يجب أن تتطور أو أن تُرمى جانباً، حين نكتشف المزيد عن الكون، وعن مجتمعنا وطبيعتنا، فهناك الكثير من الالتواءات والانعطافات في تقريرنا، والاستنتاجات التي وصلنا إليها ليست كلها بالتأكيد مظلمة تبعث على اليأس.

ماذا نعني «بالغرب»؟

نعني به البلدان التي استوطنها الأوروبيون، والسكان فيها يشكلون أكثرية واضحة من شعب من سلالة أوروبية، والثقافات والأفكار مشتقة إلى حد كبير من أوروبة، وماذا يعني هذا اليوم؟ باختصار، أمريكا الشمالية، وأوروبة، وأستراليا.

دعونا نقر من بداية الانطلاق أن «الغرب» مفهوم تحكمي، وأنه في الغالب مفهوم فيه مفارقة تاريخية، وهو مفهوم مضلل من حيث الوصف، وأننا غير مرتاحين مع العديد من المضامين الجغرافية والإيديولوجية التي اكتسبها مفهوم الغرب في السنوات المئة الأخيرة، ولعبة مقابلة الغرب الفاضل بالشرق الأقل فضيلة بدأت منذ اليونان القدماء، الذين استخدموا «الغرب» ليعني اليونان الحرة، واستخدموا «الشرق» ليعني الاستبداد الفارسي، فهذه ليست لعبتنا، نظراً إلى أن وجهة نظرنا في أوروبة (والغرب تبعاً لذلك) تشمل أوروبة الشرقية، فأوروبة الغربية والشرقية لا تشتركان فقط بتاريخ مشترك، ولكنهما أسهمتا كلتاهما أيضاً في موجات مهمة من المهاجرين إلى أمريكا. فكر، مثلاً، في أهمية المجتمعات اليونانية، واليهودية، والبولندية، والأوكرانية لأمريكا.

وعلى الرغم من تحفظاتنا بشأن الاسم، فإننا نستخدم «الغرب» و«الحضارة الغربية» لأن ذلك اللفظ كان طوال أكثر من مئة عام هو اللفظ المقبول عموماً للثقافة وللواقع السياسي لأمريكا وأوروبة، ولا يستطيع أي مؤرخ أو عالم اجتماع أن ينازع في الأصول الأوروبية لمعظم الأمريكيين أو التشابه في الثقافة ونظرة الأوروبيين والأمريكيين، ودعنا نكرر - مع ذلك - أن «الغرب» بالنسبة إلينا يشمل أوروبة الشرقية، ومناطق أوروبة الغربية مثل أيرلندا، وإسبانيا، والبرتغال التي غالباً ما يغفلها المعلقون «الغربيون»، ويشمل بلاداً مثل كندا، وأستراليا، ونيوزيلندا التي تضم بشكل رئيس أحفاد المستوطنين الأوروبيين والتي مازالت الثقافة الأوروبية سائدة فيها.

ماذا نعني «بالانتحار»؟

الانتحار الفردي هو النهاية الطوعية الذاتية التي يفرضها الإنسان بنفسه على حياته، وانتحار حضارة هو النهاية الطوعية الذاتية التي تفرضها تلك الحضارة بنفسها على نفسها، ويعطي معجم تشامبرز أحد التعريفات للانتحار بوصفه «تسبُّب الإنسان بسقوطه الخاص، بشكلٍ غير عمدي في الغالب»[1] ذلك هو ما نعنيه بالانتحار المحتمل للغرب: النهاية العرضية غير المقصودة لحضارة عظيمة، نهاية لم يصنعها الأعداء الخارجيون، ولكن صنعها الغربيون بما يفعلونه، وبما يخفقون في أن يفعلوه.

ونحن نعني الإخفاق في حل التناقضات في المجتمع الغربي بطريقة تحفظ معها المثل العليا الغربية، وبتعابير عملية، فنحن نعني إما الانتحار البيئي، أو، وهو أكثر احتمالاً، تحول المجتمع الغربي إلى حضارة أخرى، حضارة لا تقوم على الفِكَر الرئيسة الست التي حددناها بوصفها لب القيم الغربية، فهناك اتجاهات في المجتمع الغربي استمرت في النمو طوال القرن الماضي، ولكنها لم تكن واضحة وضوحاً جلياً إلا في السنوات العشرين (20) أو الثلاثين (30) الأخيرة، وهي اتجاهات إن استمرت، فسوف تجعل المجتمع مختلفاً تماماً، مختلفاً عن أهدافه التاريخية ومثله العليا، ومختلفاً عن الحقيقة

(1) يمكن للمرء أن يسأل كيف يمكن أن يكون الانتحار في أي وقت غير عمدي، ولكن انظر في الملاحظات العامة وفق خطوط القول: «ذلك الخطاب كان انتحاراً سياسياً».

الواقعة التي كانت تقترب أكثر، فأكثر طوال عدة مئات من السنين، وسوف نرى التغيرات واضحة في مناقشة كل فكرة من الفكَر الست الكبيرة التي جعلت الحضارة الغربية تعمل على هذا النحو الجيد، ولكن التغيرات باختصار هي إنكار المسؤولية الشخصية لتحسين الإنسان لنفسه وللمجتمع، وإنكار كل ما يسير مع المثل العليا الليبرالية.

سوف نبين، أن الحضارة الغربية، مختلفة اختلافاً هائلاً عن الحضارات الماضية أو الحاضرة الأخرى، وأنها مختلفة وأكثر نجاحاً بسبب الأفكار المتجذرة فيها على نحو عميق ـ وهي متجذرة على نحو عميق إلى درجة لا نتوقف معها للتفكير فيها ـ وبسبب السلوك الذي تستدعيه، وفي قلب الحضارة الغربية يقوم شخص قلق، يتقدم بنفسه، ويحسن نفسه، ومتفائل، وعقلاني، ومسيطر، وهو ـ مع هذا أيضاً ـ بمعنى من المعاني فرد مثالي، وشخص ذاهب إلى مكان ما، ويؤمن بنفسه وبدوره في المجتمع، رجلا كان أو امرأة.

أطروحتنا هي أن الفرد الذي يحسّن نفسه، والواثق، والمسؤول، والمتجذر تجذراً كاملاً في مجتمع ليبرالي مع إحساس بالواجب نحو ذلك المجتمع، هو الفرد الذي يتلاشى الآن تدريجياً، وفي مكان الإيمان لدينا اللاأدريّة أو النسبية، وفي مكان التفاؤل لدينا الجبرية، وفي مكان الإحساس بالتقدم لدينا التحذيرات المسبقة، وفي مكان الأحلام لدينا الكوابيس.

في مكان التوفير والإشباع المؤجل للرغبات لدينا الاستهلاك. وفي مكان الكفاح لدينا العاطفية، وفي مكان المسؤولية نحو الآخرين، لدينا،

بالنسبة إلى الكثيرين، الإحساس بكونهم ضحية، وبالنسبة إلى كثيرين جداً آخرين، لدينا الدافع الكاسح نحو العناية برقم واحد، وفي مكان المثالية لدينا الارتياب، وفي مكان المعنى والهدف لدينا المال، وفي مكان العقل لدينا العواطف. وفي مكان الحكمة لدينا الخبراء، وفي مكان الثقافة لدينا الثقافات الفرعية، وفي مكان الجدية لدينا التفاهة والإفراط في اتباع شهوات النفس، وفي مكان الخبرة الصلبة لدينا الضحالة، وفي مكان المخاطرة برغم اليأس، لدينا الاكتئاب، وفي مكان نماذج الدور الأصيل، لدينا المشاهير المملون. وفي مكان السلطة أو الإجماع لدينا الاختلاف، وفي مكان المجتمع لدينا التشظي.

المسألة ليست أن الغربيين اليوم أسوأ مما كانوا عليه قبل أجيال سبقت، بل إن المرء لَيستطيع أن يناقش في أن السلوك الأخلاقي، وهو أبعد ما يكون عن الانهيار، قد تقدم بالفعل، وإذا كنا نفكر في الأشياء على أنها سيئة، فذلك مرده في جزء منه إلى أننا الآن أكثر تحسساً نحو الظلم، ولأن المعايير التي نحكم بموجبها على أنفسنا، وعلى حضارتنا، قد تقدمت تقدماً قابلاً للإبانة، ففي كل أنحاء الغرب هناك الآن تمييز أقل ضد جماعات الأقليات وضد النساء، ومساعدة أكبر للفقراء، وقسوة أقل نحو الأطفال والحيوانات، واهتمام أكبر بالبيئة، وعنصرية عرقية علنية أقل، وقومية مؤذية أقل، وعطاء خيري أكثر انتشاراً من أي وقت مضى سابقاً، ومن حيث النسبة المئوية من السكان، فنحن نقتل من مواطنينا الخاصين، ومن أعدائنا أقل بكثير مما اعتدنا أن نفعل.

نزاعنا ليس في أن المعايير الأخلاقية قد صعدت أو هبطت ـ لأنها بالتأكيد ذهبت في الاتجاهين ـ ولكن نزاعنا هو أن أفكارنا قد تغيرت، وأن ثقتنا في أفكار رئيسة معينة قد انحدرت، أو هي في بعض الحالات قد انهارت تقريباً، فإذا كانت الأفكار التي لم نبقَ مؤمنين بها الآن هي التي كانت مسؤولة عن نجاحنا الفريد بوصفنا حضارة، فنحن إذن في مشكلة عميقة، ونحن نعتقد أننا نبين عملياً أن المسألة هي كذلك.

إن قلب تحقيقنا وأساسه هو التساؤل: هل نستطيع أن نقاوم الاتجاهات التي تدفع الحضارة الغربية نحو الاندثار ونعكسها؟ أو هل هذه الاتجاهات حتمية من الناحية الهيكلية؟ أحياناً، وربما عادة، ليس هناك أسباب جيدة للانتحار، ومع ذلك يكون الانتحار محتوماً: إنه يُفرض على النفس ذاتياً طواعية لا غير، أو، بدقة أكبر، يفرض على النفس من أفكار النفس، وذلك خلافاً لرؤية أكثر«حساسية» عن الواقع، والطريقة الوحيدة لتجنب الانتحار هي إعادة بناء الطريقة التي نفكر فيها بأنفسنا، وهذا قد يكون مستحيلاً.

شبحا إشبنغلر وبيرنهام

كان كتاب انهيار الغرب واحداً من أكثر الكتب تأثيراً في القرن الأخير لمؤلفه أوزولد إشبنغلر، مدير المدرسة الألماني[1]، وقد صدر المجلد الأول في العام 1918، مع ثناء ضخم من أبناء بلاده، وعمل إشبنغلر غامض غير مفهوم، وفيه إسهاب، ومع ذلك فهناك ومضات

1. Oswald Spengler (1991) The Decline of the West, Oxford University Press, Oxford.

من البصيرة اللامعة، والكتاب مذهل في مداه وفي علمه، ولم يشرح إشبنغلر أبداً ما عناه لا «بالغرب» ولا «بالانهيار»، وهو ما يجعل تلخيص أطروحته مستحيلاً، وبغض النظر عن ذلك، فإن ما أعطاه إشبنغلر للعالم كان تعبيراً مثيراً مستفزاً، فهو، بمعنى من المعاني، غيَّر تغييراً دائماً إدراكَ الغرب وفهمه وإدراك الغرب لذاته وفهمها، وربَطه بالانهيار، وكانت الحضارة الغربية، مهما يكن ما عناه بذلك، ظاهرة معاصرة، مقدراً لها السقوط مثلما كانت قد نهضت تماماً.

و«الانهيار» مهما يكن معناه، فليس هو نفس الانتحار، ونحن لسنا إشبنغلَريين جديدين، ومنذ أن كتب إشبنغلر كتابه، قامت أمريكا وأوروبة بخطوات هائلة إلى الأمام بناء على كل معيار تقريباً يحدد حيوية حضارة، ومن غير ريب في العلم، وفي تجديد الأعمال ومستويات المعيشة، وفي العلوم الإنسانية والفنون، وفي كل أشكال الموسيقا، وفي القوة العسكرية وفي السلام داخل الغرب، وأي شخص يناقش في أن الغرب في انهيار سيكون محرفاً للمعاني العقلية، وذا مهارة هائلة، وذا خفة يد في الشعوذة.

وفي العام 1964، نشر المنظر السياسي جيمس بيرنهام كتاب انتحار الغرب مع عنوان فرعي هو معنى الليبرالية وقدرها[1]، وهو مادة قراءة رائعة، ويمكن تلخيص الأطروحة بسهولة. ويبدأ بيرنهام بملاحظة أن الغرب تقلص بين العامين 1900 و 1960 تقلصاً لافتاً للنظر في الأرض، وعدد السكان.

1. James Burnham (1964, 1965) Suicide of the West: The Meaning and Destiny of Liberalism, Jonathan Cape, London.

وهو يسأل لماذا؟

لا نستطيع أن نفسر تقلص الغرب بأي نقص في الموارد الاقتصادية أو العسكرية أو القوة السياسية ....

لذلك يجب علينا أن نستنتج أن الأسباب الرئيسة لتقلص الغرب ـ لا الأسباب الوحيدة، ولكن الأسباب الكافية والمحدِّدة ـ كانت داخلية وغير كميّة، وتتضمن إما التغيير الهيكلي أو العوامل الفكرية، والأخلاقية والروحية... وإلى حد معين «إرادة البقاء ...»

بيرنهام الذي كان في السابق تابعاً رومانسياً لتروتسكي، ولكنه مع حلول العام 1964كان رومانسياً محافظاً، ومتشائماً ومناوئاً عنيفاً للشيوعية، يشرح الانسحاب الإداري للغرب من الإمبراطورية، ومن مجابهة الشيوعية نتيجة «لليبرالية»، ويقول: إن انتشار الأفكار الليبرالية، حيث «يكون العدو المفَضّل إلى اليمين»، يجعل من المستحيل عليها أن ترى تحديات العالم الحقيقي رؤية صحيحة:

أنا أعتقد أن التحديات الحاضرة الحاسمة ثلاثة: **الأول**: هو أن الغابة تنتشر الآن في مجتمعنا الخاص بنا، وعلى وجه الخصوص في المدن الكبيرة، **والثاني**: هو النمو الانفجاري للسكان والتنشيط السياسي ضمن مناطق العالم المتخلف، وبشكل رئيس... المناطق المحتلة، من غير جماهير البيض، **والثالث**: هو اندفاع المشروع الشيوعي من أجل احتكار القوة العالمية.

من المستحيل حين النظر من خلال زجاج الليبرالية رؤية هذه التحديات بوضوح...

ونحن ننهي دائرتنا في نقطة البداية: الليبرالية هي إيديولوجية الانتحار الغربي... يجب أن تُفهم إيديولوجية الليبرالية الحديثة بوصفها هي نفسها واحداً من تعابير التناقض والانهيار الغربيين، ونوعاً من الظاهرة الثانوية أو الغموض الضبابي المرافق لمسيرة التاريخ، وأغنية وداعية جميلة من بجعة تموت، وعزاء روحياً من نفس الطبقة التي تصدر عنها همهمة أم لطفل مريض مرضاً خطيراً، وهناك فعلاً براعة باهرة في التعبير الليبرالي عن الهزيمة بوصفها نصراً، وعن الاستسلام بوصفه ولاء، وعن الجبن بوصفه شجاعة...

إن الليبرالية تسمح للحضارة الغربية بأن تكون متصالحة مع فنائها.

يجب أن يكون واضحاً من النثر الرائع الذي كتبه بيرنهام، أننا حين نتقمص عنوان كتابه، لا نشترك في أطروحته، وفي رأينا أن القضية التي يفترضها بيرنهام ـ وهي أن التخلي الطوعي عن الإمبراطورية ينذر بانتحار حضارة ـ هي قضية تعاني عيباً عميقاً، فبالنسبة إلى حضارة بُنيت لأكثر من ألفي سنة على الأقل، فإن كون الإمبراطورية قد خليت هو أمر من أصل حديث جداً، وهو أمر فائض عن المتطلبات، والأمم التي استُعمِرت، ثم نزع عنها الاستعمار، لم تتشرب، بصفة عامة، ثقافة الإمبراطوريات الغربية ذات العلاقة، لقد قهرت تلك الأمم ثم حررت، وبين العام 1875 والعام 1895 ـ وهي مدة فاصلة

قصيرة في تاريخ أوروبة الطويل ـ غرس المستعمرون الإمبراطوريون الأوروبيون أعلامهم على أكثر من ربع أرض الكوكب، وإن هذا الانحراف المجنون هو الذي يحتاج إلى التفسير، لا نقيضه، ومهما يكن أثر إزالة الاستعمار من العالم الثالث، فإن اقتصاد الغرب بعد ذلك ذهب من قوة إلى قوة.

مع فائدة النظر بعد حدوث الأمر، نستطيع أن نرى أن بيرنهام قد وصل إلى النتيجة الخطأ بشكل كامل، فلم يكن الغرب هو الذي انهار بسبب الليبرالية، بل كانت هي الشيوعية.

ومن دون جاذبية الازدهار والحرية الغربيين، ما كان شعب أوروبة الشرقية قد أزال جدار برلين واحتشد من خلاله في العام 1989، ولا كان سادتهم السوفييت وقفوا جانباً متراخين وسمحوا لحضارتهم أن تختفي من تلقاء نفسها بإرادتها(1).

الاتجاهات في مقابل الرغبات

لقد حاولنا أن نفصل رغباتنا الخاصة عن تحليل ما يحدث، وهذا ليس جدلاً، ولا هو تاريخ، ولا تاريخ أفكار كذلك، وإنما هو بالأحرى تحليل للتاريخ وللأفكار للإجابة عن أربعة أسئلة محددة ـ حول نجاح الحضارة الغربية وبقائها ـ وهي الأسئلة التي طرحناها في البداية،

(1) يقال: إن ميخائيل غورباتشوف، حين زار سوقاً كندياً كبيرًا (سوبر ماركت) كان مذهولاً من السلع المعروضة، حتى إنه ذهب إلى الاستنتاج بأن السوق قد أنشئت خصيصاً لزيارته، وحين اقتنع في نهاية المطاف أن مثل هذه الوفرة كانت أمراً شائعاً عادياً، بدأ إيمانه بالشيوعية يذوي.

ولا مناص، من أن وصفنا، سوف يتلون، من وقت إلى آخر، بإدراكاتنا المسبقة، وآرائنا، وتاريخنا الشخصي وخبراتنا الشخصية، ولكننا في الفصل الأخير فقط سمحنا لأنفسنا برفاهية إعطاء وجهات نظرنا الواضحة في مضامين تحليلنا، ولقد جئنا إلى هذه المهمة من خلفيات مختلفة ـ داعية مذهب حرية الإرادة محافظ رجل أعمال، وداعية مذهب حرية الإرادة سياسي من اليسار الديمقراطي ـ ولكننا وصلنا إلى استنتاج مشترك، استنتاج نعتقد أنه أصيل ومهم في آن.





الفصل الأول

هويـة الغـرب

إن أروع القـضـايا التي تواجـه كل غـربي اليـوم، وأخطرها شـأناً، وأصعبها ليست قضية البقاء الاقتصادي، ولكنها قضية الهوية: «من أنا؟» والتناقض هنا كائن في أننا نسأل السؤال بوصفنا أفـراداً، ومع ذلك، فنحن لا نستطيع أن نحدد وجودنا، ومعنى وجودنا إلا وراء دورنا بوصفنا أفراداً، وإلا بالإشارة فقط إلى مجموعة أو مجموعات، وهذا طبعاً هو الاستبصار العظيم الذي جاء به الفيلسوف الألماني عمانويل كـانط (1804 - 1724) وهو أن جـوهرنا الفـردي يُخـبَـر في الأصل في عـلاقـات مع أفـراد آخـرين، ومـع العـالم من حـولنا، في حين أننا في الوقت نفسـه نحتفظ بهوية هذا الجوهر الأساسية والفـريدة، فليس هناك إجابة واضحة أو صحيحة عن سؤال: «من أنـا؟»، ومع ذلك، فإن الكيفية التي يقرر بها الغربيون عموماً الإجابة عن السؤال سوف تؤثر تأثيراً عميقاً على مستقبل الغرب.

نحن حيوانات اجتماعية، ونحن نحتاج إلى الإحساس بالهوية، وكلما صار المجتمع أكثر لا مـركزية، وكلما صار كل واحد منا أكثر فـردية، صار الإحسـاس بـالهوية أكثر أهمـيـة، فإنه قـرارنا الفـردي، وهو ليس قراراً أوجبه علينا المجتمع ووصفه لنا، وتقوية شدة الفردية لا تزيل أو تخفف الحاجة إلى الهوية الجماعية، إنها تجعلها في آن واحد أكثر

تفلتاً من الإدراك بالفكر، وأمراً لا مفر منه من الناحية النفسية، وأكثر حيوية للمجتمع، وليس ذلك فقط، بل إن النتيجة النهائية مفتوحة، وغير قابلة للتنبؤ بها إلى درجة عالية.

ولرؤية قوة الهوية، انظر إلى ما حدث في أوروبة في القرن الماضي، ففي العام 1900، لم يكن أبرز إحساس مفرد بالهوية بالنسبة إلى معظم الأوروبيين هو الطبقة، أو العرق، أو الوظيفة، أو الدين، أو العقيدة السياسية، وكل هذه المصادر للهوية كانت مهمة للكثيرين، وللمجتمع الأوروبي بصفة إجمالية، ولكن أقوى مصدر مفرد للهوية كان قومياً، ومن دون ذلك الإحساس الكاسح بالهوية القومية، الذي شجعه ودعمه طوال القرن التاسع عشر المحافظون والليبراليون على حد سواء في كل أنحاء أوروبة، ما كانت الحرب المرعبة قد اندلعت في 1914 - 1918، بل لو اندلعت، لما سمح لها أن تستمر إلى أكثر من الأشهر القليلة الأولى.

لقد كان يعتقد على وجه العموم في منطلق تلك الحرب أنها «ستكون قد انتهت مع حلول عيد الميلاد»، في غضون أربعة أشهر من البداية، ومع ذلك، فمع حلول عيد الميلاد في العام 1914، كان من الواضح لرجال الدولة من كل الأطراف أن الحرب كانت كارثة مفاجئة لجميع المقاتلين، من النواحي العسكرية، والاقتصادية، وفوق كل ذلك بالنسبة إلى النفوس الإنسانية التي تزهق وتعاني، ومع ذلك كان الكبرياء في الهوية القومية متجذراً في كل أنحاء أوروبة تجذراً أعمق من أن يوقف الحرب، إلى أن استطاع جانب في نهاية المطاف أن يضرب الجانب

الآخر ويكرهه على الاستسلام المنهَك، فقد قُتل ثمانية ملايين ونصف المليون من الأوروبيين، وانهارت إمبراطوريات أوروبة الاستعمارية، وفُقد موقعها البارز في العالم على نحو لا عودة عنه، وقامت الثورة الروسية في العام 1917، نتيجة مباشرة للحرب، وكانت مع حلول العام 1953 قد أدت إلى ما يقارب 54 مليوناً من الوفيات التي نجمت عن الحرب الأهلية، والرعب، ومعسكرات الاعتقال والعمل (الغولاغ) وأحكام الإعدام السياسي، ومن دون حرب 1918 - 1914، ما كنا على وجه اليقين تقريباً قد وقعنا في بربريات ألمانيا النازية، أو الحرب العالمية الثانية، وهما الحدثان اللذان أديا فيما بينهما إلى ما يقارب 47 مليون قتيل ووفاة آخرين[1] ، وتدمير الحضارة الغربية تقريباً.

بعد العام 1945، استمرت القومية في إحداث ضرر ضخم للعالم، ولكنه وقع بالدرجة الرئيسة خارج أوروبة الغربية، وبرعاية أمريكية، وقد محا إنشاء «السوق المشتركة» ثم الاتحاد الأوروبي لاحقاً القومية الخبيثة، وصاغ إحساساً من المصلحة والهوية المشتركتين بين الأمم الأوروبية، وتوقفوا عن غزو أحدهم للآخر، واشتركوا في حلف عسكري غربي، وتبع ذلك ستون عاماً من السلام الذي لم ينقطع، ومن الازدهار في أوروبة الغربية.

(1) التقديرات المتوسطة هي وفاة 14.4 من الملايين من العسكريين و 27.1 من الملايين من المدنيين في الحرب العالمية الثانية ووفاة 5.6 من الملايين في الإبادة العرقية من اليهود على أيدي النازيين، وهذه التقديرات مبنية على ما كتبه:

Norman Davies (1996) Europe: A History, Oxford University Press, Oxford, pp. 1328-9.

ومع ذلك، فإن مِشكال (كليدوسكوب) الهوية الغربية يتحول في طرق مختلفة لا حصر لها متنازعة ومعاصرة، ولقد صارت الهوية مشخصنة، وصارت موضعية، كما في «قومية» الباسك أو قطلونيا، وصارت مجنسنة للذكر والأنثى، في حركات تحرير النساء واللوطيين والسحاقيات، وصارت رياضية، في ولاء المعجبين العنيف ـ وفي كل الأحوال دائماً معجبون محليون ـ لفرق محددة لكرة القدم، أو لكرة القاعدة، أو لكرة السلة، وصارت بيئية، كما في السلام الأخضر، وأصدقاء الأرض وجماعات أخرى منهمكة في عمل سلمي، أو أقل ميلاً للسلم في كل أنحاء العالم، وصارت محررة للحيوانات، وصارت إرهابية، وصارت دينية، في اتّباع الكنائس والنظم الدينية المحلية أو الدولية، وصارت افتراضية، في انتشار «مجتمعات» على الخط المباشر، وصارت عرقية، كما في «إفريقي ـ أمريكي»، وصارت أحياناً مستندة إلى اللغة، كما هي، حين تنفخ الهوية الهيسبانية أبواق القومية، إذ يقال: إن ميامي هي «عاصمة أمريكا اللاتينية».

وصارت في حب الخير للإنسانية، في بذل المعروف من أجل قضايا مختلفة لا حصر لها أو العمل من أجل هذه القضايا، وصارت سياسية عبر الحدود المحلية والوطنية، كما في حركة مناوأة العولمة والحركات الأخرى المهتمة بقضية مفردة بعينها، وصارت الهوية تنظيمية، كما في التماهي مع رب عمل الشخص والتحرك حول العالم من أجل شركة شل أو آي بي إم، وصارت عابرة للقومية، في الوقت الذي يسافر فيه أناس أكثر فأكثر، ويعملون ويقيمون الصداقات مع

أصدقاء في بلاد أجنبية، أو يشترون الممتلكات هناك، وصارت دولية (كوزموبوليتانية)، وصارت ذات علاقة بالموضة، وذات علاقة بالعمر، وذات علاقة بالمدرسة، وذات علاقة بالمشاهير، وبالنسبة إلى الكثيرين، تستمر الهوية بالاستقرار في المصادر التقليدية، ومن جملتها الأسرة، والنوادي، والجمعيات، والمهنة، والولاء لحزب سياسي، ولطبقة، ولعرق، ولأمة.

لقد صارت الهوية باختصار، متعددة، متشظية، لا مركزية، عابرة، وخاصية غريبة، وهويتنا نرتقها معاً من أنفسنا نحن بوصفنا أفراداً، ولكن على مدى العقود القليلة القادمة، يحتمل أن يختار الغربيون اختياراً جماعياً واحداً من أشكال الهوية المهيمنة الآتية:

- تراجع إلى العديد من الأشكال المحلية المحضة والأشكال الشخصية المحضة من الهوية، من دون أي إحساس سائد أوسع من المجتمع.
- إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقرون مع إحياء الهوية القومية، مثل الأمريكيين، والألمان، والأستراليين، وهكذا.
- كما في أعلاه، ما عدا أن «الأوروبيين» يماهون أنفسهم بشكل رئيس على تلك الصفة الأوروبية، أكثر مما يماهون أنفسهم بحسب قومياتهم الجزئية، ونتيجة لذلك، فإن الهوية الغربية تتشعب بشكل رئيس إلى ولائي «أميركيين» و «أوروبيين.»
- إحساس من الهوية المحلية والشخصية، مقروناً مع رأي يرى أننا كلنا دوليون «كوزموبوليتانيون»، مواطنون للعالم.

• إحساس من الهوية المحلية، والشخصية، والقومية، مع إدراك عام بأننا مواطنو الغرب بهوية ومصالح مشتركة مهمة.

هل ستصير الهوية الغربية خليطاً بلا معنى، مشخصناً؟ وهل القومية في الغرب قد بدأت ترفع رأسها البغيض مرة ثانية؟ وهل ستحدد أمريكا وأوروبة خلافاتهما وتقيمانها؟ وهل يجب علينا أن نسعى إلى اسم عام لهوية «العالم»؟ وهل تستطيع مثل هذه الفكرة أن يكون لها أي معنى حقيقي؟ أو هل الهوية الغربية تمتلك حقاً رنيناً للمستقبل؟

ونحن نعتقد، أن أي نتيجة عدا الأخيرة، سوف تجعل من غير المحتمل للغربيين أن يتابعوا الاستمتاع بالسلام، والازدهار والمجتمع المتمدن تمدناً عريضاً. إن تيارات الهوية المعاصرة تتحرك كالدوامة وتتموج، وتستطيع بسهولة أن تغمر حياة الغرب المحرّزة من المكاره تحت الماء، ونحن نستطيع أن نرى كلاً من الخطر والفرصة بمساعدة رسم الكيفية التي حصلت بها «أفكار» أوروبة، وأمريكا، والغرب، وإلى أي مدى تبقى هذه الأفكار قابلة للحياة في عصر التقط ـ واخلط ـ لنفسك هوية.

فكرة أوروبة

هل أوروبة موجودة؟ حتى الخمسينيات من 1950 تماماً، كان يمكن طرد أوروبة بوصفها مجرد تعبير جغرافي غامض متحول، ومع ذلك، ففي حدود المدى الذي وجدت فيه أوروبة بوصفها قوة مخضِعة في

التاريخ، فإنها وجدت بوصفها فكرة، وهي واحدة من أكثر الأفكار خيالية وإثماراً في كل الأوقات [1].

لقد برزت فكرة أوروبة من فكرة عظيمة أسبق منها ـ وهي فكرة العالم المسيحي، وحين انهارت الإمبراطورية الرومانية، فإن كل ما كان يوحد أولئك الذين كانوا تحت سيطرتها هو المسيحية ـ أي أن كل أراضيها وشعوبها، مهما تكن حالات المد والجزر في القوة السياسية، كانت موحدة عقلياً، وتتمتع بحضارة مشتركة، وكان تراث المسيحية يُستكمل بثقافة فكرية غنية، وتوحده اللغة المشتركة، وهي اللاتينية، ويشترك بالتصورات نفسها، والكتب، والمؤسسات المتشابهة على نحو ملحوظ ـ الكاتدرائيات، والصوامع، وأديرة الراهبات، ومدارس الكاتدرائيات، والجامعات ـ عبر البلاد في كل أنحاء القارة، وامتدت ثقافة العالم المسيحي إلى ما وراء المسيحية نفسها على نحو لا يستهان به متضمنة تأثيرات هيللينية (الإغريق القدماء)، ورومانية، وإسلامية، وفارسية، وصينية.

كانت النتيجة النهائية مجالاً فكرياً مثمراً ومبدعاً على نحو فريد، وأدى إلى أول علم تجريبي في العالم، وإلى أعمال فذة في التقانة والاستكشاف لا نظير لها، وإلى استعمار القارات «الجديدة»، وإلى قهر الجوع والموت المبكر في نهاية المطاف، ولقد قدم العالم المسيحي إحساساً بالولاء المشترك والهوية المستقلة عن الأحداث السياسية،

---

(1) انظر:
Peter Watson (2005) Ideas: A History of Ideas from Fire to Freud, Weidenfeld & Nicolson, London, pp. 319-38.

متجاوزاً بذلك كل المصادر الأخرى للهوية، سواء أكانت محلية، أم قبلية، أم عرقية، أم قومية، أم سياسية، أم دينية كذلك، وهو ما يدعو للمفارقة الساخرة، والعالم المسيحي لم يتوقف عن الوجود بوصفه فكرة قوية حتى حين انفصلت الكنيسة الشرقية عن الرومانية، وحين غادرت الجيوش فجأة في تمارين الاستيلاء على الأرض وسموها "الحروب الصليبية"، وحين كان هناك ثلاثة باباوات يتصارعون في وقت واحد، وحين غمست أوروبة نفسها في حمام الحروب الدينية الدموية.

وفي عملية بطيئة مؤلمة بين العام 1300 والعام 1800، تطورت فكرة العالم المسيحي بالتدريج إلى فكرة أوروبة، التي شملت دائماً تقريباً أوروبة الشرقية، وبعد العام 1300، بدأ الجغرافيون بعمل إشارات متكررة إلى «أوروبة»، وفي العام 1458، نشر البابا بيوس الثاني رسالة عن دولة أوروبة[1]، وفي أواخر القرن السابع عشر حل لفظ «أوروبة» محل «العالم المسيحي» أو «الكومنولث المسيحي» بوصفه اللفظ السائد، ومع حلول القرن الثامن عشر، كان الثناء على أوروبة هو الصحيح في دوائر التنوير الصحيح سياسياً، وصارت فكرة أوروبة مرتبطة مع العديد من القضايا التقدمية، ومن بينها التسامح الديني ـ وهو تقدم ضخم بالنسبة إلى حضارة كانت قد حرقت حديثاً، وبضمير مرتاح عشرات آلاف الساحرات ـ ومنها الليبرالية السياسية، وتخفيف العقوبات القاسية والقومية العدوانية، والسلام الشامل، وتقدم التجارة والصناعة، والتوحيد السياسي لأوروبة، في بعض الدوائر، والهجمات على الدين المستقر.

1. Deny Hay (1957) Europe: The Emergence of an Idea, Edinburgh University Press, Edinburgh.

كان وليام بن (1718 - 1644) هو أول من دعا إلى قيام برلمان أوروبي، وفي العام 1751، سمّى فولتير أوروبة «نوعاً من الجمهورية الكبيرة المقسمة إلى دول عديدة... ولكنها تتوافق بعضها مع بعض... وكلهم يملكون الأساس الديني نفسه...» و«مبادئ القانون العام والسياسة نفسها، وهي غير معروفة في أجزاء أخرى من العالم»، «وليس هناك الآن فرنسيون، أو ألمان، أو إسبان، أو إنجليز»، مثلما غامر روسو بالقول قولاً متفائلاً نوعاً ما في العام 1771، «ولكن أوروبيون فقط»[1].

ووصلت فكرة أوروبة إلى أن تصف لا الواقع الجغرافي، ولكن رؤية شاملة ـ وهي رؤية مجتمع متمدن، متسامح، مسالم، وهو في الوقت نفسه متنوع وموحد، ومتجاوز للقومية وللسياسات، ومؤسس على المعرفة العلمية والتقدمات الثقافية، وهو صديق للفنون، وللعلوم، وللتجارة، وللتقدم في الكرامة الإنسانية، والحرية والسعادة.

في أثناء السنوات الستين الماضية، وجدت هذه الفكرة المؤدبة الدمثة لأوروبة تعبيراً عنها في سلسلة من الترتيبات الاقتصادية والسياسية، وتطور التعاون في مجال الفحم والفولاذ إلى سوق مشتركة، وتطور بعدئذ إلى الاتحاد الأوروبي، وهو انغماس من دول أمم فخورة في مسعى تعاوني أوروبي مصمم لصون السلام، ولتعزيز

---

(1) في غضون ثلاثة عقود من هذه الملاحظة المتسمة بالرؤية، كانت القوى الأوروبية منغمسة في صراع حياة وموت لمنع نابليون من توحيد أوروبة تحت سيطرة فرنسا.

الازدهار، ولمعالجة بعض قضايا العالم الكبيرة في التجارة، والبيئة، وتطور التعاون الدولي.

فكرة أمريكا.

أمريكا فريدة في نواح عديدة، ولكن أهم ناحية في هذه الفرادة هي أن الذين استوطنوا أمريكا كانوا منشقين يناضلون من أجل فكرة يتابعونها، ولقد كان المستوطنون من بروتستانت القرن السابع عشر والثامن عشر[1]، وكانت فكرتهم هي المجتمع المتجانس المتطهر من المواطنين المستقلين ـ يخافون الله، ويعملون بجد، ويحسّنون أنفسهم، وجاء المستوطنون، وقد تسلحوا بالثقافة الأنجلو ـ بروتستانتية (والبريطانية جوهرياً)، وبالقيم وبالخبرة الفنية، واشتركوا في قسم كبير من الافتراضات الفكرية للتنوير الأوروبي الموصوفة أعلاه، باستثناء ارتيابه الديني فقط وتسامحه، إلى حد ما[2].

(1) كان السكان النشيطون سياسياً من الولايات المتحدة في العام 1790 بنسبة 100 بالمائة من البيض، و98 بالمائة بروتستانت و 80 بالمائة بريطانيون (والبقية كلهم تقريباً من الألمان أو من الهولنديين) .

(2) سيكون من عدم التوافق الزمني أن نزعم أن شخصيات التنوير، مثل فولتير، أو ديدرو، أو روسو كانت قد آمنت بمجتمع متعدد الأعراق، ولكن هؤلاء الثلاثة شدّدوا على المساواة الجوهرية للإنسانية، بغض النظر عن الدين، أو العرق، أو القومية، وقد امتلك الأوروبيون ميزة قارة كانت خالية حرة من الرقيق والهجرة الضخمة طوال مئات من السنين، أما الأمريكيون، فقد كانت لديهم لعنة الرقيق، والشكر للتجار الأوروبيين والأفارقة، وفي العام 1790، كان 15 بالمائة من السكان الأمريكيين من الأرقاء السود.

لقد تشكلت الهوية الأمريكية بفعل ثورتين سياسيتين عظيمتين، وهما: الثورة الأمريكية والحرب الأهلية، فحتى الخمسينيات من 1750، تماهى المستوطنون وأحفادهم بشكل رئيس مع مستوطنات الولاية ـ ماساتشوسيتس، أو نيويورك، أو بنسلفانيا، أو فيرجينيا ـ ووراء ذلك تماهوا مع «أمريكا الشمالية البريطانية» ومع الأراضي التي جاؤوا منها، ومع الأحداث التي أدت إلى الحرب وإعلان الاستقلال، وقد بدأت الهوية القومية الأمريكية تظهر، وهي مرتبطة ارتباطاً ثقيلاً مع المعتقد السياسي الذي يعلن المساواة وفردية الأمريكيين الأحرار، وعلى الرغم من ذلك، فقد بقيت ولاءات الولاية هي أبرز الولاءات، حتى الحرب الأهلية تماماً، وبعد هذه الكارثة من الستينيات من1860 إلى الخمسينيات من 1950، صارت الهوية القومية الأمريكية فائقة الأهمية بالنسبة إلى معظم الأمريكيين، وكانت، وهي تعكس جذورها في نزاعين سياسيين صادمين، شكلاً «سياسيا» جداً من القومية، ينبض بالعاطفة نحو «الطريقة الأمريكية»، وهي مجموعة من المعتقدات وصلت إلى أن تكون طبيعة ثانية لمعظم الأمريكيين الأحرار.

ما كانت تلك المعتقدات؟ لقد كانت مؤسسة على الأفكار السياسية الجذرية (الراديكالية) لأوروبة القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، وعلى التطهيرية (البيوريتانية)، وفي العام 1944 حدد العالم السياسي غونار ميدرال «العقيدة الأمريكية»: بوصفها مكونة من «الكرامة الجوهرية للفرد الإنساني، ومن المساواة الأساسية لكل الرجال، ومن حقوق معينة في الحرية غير قابلة للنزع والتصرف بها،

والعدالة، والفرصة المتساوية». ولكن الحقيقة الواقعة لم تتوافق دائماً وترتقِ إلى المثل العليا، طبعاً، ولكن القيم الأساسية التي بنت أمريكا هي التي ترن، مثل جرس الحرية نفسه، رنيناً عالياً وواضحاً.

فكرة الغرب

إن فكرة الغرب ليست أكثر، ولا هي أقل، من فكرة أمريكا ممتزجة مع فكرة أوروبة، وفكرة أوروبة هي فكرة مجتمع متمدن، سلمي، مزدهر مكون من أمم متنوعة موحدة بجغرافية مشتركة وبأفكار مشتركة، وفكرة أمريكا هي توحيد المستوطنين الأوروبيين، وبالدرجة الرئيسة المهاجرين الأوروبيين، والآن أيضاً الناس الذين ينحدرون من أصل هسباني، وذلك من خلال الالتزام المشترك بالمثل العليا السياسية، من الحرية، والمكانة والفرصة المتساويتين، وفكرة الغرب هي القضية المشتركة لأمريكا ولأوروبة لمساعدة إحداهما الأخرى وللدفاع عن الحرية والكرامة الإنسانية.

وإذا كانت «فكرة الغرب» هذه تستثير رد فعل حائر أو مرتاب من طرف العديدين من الغربيين وغير الغربيين على حد سواء، فليس هذا الرد بسبب أن «فكرة الغرب» تفتقر إلى الثبوت من الناحية التاريخية أو إلى الجاذبية، بل بسبب أن بعض الأمريكيين وبعض الأوروبيين قد خانوا الأفكار والمثل العليا التي جعلت الحضارة الغربية جذابة وناجحة بمثل هذا الحال وانجرفوا بعيداً عن هذه الأفكار والمثل، وما كان يمكن أن يكون هناك أي اضطراب أو ارتياب حول

فكرة الغـرب في السنوات التي تلت الحـرب العالمية الثانيـة، ومنذ ذلك الوقت كسب الغرب كسباً هـائلاً في الوحـدة الاقتـصـادية، والازدهـار والقــوة العــسكرية، ولكنه تـدهـور بشكل ملحــوظ في التــمــاسك الاجتماعي، والقوة الأخلاقية، واليقين في الهدف والتساند المشترك المتبادل والتعاطف بين أمريكا وأوروبة، وبلغ ذلك التدهور إلى النقطة التي تحتــاج عندهـا «فكرة الغـرب» إلى أن يعـاد تحـديدهـا وإعــادة التشديد عليها، أو أن تخلّى إلى الأبد.

لقـد غيـر اكتشـاف أمـريكا مسـار التـاريخ وأغنى الأوروبيين غنى ضخماً اقتصادياً، وسياسياً، واجتماعياً وفكرياً في المدى القصيـر، والمتوسط، والطويل، وإن اكتشاف العالم الجديد أعطى تعزيزاً ضخماً لأوروبة، ووفر الفضة للتجارة مع الشرق، ووفـر حدوداً جـديدة للزراعة وللصناعة، وللنمو في مستويات المعيشة التي تدفقت من الإنتاج الكبير من أجل سوق توسع توسعاً ضخماً، ولقد قدمت أمـريكا حياة جـديدة لعشـرات الملايين من الأوروبيين، ومن جملتهم الكثيرون الذين كانوا قد اضطهدوا، أو كانوا يائسين من شدة الحاجة، أو معدمين، وطوال أربعة قرون، زودت أمـريكا المجتمعات الأوروبية بصمام الأمـان، وطوال قرنين وفرت نموذجاً جديداً من الحرية انتصر في نهاية الأمر في كل أنحاء أوروبة، وكانت القوة المحورية الدافعة للتاريخ قُدماً في خمس مئة سنة سـبـقت هـي المصــالح المشـتـركـة والعـبـقـرية المتكاملة للأمـريكيين والأوروبيين.

والأساس الفكري للأفكار متطابق، وهو المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية، ومع ذلك، فإن فكرة أوروبة وفكرة أمريكا تشتركان في شيء هو أقوى كذلك من مجمّع معقّد من الأفكار المتشابكة، ففكرة أوروبة وفكرة أمريكا كلتاهما تتضمن التزاماً جماعياً عاطفياً نحو مجتمع واسع عريض، ونحو جذور جغرافية وتاريخية، ونحو مثل أعلى متطور، والأفكار والمثل العليا مشتركة، والتاريخ والشعوب تتطابق، والجغرافيات فقط هي المختلفة، وإن فكرة الغرب تشتمل على كل الأفكار، وعلى كل المثل العليا، وعلى كل التاريخ، وعلى القارتين كلتيهما، ومعهما المستوطنون الأوروبيون الآخرون في أسترالآسيا.

فكرة الغرب ليست جديدة، على الرغم من أنها لم تكتسب قوة الجرّ السياسي المقنع إلاّ في القرن العشرين، وكان ذلك في الغالب تحت ظروف سيئة الحظ، ومن البداية، مزج «الغرب» مضامين سياسية وثقافية، واستخدم التعبير لأول مرة في الأزمنة الحديثة من الأمريكيين المحبين للإنجليز؛ ليؤكدوا اللغة المشتركة، والحضارة المشتركة والمصالح المشتركة للولايات المتحدة والإمبراطورية البريطانية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، حين كان الاقتصادان متداخلين تداخلاً عميقاً، وكانت الحرب مهمة في تقوية الروابط، وإعادة إنشائها بين الأوروبيين والأمريكيين، وليس أقل سبب لذلك أن الحرب أخذت ثلاثة ملايين جندي أمريكي إلى أوروبة.

في مطالع القرن العشرين، كان التعريف الجغرافي الدقيق «للغرب» غامضاً، ويشمل أحياناً كل أوروبة، وأحياناً يتحدد بأمريكا الشمالية، والإمبراطورية البريطانية، وفرنسا (عادة). وكان انهيار الغرب لأزوولد إشبنغلر غامضاً دائماً بشأن البلدان التي كانت مدرجة للانهيار، وكان يشير في مواقع إلى «حضارة أوروبية أمريكية» وفي مواقع أخرى إلى «غرب ـ أوروبي»، وهو غرب استبعد ألمانيا بوضوح، ومع ذلك، فإن إشبنغلر في مناقشته للحضارة الغربية شمل بشكل ثابت الإيطاليين والألمان، وهو يرشُّ نصه بحرية بكلمات «نا» و «نحن» ملمحاً بالاستنتاج إلى وجود تراث ثقافي غربي مشترك يشترك فيه الكاتب الألماني وقراؤه الألمان.

وحين قسم الستار الحديدي أوروبة ابتداء من العام 1947، وصل «الغرب» إلى استبعاد أوروبة الشرقية التي حكمها السوفييت، ومن حسن الحظ، ومع حلول العام 1991، ومع تدمير جدار برلين وعودة معظم بلدان أوروبة الشرقية إلى الحكم الذاتي، وإلى أساليب الديمقراطية «الغربية» واقتصادات السوق، كان من الممكن مرة أخرى أن نتحدث عن «الغرب» الذي ضم كل أوروبة، من الناحية السياسية والثقافية كذلك.

هل «الغرب» موجود فعلاً؟

إن فكرة الغرب، التي تدمج فكرة أوروبة وفكرة أمريكا، أعادت صنع خريطة العالم أثناء القرن الأخير، فبتكلفة ضخمة، محيت إلى

حد كبير القومية المدمرة التي كانت تهيج الأوروبيين ضد الأوروبيين، وكذلك فقد تلاشت الإيديولوجيات المناوئة للغرب من النازية والشيوعية، ومن الناحية السياسية، وصل «الغرب» إلى أن يعني مجموعة متنوعة من الأمم الأوروبية الحرة والمستقلة، فهي مازالت تحتفظ ببرلماناتها الخاصة وبهوياتها القومية، ولكنها موحدة من الناحية الاقتصادية، وإلى درجة معينة من الناحية السياسية، وهي في سلام مع بعضها، وفي تحالف واسع مع الولايات المتحدة، وهناك أحياناً، وهو أمر لا مناص منه، توترات خطيرة في بعض هذه العلاقات فيما يتعلق بالسلام، والازدهار، والحرية، فمن المرجح أن هذا هو أفضل حل ممكن كان يمكن أن يبرز من أجل كل الشعوب الأوروبية والأمريكية.

الحوادث السياسية تشكل الهوية، ولكن الحوادث السياسية وحدها لا تستطيع أن تحافظ على الهوية، وفي النهاية، فإن «الغرب» يوجد فقط بوصفه فكرة ذات معنى إذا كان هناك مواقف ومعتقدات مهمة، ويتم التمسك بها تمسكاً عميقاً، وهي تميز «الغرب» عن «البقية»، وإذا كانت تلك المواقف والمعتقدات مشتركة على نحو واسع ضمن الأجزاء المكونة للغرب.

نحن نقول: توجد مواقف ومعتقدات. فالغربيون، وليكونوا أمريكيين، أو كنديين، أو بولنديين، أو فرنسيين، أو أستراليين، أو نيوزيلنديين، أو بريطانيين، أو إيطاليين، أو إيرلانديين، أو إسبان، أو فنلنديين، أو من أي بلد غربي آخر، يفكرون ويتصرفون بطرق متشابهة

تشابهاً واسعاً، وهي تختلف عن الطرق التي يفكر بها، ويتصرف بها معظم اليابانيين، أو الصينيين، أو العرب، أو الأفارقة، أو الهنود، أو الماليزيين، وسوف نشرح الاختلاف بين الغرب، والبقية من الناحية التي تتعلق بالتاريخ، وبالثقافة والمعتقدات في الغرب، والتي تشتق في نهاية المطاف من عنقود من الأفكار المشتركة، والمتداخلة، وهي «عوامل النجاح» الستة الخاصة بنا.

لقد تبنى كتاب آخرون مقولات مختلفة، ولكن ليصلوا إلى استنتاجات متشابهة تشابهاً واسعاً، ولقد حدد أزوولد إشبنغلر حراكية (دينامية) الغرب القلقة التي تهدف إلى الأخلاقية التي تطلبت تحسين العالم والكفاح الشخصي.

الإنسانية الغربية، من دون استثناء، واقعة تحت تأثير وهم بصري ضخم، وكل واحد يطلب شيئاً ما من البقية... في أخلاقيات الغرب كل شيء هو اتجاه، طلب للقوة، وإرادة التأثير في البعيد، وهنا يكون لوثر بشكل كامل على اتجاه واحد مع نيتشه، والبابوات مع الداروينيين، والاشتراكيون مع اليسوعيين... وما أخفقنا إخفاقاً كاملاً في أن نلاحظه هو خصوصية الحراكيات (الديناميات) الأخلاقية (في الغرب)[1].

يتحدث عالم الاجتماع دانييل بل عن «الفردية، والإنجازات، ومساواة الفرص»، ويسلط غونار ميردال الضوء على «الكرامة الجوهرية للمخلوق البشري الفرد». إن جوهر الغرب هو خليط غير

(1) إشبنغلر (1991)، ص 176.

قابل للتعريف من العقلانية، والفاعلية، والثقة، وطلب المعرفة، والمسؤولية الشخصية، وتحسين الذات، وتحسين العالم والرحمة، وفي جذرها كلها يوجد إحساس بالفردية الأخلاقية التي اشترك فيها الأوروبيون ومن انحدر منهم، وهم ممثلون اليوم بشعوب أمريكا، وأوروبة وأسترالآسيا.

ونحن لا نقول: إن هذه الفردية الأخلاقية خير كلها في أصولها، أو في نتائجها، وفي الحقيقة، إنها خطرة إلى حد كبير، وتحتاج باستمرار إلى الترويض بالحس السليم، وبالتواضع الذي يكون في الغالب مفقوداً، وإذا استخدمنا الصفة الرائعة التي وصفها بها إشبنغلر، فالأخلاق الفردية الغربية أخلاق «فاوستِيّة». وإنها تسعى إلى القوة، وهي ممزقة تمزيقاً هائلاً للسلطة الراسخة، والثقافات، والتقاليد، وأنظمة الاعتقاد، وطرق الحياة قبل الصناعية، وتمزق كذلك التوازن البيئي كله على ظهر الكوكب الأرضي، فالغربيون لا يعرفون متى يتركون الأمور وحدها، فهم دائماً يذهبون بعيداً جداً، وسريعاً جداً، وإنهم يريدون دائماً أن يفعلوا شيئاً، حين يكون أفضل شيء في الغالب هو ألا يفعلوا شيئاً، وفي رغبتهم للتحسين، فإنهم يتطفلون، وهم يتركون الأشياء في الغالب على شكل أسوأ مما وجدوها عليه، وإنهم غير حساسين لمشاعر الآخرين، وعديمو التصبر، ومستبدون، وهم دائماً متشبثون بآرائهم، وهم في الغالب غير متسامحين، إذ إنهم يقسرون المعارضة بالتهديد، وهم يريدون أن يحولوا عقيدة، وأن يقنعوا، وأن يعملوا تغييرات، فإنهم لا يحبون الاعتراف بأي حد لقواهم الهائلة.

وسواء أكان هذا حسناً أم سيئاً، فالأخلاقية الفردية للغرب، مع ذلك، مشتركة للشعب الغربي، وهي غائبة إلى حد كبير من الشعوب غير الغربية، إلا في البلاد التي كانت قد تأثرت بالغرب، ومثلما يبين عمل عالم الاجتماع غيرت هوفستيد بياناً لا غموض فيه، فإن كل الأمم الغربية فردية إلى درجة عالية، وما من مجتمع غير غربي يقترب منها إلى أي مكان في هذا البعد الفردي[1].

هوية قومية، أو عالمية، أو غربية؟

القومية السامة، في أوروبة، أثر قديم مهجور إلى حد كبير بسبب أهوال «الحربين الأهليتين الأوروبيتين»، وقد تآكلت بفضل نجاح المؤسسات الأوروبية والهوية الأوروبية، على الرغم من أن هذا النجاح لا يعترف به في الغالب إلا بتردد، وإن الأمم الأوروبية، على العموم، لم تبق ميالة إلى أن يغزو بعضها بعضاً، وهي تعتقد أن مصالحها الاقتصادية متكاملة بشكل رئيس. وفي مواجهة مصائب النصف الأول من القرن العشرين، والانقسام والاضطهاد اللذين مثلهما لاحقاً الستار الحديدي، فإن بروز أوروبة الموحدة اقتصادياً إلى حد كبير، مع وجود بعض المؤسسات السياسية المشتركة، مع أن الدول مازالت تحتفظ مع

(1) بناء على طريقة هوفستيد في وضع العلامات، كان متوسط البلدان الغربية 66.7، وكان المتوسط للبلدان غير الغربية 25.7 فقط، وغيرت هوفستيد، نتائج الثقافة: مقارنة القيم، والسلوكات، والمؤسسات، والمنظمات عبر الأمم. مطبوعات سيج، ثاوزند أوكس، كاليفورنيا، 1980، نسخة منقحة، 2001، ولمزيد من التفصيل عن النتائج التي وصل إليها هوفستيد، انظر الفصل 7 الآتي.

ذلك بالبرلمانات القومية والهويات المتنوعة القومية ودون القومية، يبدو تقريباً أفضل نتيجة واقعية ممكنة.

وفي الولايات المتحدة، ولأسباب مختلفة إلى حد كبير مع ذلك، فإن القومية والهوية الوطنية قد انحدرت أيضاً، وإن حركة الحقوق المدنية في الخمسينيات من 1950 والستينيات من 1960 أعادت الأمريكيين إلى المواطنة المتساوية الكاملة، ولكنها أيضاً أنشأت وعياً أسود ووعياً «إفريقياً ـ أمريكياً». وحرب فيتنام، التي كانت غير شعبية وغير ناجحة معاً، أضعفت الهوية الوطنية الأمريكية، حين قامت أعداد كبيرة من الشباب الأمريكي بتجنب السحب في القرعة العسكرية أو بالتهرب منه، بل إن بعضهم تخلى عن الجنسية الأمريكية، وقد استقرت أعداد ضخمة من المكسيكيين أو من المهاجرين الهسبان الآخرين في الولايات المتحدة في العقود الزمنية الثلاثة الماضية، وعلى خلاف المهاجرين السابقين، فقد احتفظ المهاجرون الجدد بعلاقات وثيقة مع قاعدتهم الوطنية، وبقوا في الغالب يتحدثون باللغة الإسبانية وبامتلاك جنسية مزدوجة أو مواطنة مزدوجة، ويعتقد كثيرون من المراقبين أن أمريكا تتطور نحو قيام مجتمع ثنائي الثقافة، وثنائي اللغة.

وكما لوحظ من قبل، فإن تقدم الفردية صار مرتبطاً مع التحول نحو الهويات الداخلية التي تحدد ذاتياً، وهو ما نتج عنه تحول من الارتباط مع الأمة إلى الارتباط مع مجموعات أصغر أكثر تجانساً، وإن التدهور في الهوية المجتمعية، وفي الثقة بالزعماء السياسيين، قد أضعفت أيضاً الولاء القومي. وأخيراً، ومثلما لاحظ صامويل هنتنغتون

فإن «عناصر من نخب أمريكا الفكرية، والسياسية، والأعمال قد أنزلت التزاماتها لأمتها على نحو متزايد، وأعطت الامتياز لمطالب عابرة للقومية ودون قومية في ولاءاتها».

أدت أحداث «9/11» إلى إحياء هائل للقومية الأمريكية، ولكن يبدو أن هذا كان ارتفاعاً حاداً استثنائياً ومؤقتاً في اتجاه طويل، منحدر، وإن توهين الثقة القومية الذي نتج عن الحرب في العراق والتمرد المستمر هناك، وعن الإخفاق الاتحادي في مساعدة الناس (ومعظمهم سود فقراء) الذين تُركوا مهملين في نيوأورلينز بعد إعصار كاترينا في العام 2005، قد أضعفت ثانية الإحساس بأن أمريكا أمة موحدة، واثقة.

الهوية العالمية (الكوزموبوليتانية) «الشاملة» هي على الأقل بديل نظري للقومية، وفي أثناء الثمانينيات من 1980 ومطالع التسعينيات من 1990 صار من الموضة أن يُطرح للنقاش أن «الحداثة» و«التغريب» قد صارا منتشرين ومؤثرين، حتى صرنا كلنا نعيش في قرية كوكبية واسعة واحدة، على الرغم من أن القول: إننا نعيش في «سوق للتسوق الكوكبي» ربما كان وصفاً أقل خرقاً، ولدى الفحص القريب، مع ذلك، فإن العالمية (الكوزموبوليتانية) إما أنها ضحلة للغاية، أو أنها وهم كامل.

وكما وثّق العديد من العلماء، وكما بيّنت الأحداث الجيوسياسية عملياً، فإن البشر لا يفكرون عادة «تفكيراً كوكبياً» وإن الثقافة المحلية، والقومية، والإقليمية، والتاريخ، والدين، والسياسات، ليست جاهزة كي

تكنس إلى سلة النفايات التي سميت «التاريخ»، وإن أولئك الذين تخيلوا غير ذلك يعانون الآن صدمات كريهة، إذ إن علماء الاجتماع وعلماء النفس الذين درسوا الطريقة التي تفكر فيها الأمم المختلفة قد وجدوا مرة تلو الأخرى، النمط نفسه طبعة مشتركة غربية، وحفنة من أنماط أخرى أقل تجانساً من أنماط الفكر الإقليمية، وهي مصنفة عادة بدرجات متفاوتة من الاقتناع والتلاعب إلى أنواع مثل الصيني، والياباني، والهندوسي، والبوذي، والإسلامي، والأمريكي اللاتيني، والإفريقي، والأرثوذكسي/الروسي، وأطروحة «صراع الحضارات»، التي طرحها صامويل هنتنغتون في العام 1990[1]، تبدو بشكل متزايد أصيلة مبدعة، ولكنها متكلفة، وتبالغ في درجة التشابه داخل كل «حضارة» وفي ضرورة قيام الحضارات بالتصارع[2]، ولكن الجدال الناتج سلط الضوء على الأقل على الاختلافات الثقافية، وعلى العواقب المؤسفة في الغالب للهويات المتنوعة القومية، والإقليمية، والدينية، فيما وراء الغرب.

---

(1) في مقالة في مجلة القضايا الخارجية (فورين أفيرز)، في صيف العام1993، بعنوان «صراع الحضارات؟» ، ثم وسعها لاحقاً إلى كتاب:

Samuel P. Huntington (1996) The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order, The Free Press, New York.

(2) ويهمل هنتنغتون أيضاً المدى الذي تصل فيه الأمم والجماعات داخل حضارات «متشابهة» إلى التصادم مع نفسها، وكما قال المؤرخ نيل فيرغسون عن الشرق الأوسط، إنه يبين عملياً «لا صراع حضارات بقدر ما هو حضارة صراعات».

Niall Ferguson (2004) Colossus: The Rise and Fall of American Empire, Penguin, London

إذا كانت القومية والعالمية (الكوزموبوليتانية) حلين فقيرين و/أو ضعيفين بالنسبة إلى الحاجة إلى أكثر من تعريف خاص للهوية، فربما كان البديل الوحيد، وبالتأكيد أكثر الحلول منطقاً، هو الهوية الغربية، وذلك على الرغم من أن الهوية الغربية تتطلب من الأمريكيين، ومن الأوروبيين أن يخففوا من هوياتهم القومية والإقليمية المنفصلة، وإن الهوية الغربية تمتلك خمس ميزات مقنعة لا تقاوم.

الأولى: هي أن الهوية الغربية قائمة على أساس من التاريخ والجغرافية المشتركين، وعلى مجموعة من الهويات القومية التي تمتلك العديد من التشابهات.

الثانية: هي أنها تمشي مع تدفق الحوادث التاريخية، والاقتصادية والسياسية في القرن العشرين وفي الزمن الحاضر منها، توحيد أوروبة، الأهمية المهيمنة للتجارة داخل الكتلة الغربية، وتشابك المنظمات والأحلاف الغربية السياسية، والاقتصادية، والعسكرية.

الثالثة: هي أن الهوية الغربية تعكس الحقيقة الواقعة، وهي أن هناك عقلية مشتركة يشترك فيها كل الغربيين، ولا يشترك فيها غير الغربيين.

الرابعة: هي أن الهوية الغربية واسعة سعة كافية تجعلها تسمح بالاحتفاء بالاختلافات العرقية، والمحلية، والقومية، وبمختلف الهويات دون القومية والعابرة للقومية من الهويات الأوروبية والأمريكية، مع كونها في الوقت نفسه أيضاً قوية قوة كافية لتعني شيئاً، والهوية الأوروبية ـ عالمية عرقياً ـ فهي لا تقلل من الهوية الهسبانية، أو

السـوداء، أو اليهـودية، أو الأيرلـندية، أو الأنجلو سكسـونيـة، أو من أي هوية أخرى شمال أمريكية أو أوروبية، وهي بالتأكيد لا تحرض جماعة عـرقيـة أو قـوميـة ضد أخـرى، أو الأمـريكيين ضـد الأوروبيين، وإنهـا تسمح لكل هذه الجماعات ولجماعات كثيرة أخرى ـ ومن ضمنها جماعة دعاة تعددية الثقافات المصممين عليها ـ لتشعر شعوراً عميقاً نحـو هـوياتهـا المتنوعـة من دون أن يكون عليهـا أن تنكر الحـاجـة إلى روابط مجتمع أوسع، أو إلى تشويه سمعة المصادر الأخرى للهوية أو التقليل من شأنها.

الخامسة الأخيرة: هي أن الهوية الغربية تمتلك محتوى أخلاقياً واجتماعياً مادياً أساسياً، يؤكد حقيقة مجتمع مشترك له جذور جغـرافيـة، مع تراث ثقافي ثري متركز على المثل العليا للقيمة الإنسانية، والمسؤولية والإمكانيـة، وإن الهوية الغربيـة تسمح لكل واحد من أي انتماء سياسي، أو ديني، أو أسلوب حياة، أن يشعر أنه جزء من مجتمع مستغرق للجميع في داخله ومتسامح شامل يحتضن التنوع والفردية، ومع ذلك فهي هوية أكبر من أي فرد، وهي لذلك تساعد على أن تمنح معنى لحياة الفرد من الجنسين.

خاتمـة

الهوية مهمة، وفي القرن الماضي، أوقعت القومية ضرراً يفوق الحصر في أوروبة، أدى إلى حروب رهيبة وأنظمة حكم بربرية، وفي مقابل القومية الدموية، تستقر الحضارة الغربية على «أفكار» متشابهة

جداً عن أوروبة وأمريكا، بوصفهما مجتمعين لأفراد أحرار، ورحماء، ومسؤولين، وإذا كان لهذه القيم أن تمضي قدماً، وإذا كان للمعنى الإيجابي للمجتمعات المحبة للسلام أن يحافظ عليه، فإن على مواطني الغرب أن يجدوا مكاناً في قلوبهم، وفي عقولهم للولاء للغرب، للمزيج والتحالف من أمريكا وأوروبة، ومن المستوطنات السابقة الأخرى التي استوطنها الأوروبيون.

والبديل للهوية الغربية هو إما شكل ما من أشكال الهوية التي تقسم الغرب ، وهذه الهوية، بناء على ملف التاريخ، تقود على الأرجح إلى عالم كريه وخطر، أو هي هوية ليست هوية جماعية مشتركة قطعياً، فإن كانت هي هذه الأخيرة، فسوف نصل إلى حالة من الأمور لم تكن قد وجدت في الغرب لأكثر من ألفي عام، وستكون العواقب على الأرجح، بكلمات توماس هوبز اللافتة للانتباه على نحو يبعث على الكآبة، «حرب الجميع ضد الجميع... وحياة الإنسان وحيداً، وفقيراً، وكريهاً، ومتوحشاً وحياة قصيرة»[1].

لم كانت الهوية الغربية قوية ومختلفة إلى هذا الحد عن هوية الحضارات الأخرى؟ الجواب يكمن في التاريخ الفريد للغرب، وفي الخبرة المشتركة لست فِكَر غربية قوية ومتميزة على نحو ضخم جداً، والفكرة الأولى التي ندرسها هي المسيحية، التي كانت حجر الأساس الراسخ للأفكار الأخرى، ويتبين أن طبيعة المسيحية وأثرها ـ على الغرب، وعلى العالم عموماً ـ قد أسيء فهمهما على نحو عميق.

---

(1) توماس هوبز (1651) ليفاياثان.



الفصل الثاني

المسيحية*

ما من شيء أكثر أهمية أساسية لنجاحات الغرب، ولطغيانه، ولإخفاقاته من المسيحية، ومع ذلك فالمسيحيون والكافرون بالمسيحية قد يفاجؤون بشكل متساو لدى اكتشافهم كيف قلبت المسيحية العالم القديم بشكل كامل، وحولت علاقات السماء والأرض، ومازالت تحدد طريقتنا في الحياة وتحدد شخصياتنا نفسها، والقصة ليست هي التي تروى في العادة، إنها قصة مخادعة، وشخصية، ومحررة، ومزعجة أكثر مما قيل.

وعلى الرغم من أن رجال الكنيسة والحكام عبر العصور قد كافحوا من أجل إنكار الحقيقة الواقعية، فقد كانت المسيحية ـ ولا تزال ـ بعيدة عن الدين المعتاد، فلقد كانت المسيحية أصيلة في ثلاث نواح: فهي جعلت الله شخصاً موجوداً للأفراد، كما جعلت الناس العاديين مهمين على أعظم نحو وعلى أخطره، وجعلت تحسين الذات للأفراد وفقاً للأغراض الإلهية، أهم عنصر في الكون، وباختصار، فإن النسخة الأصلية من المسيحية كانت كفرية، وثورية، وفردية، ومفتوحة من دون حدود ثابتة، وتدعو للمساواة، وداعية للنشاط، ومتفائلة، ومتعصبة، وشاملة وكانت مع ذلك مقسِّمة، وفوق كل ذلك مشتبكة اشتباكاً ضخماً ومتحدية لكل شخص يقع في دوامة إعصارها.

(*) هذا الفصل يطرح عدداً من المعتقدات النصرانية المحرفة التي ردّ عليها القرآن الكريم في كثير من آياته. (المُرَاجِعُ).

لقد كانت المسيحية أول حركة في العالم مفرِّدة، وداعية نشيطة لمساعدة الذات[1]. وهي أيضاً السبب الرئيس الذي يرى الغربيون العالم من أجله ـ سواء كانوا مسيحيين، أو لاأدريين، أو ملحدين، أو من الأتباع المخلصين كذلك لأديان أخرى على نحو مختلف ويتصرفون بصورة مختلفة عن غير الغربيين، ولماذا كان الغرب أنجح من 40 أو50 حضارة أخرى سبق أن أنشئت على سطح كوكبنا؟ فإذا كنا نرغب في سبر غور قوة الغرب، ومجده وتناقضاته، ومساره الذي أسيء فهمه بشكل عميق، فإننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً أفضل من البدء بالمسيحية.

جذور المسيحية

على الرغم من أن المسيحية كانت ظاهرة متفجرة وجديدة تماماً، فهي لم ترتفع بنوع من انفجار ديني من نوع الانفجار الكوني الكبير، فالمسيحية مثل معظم التجديدات المذهلة جمعت فكرتين قويتين سابقتين في الوجود وتيارين من الفكر: الأول يهودي، والآخر إغريقي.

(1) من حوالي 400 إلى 700 عام قبل المسيح، دعا كثيرون من المجددين الدينيين والفلاسفة، ومن جملتهم بوذا وآخرون في الهند، وأنبياء العبرانيين وكونفوشيون في الصين، إلى القداسة الشخصية أو أشكال أخرى من وعي الذات، وانتقدوا سلطة الرهبان، و/أو سعوا إلى قلب الدين من مظهر خارجي إلى قناعة داخلية، ولكن المسيحية كانت هي أول دين جعل الخلاص الفردي وتحول السلوك الشخصي عقائده المركزية، وكان أول من بشّر بأن مثل هذا الخلاص موجود لكل واحد في العالم، وأول دين يقيم توسعه على التنصير من دون تمييز لكل واحد، كان يمكن لها أن تصله، وبهذه الصفة كانت حركة مفرِّدة، وداعية نشيطة لتحسين الذات بطريقة لم يكن عليها أي دين آخر في السابق، وهي في أول 300 سنة لها نمت بمعدل لم يسبق لأي دين آخر أن فعله.

آمن اليهود أن التاريخ كان يتحرك إلى الأمام، وأن الله عمل في التاريخ ليحقق غايته على الأرض، وأنهم هم، الشعب المختار، كانوا لاعبين أساسيين في الأحداث التي يكتبها الله، وكانت الأديان الأخرى قد امتلكت آلهة عديدة جداً، وكل إله له جدول أعماله الخاص به، ولكن أحداً منهم لم يكن مهتماً اهتماماً كبيراً جداً بالناس على وجه العموم، ولكن "يَهْوَه"، الإله اليهودي، كان منغمساً انغماساً عميقاً بالتاريخ الإنساني، ويدفعه نحو مستقبل ذهبي، مستخدماً اليهود من أجل الوصول هناك، وآمن العبرانيون بأن تاريخهم سيكون له عواقب روحية ضخمة لكل العالم، وتمتعوا بخط ساخن فريد مباشر مع الله الواحد القوي، وإن وعي هذا الاتصال كان يتضمن جدية أخلاقية غير عادية، إذ الأعمال الإنسانية قررت المستقبل، وفي القرون التي سبقت المسيح، دعت سلسلة متتابعة من الأنبياء البلغاء إلى التجدد الأخلاقي، وإلى العدالة الاجتماعية والرحمة للفقراء والمضطهدين، وبدؤوا بالإشارة إلى أن الأفراد كانوا مسؤولين أمام الله عن أعمالهم، وتوقع الأنبياء مجيء «المسيح» المنتظر عند اليهود، وهو قائد ذو جاذبية متميزة، إلهي سيظهر في آخر الزمان؛ ليقود كلاً من التاريخ واليهود إلى ذروة الانتصار الرائعة.

وفي الوقت نفسه تقريباً، حين كان أنبياء العهد القديم العظماء، وفلاسفة الإغريق يطورون رؤية متوازية - ولكنها مختلفة عن دور الإنسانية في الكون - رؤية كانت مجردة، وعلمية أكثر من سابقتها، ولكنها كانت مع ذلك رؤية روحية على نحو عميق كذلك، ولقد اعتقد المفكرون الإغريق القدامى أن العالم كان نوعاً من العقل الأعلى، وكوناً

منظماً يديره ذكاء متغلغل فيه، وهو يعبر عن هذا الذكاء، وهو واضح في تصميم الطبيعة، ويمكن أن يصل إليه العقل الإنساني والروح الإنسانية المتطوران تطوراً كاملاً، وكان يجب أن تكتشف أرض الحقيقة في العالم الحاضر للخبرة الإنسانية، وليس في عالم غير إنساني غير قابل للتحقق منه، وعلى الرغم من أن رؤية العالم لدى الإغريق كانت مختلفة جداً عن رؤية اليهود، فإنها كانت تعني ضمناً نتيجة مماثلة داعية للنشاط، فيجب أن يكون البشر مستقلين ذاتياً وأن يتولوا المسؤولية عن أقدارهم، والغايات الإنسانية والإلهية يمكن أن ينسجما، وقد صرح زينوفينيز بالقول: «إن الآلهة لا تكشف، من البداية، كل الأشياء لنا، ولكن الرجال، مع مرور الزمن، ومن خلال البحث، يجدون ذلك الذي هو خير»، وقد علَّم أفلاطون أن معرفة الإلهي كانت مدفونة داخل كل روح إنسانية، والتقدير الإنساني للضوء، وللحقيقة، وللخير كان غير كامل ونصف منسي، ولكن الذكاء كان يستطيع أن يضيء معرفة الإلهي، وأن يحصل على الخلود الإلهي أيضاً.

الدين الجديد وأكثر الأديان تجديداً

مزجت المسيحية الأفكار اليهودية والإغريقية وضخمتها، منتجة بذلك رؤية للعالم هي أغرب بكثير وأشد إفزاعاً من سابقتيها، ولكنها مع ذلك رؤية أقوى من سابقتيها بشكل لا يقبل المقارنة.

إن الله يصير على علاقة حميمة مع الإنسانية بإرساله لابنه يسوع المسيح - المسيح اليهودي - إلى الزمان والمكان، ويسوع المسيح، الإنساني والإلهي معاً، يموت مجرماً مصلوباً على أيدي العدالة اليهودية

والرومانية، ولكن هذا الموت ليس هزيمة، فيسوع المسيح يتغلب على الموت ويستعيد مكانه مع الله، وإن حياة يسوع المسيح، وموته، وبعثه هي الأحداث المركزية في كل التاريخ الإنساني، إنها تكشف عن الله، وهو يصل إلى الإنسانية، ويصير شخصاً، ويعاني من دون شكوى، ويبين عملياً حبه لأفراد بني البشر، ويسترد منهم أولئك الذين يدخلون في الدين الجديد، ويمنحهم السعادة في كل من هذا العالم، وبعد الموت إلى حد أكبر بلا نهاية... وينقذهم من إدانة اللعنة الأبدية والعناء الذي ينتظر الكافرين.

يبدأ يسوع المسيح مثل معلم يهودي تقليدي نوعاً ما، والله يعمل في التاريخ، مستخدماً مزيجاً من الأعمال الإنسانية والإلهية؛ ليبين عملياً غاية الله، ويأتي بالتاريخ إلى نهاية مجيدة، وما هو أقل تقليدية، ومع ذلك، فهو ضمن التراث اليهودي على نحو جيد، هو التشديد على رحمة الله، والتقمص الوجداني، والحب، والاهتمام بالفقراء، والخارجيين، وأولئك الذين يعيشون على هوامش المجتمع، وقدرته على أن ينقذ الإنسانية المعيبة ورغبته في ذلك، وتأتي، أيضاً، ضمن التراث النبوي، على الرغم من أن يسوع المسيح أعطاها قوة غير مسبوقة، دعوة الأفراد إلى الاستجابة لله، وأن يحسنوا سلوكهم وأداء فعلهم وأن يظهروا الرحمة والحب في حياتهم اليومية. وقد أعطى العقلُ وأعطت الوسائل تحولاً جديداً ومقنعاً؛ ليحسن المرء شخصيته، والنموذج الكامل مقدم من الله في المسيح، وهو دليل حب الله لنا، والمثال للكيفية التي يحب بها المرء أعداءه، والقدرة على الاستفادة من قوة المسيح لتحسين السلوك.

وخارج التراث اليهودي تماماً، على الرغم من أنه ربما كان غير متوافق معه، تأتي الفكرة الجديدة عن الله المتألم، وإن قيم العالم قد انقلبت رأساً على عقب، فالله ينشر أعظم تأثير له لا بإظهار القوة الإلهية ـ وهي التي أظهرها طوال التاريخ اليهودي ـ ولكن من خلال أقصى شكل للحب، تبين عملياً باحتمال العذاب، وهزيمة العذاب.

كان لهذه الرسالة أصالة عظيمة، وتوافق ملحوظ مع المعتقدات اليهودية، وبعض الجاذبية للجمهور اليهودي، ولكن ليس لها أي جاذبية أبداً للإغريقي أو الروماني المتوسط، ووفق أي طريق تدبرتها، فهي لم تكن صديقة لروما، فالمسيحية، مثل اليهودية الكلاسيكية، أنكرت كل الآلهة الرومانية، زاعمة أنه كان هناك إله واحد فقط، إله اليهود، ومثل بقية اليهود، رفض المسيحيون الأوائل أن يراعوا دين الدولة الرومانية، مع تضحيتها للحيوانات وعبادة المعبد، والشعائر المدنية والأعياد العامة، وأسوأ من هذا إلى حد بعيد، أن الدين الجديد قد عبد يهودياً ميتاً بصفته ابناً لله، والرجل المختار، مهما تكن صفاته الشخصية، كان خاسراً، كان مجرماً منح أقسى شكل من العدالة الرومانية، والروماني المهذب قد ينظر إلى المسيحية بصفتها عبادة يهودية صغيرة، وإن كانت شاذة، ولكن المسيحية بالنسبة إلى الرجل العادي في الميدان العام، إذا لاحظها مطلقاً، كانت مهينة ومؤذية.

وهكذا، فالمسيحيون الأوائل جميعهم كانوا يهوداً تقريباً، وكانوا يراعون العبادة اليهودية، والشعائر اليهودية وقوانين الطعام اليهودي،

وفي العقد الذي جاء بعد وفاة يسوع المسيح، بدا أن دينه قد وضع ليركد، فبدا واحداً من الطوائف العديدة الصغيرة واليهودية الغامضة.

ولكن انتظر، فلقد كانت المسيحية على وشك أن تتلقى تأثيراتها الإغريقية، وتصير أقوى فكرة على ظهر الأرض، فمن الذي كان مسؤولاً عن الشحن التوربيني، وفي جزء كبير عن خلق المسيحية؟ ثلاثة رجال نابهون ناشطون في النصف الثاني من القرن، الأول: بطرس من طرسوس، وهو يهودي، متعلم بالإغريقية، ولوقا، الذي لم يكن يهودياً أبداً، و«يوحنا»، مؤلف الإنجيل الرابع[1].

كان بطرس نشيطاً في الأربعينيات، والخمسينيات ومطالع الستينيات من عصر المسيح، وكان أول مسيحي يكتب أي شيء عن الدين الجديد الذي غيره وشكله، وبطرس لم يقابل المسيح أبداً، وأظهر القليل من الاهتمام بحياة المسيح إلى درجة تلفت الانتباه، وفي كل رسائله، كان هناك فقط بضع إشارات إلى ما فعله المسيح أو قاله، ولقد كانت فكرة المسيح، الذي قام بعد الموت، هي التي سيطرت على انتباه بطرس، وبالنسبة إلى بطرس، لم يكن المسيح شخصاً عادياً، ولكنه الابن الخالد لله، إذ إن طبيعة الله صارت ظاهرة ظهوراً كاملاً في المسيح فقط، فهو الذي صالح العالم الإنساني مع الإلهي.

---

(1) انظر:

Keith Hopkins (1999) A World Full of Gods, Pagans, Jews and Christians in the Roman Empire, Orion, London; and Andrew Welburn (1991) The Beginnings of Christianity: Essene Mystery, Gnostic Revelation and the Christian Vision, Floris Books, Edinburgh.

إنجيل لوقا وأعمال الرسل عنده ـ وهي التي كانت أطول من كل كتابات بطرس، وضمت ربع ما صار يعرف بالعهد الجديد تقريباً ـ كتبت من أجل الإغريق والرومان، وهذه الكتابات روت كيف أن المسيحية تحركت إلى ما وراء تراثها اليهودي، وصارت ديناً شاملاً.

وكانت قصة لوقا عن بطرس بقدر ما كانت عن المسيح، وكان بطرس قد أراد التبشير والوعظ لأولئك الذين هم خارج الإيمان اليهودي، وأن يسمح لهم أن يتحولوا إلى مسيحيين، معفياً لهم من محرمات الطعام اليهودي والمتطلبات الدينية الشعائرية الأخرى، وقد كان بطرس، المعين من المسيح ليتابع تنفيذ عمله، ضد هذا بشكل قوي، بعدئذ، في رواية لوقا، رأى بطرس حلماً، تمثل في صحيفة تركت تهبط من السماء، مليئة «بالحيوانات والزواحف والطيور» التي كان اليهود يعتقدون أنها «نجسة»، وأمر صوت من السماء بطرس أن يأكلها، واعترض بطرس، فقيل له مرة أخرى أن يأكلها: «لا تقل عن أي شيء: إنه غير طاهر، وكان الله قد خلقه طاهراً». فَهِم بطرس الرسالة: يجب على المسيحية أن تصير متعددة الثقافات ومتعددة الأعراق، ورحب بطرس بكورنيليوس، وهو غير يهودي بارز، بوصفه مسيحياً كامل المكانة، وقال بطرس: «أنا الآن أدرك، كم هو صحيح أن الله لا يظهر المحاباة، ولكنه يكسب الرجال والنساء من كل أمة»[1].

في تبشير بطرس الإغريق والرومان، أعاد تفسير الرسالة، فجعلها متوافقة مع رؤية الإغريق أن العالم كان كوناً منظماً، وكانت الإنسانية

(1) أعمال الرسل، 10. 34 - 35.

تتعلم عنه المزيد والمزيد، فقال بطرس: المسيح فتح الطريق إلى الله، ومن خلال المسيح، استطاع الرجال والنساء أن يفهموا طبيعة الكون وطبيعة الله واستطاعوا كذلك أن يكسبوا الوصول إلى الله.

وطُوِّرت فكرة بطرس تطويراً كاملاً من كاتب آخر، هو «يوحنا»، مؤلف الإنجيل الرابع العظيم والعميق بشكل لا يقارن بما قبله، وهوية يوحنا سر غامض[1]. ويظن أنه مثل لوقا، كتب في إفيوسوس (وهي الآن في تركيا)، وعلى الرغم من أنه جاء بعد لوقا، ويرجح أن يكون ذلك عند بداية القرن، وقد بدأ يوحنا روايته بأسلوب أخاذ: «في البدء كانت الكلمة (اللوغوس)»، وكان كل متعلم روماني، وأي شخص غيره انتفع من الثقافة الإغريقية، قد عرف فكرة اللوغوس، وكان يستطيع الآن فوراً أن يربط مع القصة، قصة اليهودي المصلوب أعيد وضعها بصفتها التحفة الرائعة للفلسفة الإغريقية المعاصرة.

فيلو الإسكندراني، وهو معاصر أكبر سناً من المسيح ومن بطرس، كان قد ابتدع من قبل تركيباً يهودياً إغريقياً مؤسساً حول مفهوم الكلمة اللوغوس، وقال فيلو: إن اللوغوس عَنى أفكار الله، وكان يمكن فهم اللوغوس في ثلاثة طرق: الفكرة المركزية التي تدفع الكون، وعامل الخلق، والعامل الذي استطاع الإنسان من خلاله أن يفهم الله، وبضربة واحدة لامعة، جعل يوحنا من المسيح هو اللوغوس، مؤنسناً

(1) يعتقد كثيرون من العلماء أن الإنجيل الرابع استلهم ووثق من جون زبدي، صياد سمك سابق صار «التلميذ المحبوب»، ولكن الإنجيل كتب من عالم دين تدرب في الإغريقية، ويحتمل أن يكون يوحنا الأكبر، تابع يوحنا زبدي.

الله ومشخصناً له وممكّناً له أن يكون مفهوماً في طرق فيلو الثلاثة، وكان المسيح هو الذكاء هو الذي يرتب الكون، وخالقه، والطريقة التي استطاع بها البشر أن يفهموا الله ويصلوا إليه، وإن الاختراق المفاهيمي الذي جاء به يوحنا كان متوافقاً مع التبشير الأسبق من بطرس، ولكن يوحنا أخذه إلى مستوى جديد سام، فلقد أعاد يوحنا تفسير المسيح وألهه بطريقة لم يسبق لأحد من قبل أن تجرأ عليها، وتفاصيل المسيح التاريخي صارت مجرد خلفية لرؤية جليلة، محررة للإنسان ولله، وهي غير مقيدة مطلقاً بالتاريخ، أو الجغرافية، أو العرق، أو المعتقد، أو الثقافة، فالرجال والنساء يستطيعون المشاركة في طبيعة الله؛ لأن كل مخلوق بشري امتلك داخله الشرارة الإلهية.

كان هذا حين بدأ كل شيء بالانفجار، فكل الأفكار اليهودية الغريبة التي كانت خلف المسيحية تُرجمت إلى إطار العمل المفاهيمي الإغريقي، وهو ما جعل الدين الجديد أكثر تعقيداً من الناحية الفكرية، ولكنه جعله أيضاً أكثر جاذبية من الناحية الشخصية، وفي متناول الناس العاديين، وغير المتعلمين والأميين، والمسيحية الجديدة ضمت اعتقاداً واحداً متجاوزاً، وأربعة مضامين عمل عملية، وكل واحد منها جلجلت أصداؤه عبر التاريخ، مثل البركان:

- كان الاعتقاد المتجاوز هو أن الله صار إنساناً، عاش، وعانى، ومات، وعاود الالتحاق بالمملكة الإلهية، وهذه الأنباء الرائعة حركت الإنسانية والله معاً.

- وكان مضمون العمل الأول ارتفاعاً ضخماً للتطور الشخصي للفرد ومسؤوليته.
- ومضمون العمل الثاني كان القوة الموجودة خلف تحسين الذات، وهو الزعم المذهل أن كل المؤمنين يستطيعون أن ينفتحوا مباشرة إلى حب الله، بل أن يصيروا جزءاً من الله.
- ومضمون العمل الثالث كان التزاماً غير مسبوق نحو الفقراء والمعدمين، والخارجيين.
- ومضمون العمل الرابع والأخير هو أن المسيحية أقل سعادة، فلقد كان لدى المسيحيين الأوائل إحساس حارق بأن التحول إلى المسيحية صنع الفرق بين السعادة الأبدية والعذاب الأبدي، ومن هنا صارت المسيحية هي أول دين تبشيري وأنجحه.

الاعتقاد المتجاوز ـ الله صار إنساناً

ونتيجة لذلك، فإن كل مسار التاريخ الإنساني، والقَدَر الممكن لكل شخص على الأرض، تحول نحو الأفضل إلى مدى لا حد له «وصار اللوغوس هو اللحم وعاش بيننا» ويكشف حب الله اللانهائي للإنسانية، وبسبب هذا الحدث المفرد، صار الخالد تاريخياً، وصار الإلهي شخصياً، وصارت الحياة الفردية ـ ومنها حياة أولئك الذين هم غير استثنائيين تماماً، وأناس عاديون ـ مهمة أهمية سامية، وكل النساء والرجال يستطيعون الوصول إلى الطبيعة الإلهية، وتستطيع روح الله أن تسكن داخلهم.

مضمون العمل الأول: تحمل مسؤولية شخصية

العبرانيون، مثلهم مثل كل قبيلة أخرى، اعتقدوا في الأصل أن الذّنب والبراءة من الذنب يلحقان بالقبائل كلها، لا بالأفراد[1]، ولكن في أثناء نفي اليهود في بابل، في القرن السادس قبل المسيح، صرح النبي حزقيال أن المسؤولية تقع على الفرد لا على العائلة أو القبيلة[2]، وأسهب الأنبياء الذين جاؤوا من بعد في الموضوع، وصارت المسؤولية الشخصية مقررة من الله، وذهبت المسؤولية الفردية إلى أبعد من مراعاة القانون، فلقد تطلبت كذلك أعمال الرحمة والعدالة الاجتماعية.

لقد مدَّ المسيحيون كلاً من رؤيتي اليهود والإغريق عن الإمكانية الإنسانية، ولكنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك كثيراً، فالمسيح، وبطرس، ويوحنا والكتاب الآخرون للإنجيل أصروا على أن كل فرد واجهوه ـ نساء ورجالاً على حد سواء ـ يجب أن يتولى مسؤوليات الحرية الداخلية، فالحق اليهودي المكتسب مع الولادة في الوصول إلى غاية الله وحبه قد جُعل حقاً شخصياً وشاملاً، فمن خلال المسيح، اكتسب الله فجأة موقعاً جديداً داخل الناس، في النفس الإنسانية، والروح الإنسانية، وكان بطرس هو أول من قرر بوضوح أن المسيح يستطيع أن

---

(1) في سفر الخروج 20. 6 - 4، خطيئات الآباء «سوف تصيب الأبناء حتى الجيل الثالث والجيل الرابع»، وتدمر عائلات كاملة، حين يموت رب العائلة أو القبيلة (على سبيل المثال، جوشوا 7).

(2) «النفس التي تخطئ هي التي سوف تموت، ولن يشارك الابن في ذنب الأب، ولا سيشارك الأب ذنب الابن» (حزقيال 20018).

يعيش داخل كل مؤمن، وحين تكلم بطرس إلى الأثينيين، أعاد تشكيل المسيحية في ألفاظ إغريقية صديقة:

قال بطرس، وهو يقف في وسط السوق:

... إن الله ليس بعيداً عن كل واحد منا؛ لأننا «فيه نحن نعيش ونتحرك ونمتلك وجودنا» بل كما سبق أن قال بعض من شعرائكم، «لأننا في الحقيقة ذريته»(1).

وكتب بطرس إلى المسيحيين في كورينث: «جسدكم معبد للروح المقدس داخلكم»(2). بل لقد ذهب مسيحي قديم آخر إلى أبعد من ذلك: «الله حب، والذي يعيش في الحب، يعيش في الله، والله يعيش فيه»(3). وبحسب ما يقوله القديس بطرس، فإن المؤمنين الأفراد يستطيعون «أن يصيروا مشاركين في الطبيعة الإلهية»(4).

وكانت فكرة الفردية قد تأكدت بطريقة جديدة، مرتبطة معاً مع الله، ومع الآمر الأخلاقي لتحسين الإنسان لذاته، وكانت الفردية تعني التطور، وهو التزام، رعاه الوعي بحب الله المدهش، غير المحدود، ليصير الإنسان شخصاً أفضل وأكثر نفعاً.

من العسيرْ علينا اليوم أن نفهم تماماً أي نوع من الاختراق شكلته هذه الفكرة في ذلك الوقت، وأي رؤية للعالم مذهلة، وقد جاءت على

---

(1) أعمال الرسل 22017، 27 - 9.

(2) الكورنثيون 1906 - 20.

(3) يوحنا 1604.

(4) بطرس 401.

عكس ما تتوقعه البصيرة، كانت هذه الفكرة في ذلك الوقت، وهي الفكرة التي جاءت عن الإمكانية الشخصية والفردية وعن الالتزامات الشخصية والفردية، ولقد بدأت بالادعاء المسيحي الأصيل أصالة كاملة أن الله القوي، خالق السماء والأرض، كان مهتماً اهتماماً عميقاً في صلاح كل شخص فرد في العالم. «إن الله أحب العالم كثيراً، إلى درجة أنه أرسل ابنه الوحيد» إلى الأرض، ليعاني وينقذ لا الإنسانية على مستوى جماعي، بل على مستوى بني البشر الأفراد، فلقد عمل الخلاص على مستوى الشخص المفرد، ولأول مرة في أي وقت سبق، آمن المسيحيون بإله شخصي، قادر على أن يرتبط بأفراد البشر المنفصلين، والله عند المسيحيين امتلك اهتماماً مباشراً وعميقاً بالقضايا الإنسانية، واهتماماً ملحاً في كل مخلوق بشري، مهما تكن مكانتهم أو قوميتهم.

وبالنسبة إلى الإغريق والرومان، فإن مفهوم أن الله ـ أي إله ـ اهتم بالأفراد، واهتم أقل من ذلك بما كانوا يفعلون، كان ببساطة مفهوماً غير قابل للإيمان به، وكثيرون من المسيحيين الأوائل، وخصوصاً إذا لم يكونوا يهوداً، وجدوا هذا الاعتقاد عسيراً على أن يستساغ[1]. ومع ذلك، فإن الرأي المسيحي في الاتجاه السائد عن المسؤولية الشخصية أمام الله هو الرأي الذي ساد، محولاً بذلك مسار التاريخ الغربي.

---

(1) على سبيل المثال، مارشيون، المجدد المسيحي الراديكالي واللاأدريّ (المؤمن بالمعرفة السرّية) الذي أثر تأثيراً كبيراً في منتصف القرن الثاني، قال: إن الله لم يهتم كيف عاش الأفراد.

مضمون العمل الثاني: استخدام قوة المسيح للتغيير

تطلبت المسيحية طريقة حياة جديدة، تقوم حول الحب، والنفع («الخدمة») للناس الآخرين، والتطوير الكامل لقدرات الفرد، ولم يسبق لدين من قبل أبداً أن طلب مثل هذا الالتزام الفردي، ولكن المسيحية أيضاً قدمت الوسائل، والتقانة اللازمة لطريقة الحياة الجديدة، وهذه أيضاً كانت مفرَّدة تفريداً عميقاً، ولم تكن مسألة قواعد وتنظيمات، أو انسجامٍ مع سلطة دينية، فإن الله غرس في كل فرد مسيحي إحساساً بالحق والباطل، وضميراً، ووعياً بالذات وبالمعرفة لما ينبغي الكفاح من أجله، وأفضل من ذلك، أن المسيح أعطى المسيحي الفرد طريقاً مباشراً إلى الله، ومن الله.

كان بطرس مستثاراً بفكرة الحرية التي أعطاها المسيح إلى الفرد، وكتب إلى المسيحيين في غاليثيا، «وعلى الرغم من ذلك فنحن، حين كنا أطفالاً، كنا في استرقاق تحت عناصر العالم... الآن، في المسيح، نحن أحرار»[1]. ومن خلال الوصول إلى القوة الإلهية في المسيح، تستطيع الشخصية أن تعتمد على مصادرها الداخلية، التي وضعها الله هناك، وبهذا تحقق الشخصية الثقة وحرية العمل بوصفها شخصاً مستقلاً استقلالاً ذاتياً.

وأصر بطرس، على أنه ما من أحد كان خارج قبول المسيح وحبه ـ لا المذنب، ولا المنبوذ، ولا قتلة المسيح كذلك، ولقد عانى بطرس

(1) الغاليثيون 304.

إحساساً عميقاً من ذنبه الخاص ومن فساد أخلاقه، وقد خَبَرَ لطف الله وعنايته من خلال المسيح، واخترع فكرة الاستسلام لحب الله غير المشروط طريقاً إلى إزالة الذنب وبدء العيش على النحو الصحيح: «لأن حب الله يضبطنا»[1]. لقد كان عبثاً أن يحاول المرء أن يتحسن بجهوده الخاصة، إن الاستسلام فقط لقوة أكبر ـ قوة مكونة بكاملها من الحب ـ هو الذي يمكن أن يعمل.

ووصّل لوقا الرسالة نفسها في صيغة مختلفة، فلقد أخبر كيف دخل الروح القدس التلاميذ في يوم عيد الخمسين، واستطاع الإنساني والإلهي أن يمتزجا، واستطاع أتباع المسيح أن يحققوا معجزات أكبر من تلك التي حققها المسيح، من خلال قوة روح المسيح، وتحت التأثير الإغريقي، صار هذا في نهاية المطاف هو فكرة «الروح»، فكرة أن كل الأشخاص امتلكوا داخلهم نفساً مُشَخْصَنَة وجوهرية خالدة، وهي التي ربطتهم إلى المملكة الإلهية وأقدرتهم على تحسين أنفسهم[2]. ومع مجيء القرن الرابع، تجرأ رجل اللاهوت أثاناسيوس على أن يأخذ فكرة الإلهام الإلهي إلى نتيجتها المنطقية، وقال: «إن الله

(1) كورنثيون 1405.

(2) لم يتحدث المسيحيون الأوائل عن «الروح» ـ فالكلمة نادراً ما يمكن أن توجد في كل العهد الجديد ـ وآمنوا بالبعث الجسدي بعد الموت، ولكنهم تحدثوا، مع ذلك، عن الحياة الداخلية، وعن «الله» و«المسيح» و«الروح القدس» الذين يعيشون في الداخل ويوجهون المسيحيين، أما فكرة الروح، التي كان لها على الرغم من ذلك وجود طويل وغامض في الغالب قبل التاريخ، فقد صارت مؤثرة في المسيحية من خلال التأثيرات الإغريقية، وخصوصاً من خلال تأثيرات أفلاطون =

صار إنساناً لكي نصير نحن الله». ورأى المسيحيون بعد ذلك تجلي قوة الله في كل ما حققته الإنسانية في العلم، وفي الطب، وفي الحضارة الليبرالية.

مضمون العمل الثالث: ساعد الضحية المستضعف

ركز المسيح، إلى مدى يلفت النظر، على الخاطئين، والعاهرات، والمضطهدين، والمرضى والعُرْج، والأجانب وغير اليهود، فكلهم كانوا محبوبين من الله، وكلهم كانوا يستحقون الاحترام.

لقد أعطى بطرس أول بيان عن مساواة الإنسانية والأخوة سبق أن سجل في كل الأزمان، وقال: «ليس هناك يهودي، ولا إغريقي، عبد أو حر، ذكر أو أنثى؛ لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع»[1].

والرواية الآتية عن المسيح جاءت من مرقص، فقد كان إنجيله القصير مليئاً بقصص المسيح، وهو يشفي المنبوذين - الرجل المشلول، والمتشرد الذي استحوذ عليه الشيطان المختبئ في المقبرة، والمرأة

= وفيثاغورس، اللذين روجا فكرة الروح الخالدة، ويجب أن نلاحظ، مع ذلك، أن معظم الإغريق لم يؤمنوا بالجزاء والعقوبات بعد الموت، فلقد كانت المسيحية هي أول دين يقرر بشكل ثابت أن الخلاص والإدانة الخالدين كانا هما البديلين الوحيدين، وفكرة «الروح» المسيحية لاحقاً صارت هي المستودع الملائم للروحانية المفرَّدة وجسراً يوصل إلى المفهوم الحديث «للنفس»، وكلتا «الروح» و«النفس» كانت صحيحة فعلاً، وإذا كان فيها مفارقة زمنية، فإن تأملات الرؤية المسيحية الأصلية أن الله يستطيع أن يعيش في كل مخلوق بشري ويغير سلوكه أو سلوكها بطريقة مشخصنة ومفرَّدة على نحو كامل.

(1) الغاليثيون 2803.

المتــألمة، والطفل الذي يموت، والرجل الأصم والأخــرس، والرجلين الأعـميين، والولد الذي تستحـوذ عليه روح شـريرة – والمسيح يطعم حشدين اثنين عظيمين، واختار المسيح الناس المتواضعين تلاميذ له، وامتدح أرملة فقيرة، ورفض أن يهمل مجموعة من الأطفال غير المهمين، «لأن مملكة الله تخص مثل هؤلاء». والشخص الوحيد الذي لم يستطع أن يساعده المسيح كان هو الشاب الغني، الذي أحبه المسيح، ونصحـه أن «اذهب، وبع كل شيء تملكه، وأعط الفـقـراء... وبعـدئذ تعال، واتبعني، وعند هذا سقط وجه الرجل، وغادر المكان وهو حزين؛ لأنه كـان يمتلك ثروة عظيمـة»[1]. وعلى الرغم من المنظور اليهودي لماثيو، فقد بدأ إنجيله باستحضار المنجمين غير اليهود إلى المسيح الطفل، وأغلق إنجيله بالمسيح الذي أقيم مخبراً الرسل بأن «اذهبوا وتلمذوا تلاميذَ من كل الأمم»[2].

وأضاف إنجيل لوقا السامريَّ الطيب، والابن المسرف، والأحمق الغني، والغنم المفقودة، والقاضي غير العادل، والفريسي المتكبر الذي قوبل مقابلة معادية بجامع الضرائب المتواضع، وفي الناصرة، اقتبس المسيح من إشعيا: الله «مسحني؛ لأبشر بالأخبار الطيبة للفقراء... ولإعلان الحرية للسجناء، ولاستعادة البصر للعميان، ولإطلاق المضطهدين...»[3]. والصحيح هو أن كل أديان العالم العظيمة تشدد

(1) مرقص 10. 21 - 2.
(2) ماثيو 28. 19.
(3) لوقا 4. 18.

على العدالة، وعلى الاهتمام بالفقراء، ولكن من بين كل الأديان، كانت المسيحية الأصلية الأولى هي أكثرها راديكالية، ودعوة للمساواة والشمول، وسحقت كل الحواجز بين الناس، حتى الحاجز بين الأفراد وبين الله، وليس مصادفة أن الغرب كان الحضارة الوحيدة في كل الأوقات* التي ألغت تجارة الرق، طوعاً، وأول حضارة تلغي الجوع وتقهر، إلى مدى كبير، الموت المبكر، وأول حضارة تضع في المكان المناسب إطارات عمل المساندة الاجتماعية للمواطنين، وأول حضارة تمنح الحرية والمساواة للرجال العاديين، ولاحقاً للنساء، وتبدأ بإزالة التمييز ضد الأقليات المحددة بالعرق، أو اللون، أو العجز، أو التفضيل الجنسي.

مضمون العمل الرابع: أنقذ الملعون

كانت المسيحية، من البداية نفسها، شاملة، بمعنى أنه يمكن لأي شخص أن يُنقَذ، وكانت مفرِّقة في الوقت نفسه، أي أن المنقَذين ضد الملعونين، وهناك تعصب مشبوب العاطفة، يبلغ حد العنف، وهو كامن في المورِّثات المسيحية من البداية تماماً، وهو في حالة توتر بارز مع توكيد المسيحية الآخر للحب والتضحية بالذات.

لقد مثَّل ماثيو هذا التراث المظلم، وصور المسيح يقصي التجار بعيداً عن المعبد، «يقلب طاولات صرافي العملات ومقاعد أولئك الذين يبيعون الحمام»[1]. وروى عن المسيح قوله: «لا تفترضوا أنني قد جئت لأجلب السلام إلى الأرض، فأنا لم آت لأجلب السلام،

(*) يبالغ المؤلف في تمجيد الحضارة الغربية، وينسى أو يتناسى أن هناك حضارات سبقت الحضارة الغربية في الدعوة إلى المساواة والحرية، وغير ذلك من المُثُل والقيم.

(1) ماثيو 21. 12.

ولكن لأجلب السيف، وذلك لأنني جئت لأحول» «الرجل ضد والده، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها ـ أعداء الرجل سيكونون أعضاء بيته الخاص به»[1].

إن رواية ماثيو هي التي يشجب فيها المسيحُ المدن التي لم تستمع إليه: «الويل لك، يا كورازين! الويل لك، يا بيت سيِّدا!... وسيكون الأمر أكثر احتمالاً بالنسبة إلى صور وصيدا في يوم القيامة منك...»[2]

كان ماثيو مهتماً بجهنم، وعلى صرير الأسنان والعذاب الخالد في الحفر الحارقة، والعقيدة اللاحقة عن «المختارين» ـ فكرة أن قلة فقط سوف تكون ناجية، في حين أن معظم الإنسانية ترسل إلى لهيب جهنم ـ يمكن تتبعها والعودة بها إلى القصة الرمزية في ماثيو عن الأبواب الضيقة والأبواب الواسعة[3]. وفي إنجيل يوحنا، الذي كُتب حين كان اليهود الأرثوذكس يحرمون اليهود المسيحيين ويعزلونهم، وجدت مسحة مزعجة من معاداة السامية، فيوحنا جعل المسيح يقول لليهود: «أنتم من الأسفل... أنتم تنتمون إلى أبيكم الشيطان، وأنتم تريدون أن تنفذوا رغبة أبيكم. لقد كان قاتلاً من البداية»[4]. إن الميل إلى فرض الأفكار الصحيحة بالقوة، وتقسيم العالم إلى غنم وماعز، وإلى صليبيين ضد الكفار والميل إلى العنف ضد اليهود، وإلى القتل الجماعي في سبيل متابعة انتقام الله، وإلى فرض القانون «المسيحي»

(1) ماثيو 10. 34 - 6 المسيح يقتبس من مايكا.
(2) ماثيو 11. 20 - 4.
(3) ماثيو 1307.
(4) يوحنا 8. 21 - 44.

على الوثنيين العصاة، وإلى التعصب والقسوة في متابعة غاية «أعلى»، وإلى محاكم التفتيش، وإلى التوغل في الأفكار الخاصة باستخدام التعذيب، هي كلها جزء من التراث المسيحي للغرب، وهذه الموضوعات المتنافرة مازالت لها أصداء في صفوف بعض المسيحيين الأصوليين، ومع ذلك، وبصفة عامة، وطوال قرن ونصف على الأقل، كان التعصب المتطرف يُحذَف من المسيحية، ولكنه يستمر، مع ذلك، في الظهور ثانية، في مظاهر عَلّمانية، وفي الرعب الثوري، وفي القومية المتطرفة، والشيوعية، والنازية، وفي تشويهات الأديان الأخرى، وهذه المظاهر، أيضاً، جاءت إلى درجة كبيرة من المسيحية والغرب.

التحريف، والتغيير والإصلاح

حركة المسيح الأصلية كانت في السوق لذوي الدخل المحدود، وثورية، ومدفوعة بالاعتناق الفردي لها، وكان عدد المسيحيين صغيراً، مع أنه كان ينمو نمواً سريعاً جداً[1]. وكانوا موزعين في العديد من مدن البحر الأبيض المتوسط المركزية والشرقية، وكانوا يجتمعون،

(1) أفضل تخمين هو أنه كان هناك أقل بشكل ملحوظ من 10.000 مسيحي في العام 100 من عصر المسيح، وحوالي 200.000 في العام 200 من عصر المسيح، ونظراً إلى أن السكان الرومانيين في العام 200 من عصر المسيح كانوا حوالي 60 مليون نسمة، فقد كوَّن المسيحيون 0.3 بالمائة فقط من مجموع السكان، ومن ناحية أخرى، كان العدد على الأرجح ينمو وفق معدل نمو سنوي مركب من 4 - 3 بالمئة، وذلك حتى بلوغ العام 200 من العصر المسيحي، وكان المعدل أقرب إلى 6 بالمئة في القرن الآتي، وبحلول العام 300 من القرن المسيحي، فمن الممكن أن يكون قد صار هناك ستة ملايين مسيحي في الإمبراطورية الرومانية، أي، 10 بالمائة من السكان.

أحياناً، في السر، في جماعات نظام ديني منزلي صغيرة، والرسالة الراديكالية من تطور الفرد، والوصول إلى الله الشخصي، وإلى الحب، وهي الموضوعات التي كانت مهيمنة في القرنين الأولين، تغيرت تغيراً بارزاً في القرنين اللاحقين، وبعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية في العام 312، صارت المسيحية محرفة إلى دين روماني إمبراطوري، فروما السلطة السياسية فرخت الكنيسة السلطوية لروما، والمسؤولون المسيحيون الآن اندمجوا في النخبة الرومانية، وصاروا في الأغلب أثرياء وأقوياء، ويبنون تراتبية هرمية كنسية تفصيلية مركزية، مع محاكمها الخاصة بها وعقوباتها؛ لتوازي، وأحياناً تتحدى، نظيراتها الإمبراطورية، والتنافس الذي كان موجوداً بين العقائد المسيحية المختلفة أُنهي بشكل مفاجئ بإعلانات المجالس الكنسية، وحُدّد تعريف العقيدة، والزندقة (الهرطقة). وصار المضطهَدون هم المضطهِدين، والرسالة المسيحية البسيطة، والروح المسيحية الأصلية المستندة إلى خبرة شخصية مع الله، صارت مكسوة بالأحكام الدينية التفصيلية، ومهذبة إلى درجة عدم الفهم، والخط المباشر مع الله انقطع، وصارت الكنيسة أهم من أعضائها.

وحين سقطت الإمبراطورية الرومانية ـ بحسب إدوارد غيبون، نتيجة للبربرية والدين ـ تولت الكنيسة الرومانية مقاليد القوة، ومع ذلك فإن المثل الأعلى، المدون بوضوح في الأناجيل، لن يختفي. ومهما ظهرت المسيحية جبانة ومتابعة في الدين، فقد كانت هناك دائماً عناصر من البحث في الروح، ونقد الذات، والضمير، والفردية الخلاقة، ومحاولات لإعادة تأسيس العلاقة المباشرة مع الله، وبقيت حية المثل العليا للمسؤولية الشخصية وأهمية الحياة الداخلية.

بعد حوالي العام 1100، وبمساعدة من التفاعل مع علماء مسلمين، أعيد اكتشاف العلم والفلسفة الإغريقيين وطُورا أكثر على يد جامعات جديدة ذات استقلال ذاتي، وتعمقت الروح الإنسانية، وحلّق الإبداع وتضاعفت مورّثات الفردية المسيحية والحرية الفردية تضاعفات ضخمة.

في العام 1517، ثار مارتن لوثر ضد سلطة الغرب العليا الدينية والثقافية، وأعاد تعريف المسيحية، واستعاد الإصلاح البروتستانتي العلاقة بين المؤمنين الأفراد وبين الله، مزيلاً دور الكنيسة بوصفها وسيطاً، وتحت «كهنوت كل المؤمنين»، وقف كل شخص مرة أخرى أمام الله، وهو مسؤول عن خلاصه أو خلاصها الأبدي أو إدانتها، فلوثر، الذي كان راهباً في السابق، تزوج راهبة سابقة، وبدأ تكوين أسرة، إذ عفة الامتناع عن الزواج تُرِكت وخرجت وصارت الحِظْوة للزواج المقدس.

وحمل دينُ جون كالفن الصارم المسؤولية الشخصية إلى مرحلة أبعد، فصار العمل الدنيوي المسيحي والنجاح مؤشراً هادياً للمكانة الروحية، وفي غضون قرن أو ما قارب ذلك، في البلدان البروتستانتية، وخصوصا تلك التي لامستها الكالفينية، صارت المسؤولية الفردية، والتعبير الفردي عن الذات وتحسين الذات الفردي من خلال العمل الشاق والأمانة هي النبضات التلقائية، ولم يبق الدين يطلقها بعد الآن، ولكنها جزء جوهري لا يتجزأ من طريقة الحياة الفردية ومن تقدير الذات.

موت الإله

نظراً إلى أن الغرب أخذ العلم والبحث العقلي إلى مدى أبعد من أي حضارة أخرى ـ مستلهماً في ذلك إلى حد كبير رغبة المسيحية للاحتفاء بخلق الله وفهمه ـ فقد كان الغرب أيضاً الأول في التحرك نحو مجتمع علماني، وكانت إحدى النتائج غير المقصودة للإصلاح هي فصل العلم عن الدين.

ومن غير معرفة وقصد، حرك العلم التركيز تحريكاً ثابتاً من الله إلى الطبيعة والإنسانية، فنيكولاس كوبرنيكوس (1473 - 1543) حرك الأرض من مركز الخليقة، وصارت مجرد كوكب آخر، وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، صار الله صانع ساعة سماوية، فبعد أن أنهى خلق الكون وضبط نظامه، تركه لتديره القوانين الطبيعية، ورأى تشارلز دارون (1809 - 1882) البشر مثل بقية الحيوانات، منتَجاً للتطور والارتقاء، أما فريدريك نيتشة (1844 - 1900) فقد أعلن أن «موت الإله» ـ كان الله في العادة موجوداً، ولكن التطور والارتقاء تقدم، وجاءت اختراقات العلم في القرن العشرين، فجعلت الاعتقاد بأن الكون كان مصمماً تصميماً خاصاً للمنفعة الإنسانية يبدو اعتقاداً قديماً غريباً.

وفي مسيرة التقدم، تغلبت القيم العلمانية الغربية على القيم المسيحية، وإن معرفة إنجيلية طوال قرن قد كشفت عن الأصول الإنسانية، للمعتقدات المسيحية الأولى، وعن التدفق المستمر فيها،

متسائلة لا عن الاعتقاد فقط بأن الإنجيل كله يمكن أن يكون كلمة الله المنزهة عن الخطأ، بل عن المعجزات، وعن الولادة العذرية كذلك، وعن فكرة أن المسيح قصد إلى أن يؤسس ديناً أيضاً.

المسيحية مقسومة إلى نخبة متقدمة وغير واثقة من نفسها، يجب عليها حتى الآن أن تصالح العالم الحديث، مع إعادة تفسير العقائد التقليدية، وإلى الحركة الإنجيلية، التي تتطلب حيويتها إنكار الحقائق من العلم والمعرفة الإنجيلية، والأصوليون يربحون، والطوائف البروتستانتية المتسامحة الواسعة الفكر الرئيسة، والجناح الليبرالي من الكاثوليك، ليس لديها إلا القليل لتقوله، وهي تخسر الأعضاء في كل يوم، في حين تزدهر تجارة الإنجيليين في اليقينيات، وإلى حد أقل في التقليد الكاثوليكي السلفي السلطوي.

ويمكن رؤية الانقسام داخل المسيحية، بوصفه عالماً مصغراً من كل الانقسامات في الغرب اليوم، المركز لا يمسك، فكثير من المسيحيين يكره المسيحيين الآخرين ـ كما هو في النزاع حول الأساقفة اللواطيين ـ مع عاطفة لا يستطيعون السيطرة عليها للتقدم بالمسيحية نفسها، وفي الوقت نفسه، فإن الأفكار الدولية الكوزموبوليتانية والمتقدمة، ومواهبها الثرية من أجل منفعة الإنسانية، تقف من غير أن يُدافَع عنها، ومن غير توكيد لها، ولو من المفكرين الذين يؤمنون بها، وذلك خوفاً من الظهور بمظهر الجاد أو النخبوي، ويروج الجهل والشعوذة، وتحتل الحكمة والمعرفة بإرادتها مقعداً خلفياً.

إن تزايد علمنة المجتمع الغربي، وانهيار الإيمان بالله، وخصوصاً بين المفكرين وعلماء العلوم الاجتماعية، والانقسام المتزايد الحاد داخل المجتمع المسيحي، الذي يعكس اختلافات عميقة في رؤية العالم، هي قضايا خطيرة بالنسبة إلى الغرب. وفي البداية، فإن خسوف الإيمان بالله لم يدمر التفاؤل، أو المسؤولية الفردية أو الإيمان بالتقدم، وفي القرن الأخير، مع ذلك، فقد مشى انهيار الدين في الغرب مع مستويات محلِّقة عالياً من الارتياب، والعدمية، والوثنية، والأنانية، والاكتئاب، والانتحار، ففي العام 1895، شدد اللورد آكتون بثقة على أن: «الآراء تتغير، وقواعد السلوك تتغير، والعقائد ترتفع وتهبط، ولكن القانون الأخلاقي مكتوب على ألواح الخلود». ولكن الخلود لم يدم طويلاً، وفي العام 1995، أعطى يونغ تشانغ رأياً معارضاً: «إذا لم يكن لك إله، فإن نظامك الأخلاقي آنئذ هو نظام المجتمع، وإذا انقلب المجتمع رأساً على عقب، فكذلك سينقلب نظامك الأخلاقي». وكما لاحظ الشاعر روبرت براوننغ (1812 - 89) ملاحظة كالنبوءة، فنحن قد انتقلنا «من عصر إيمان متنوع بالشك إلى عصر شك متنوع بالإيمان».

ومع ذلك، فلدى فحص الموضوع فحصاً أقرب، فإن الله ليس ميتاً، فالدين من كل الأنواع مازال يزدهر، ولا مات التقابل الرئيس بين وجود النظام الأخلاقي أو غيابه، والقضية المحورية هي نوع النظام الأخلاقي الذي يحتضنه الغرب ـ سواء أجاء من نسخة المسيحية الجهنمية، مع تعصبها المخلص وإدانتها، أو من نسخة، معلمنة بالدرجة الرئيسة، من المسيحية، وهي تجديدات أصيلة من المسؤولية الشخصية، والحب، والأخوة الإنسانية تضاهي سابقتها على قدم المساواة.

المسيح يقوم ثانية... ولكنه المسيح الخطأ؟

إن أنشط بلد مسيحي هو الولايات المتحدة، وهي أيضاً أكثر البلدان تأثراً بالتراث اليهودي، وهذان الدينان، على العموم، عمليان على نحو شديد، ويمثلان الاختراق اليهودي ـ المسيحي في مساعدة الذات وتحسين الذات فردياً، والدين مُشَخصن وغير طائفي، ومازال من الحق القول مثلما قال أنطوني ترollop في العام 1860، «إن كل شخص ملتزم بأن يكون له دين، ولكن ليس يهم كثيراً ما هو»[1]. ومع ذلك، فمنذ الثمانينيات من 1980، فإن الحماسة الدينية في أمريكا، وعلى الرغم من محافظتها على الكثير من قوتها بشكل دائم، قد جلّلها غيم من روح متعصبة على نحو متزايد ومناوئة للمفكرين، وهي إلى المكون الرابع من المسيحية التي وصفناها أقرب منها إلى المكونات الثلاثة الأخرى، وفي العام 1993، روى استطلاع غالوب أن 47 بالمئة من الأمريكيين يوافقون على أن «الله خلق بني البشر في شكلهم الحالي في الأغلب في وقت واحد في آخر 10.000 سنة أو ما يقاربها» ـ وهو الرأي الحرفي في سفر التكوين، ووافق ثمانية وستون بالمئة من الأمريكيين على عقيدة الخلق التي يجري تدريسها في فصول علم الحياة (البيولوجيا). وفي العام 1999، قال 39 بالمئة من الأمريكيين إنهم «ولدوا ثانية مسيحيين». ومع انتخاب جورج دبليو بوش، وإعادة ذلك الانتخاب ثانية، أمنت الأصولية لنفسها فرصة لتسمع في البيت الأبيض، ونادراً ما كان لها ذلك من قبل.

---

(1) مقتبس في:

Samuel P. Huntington (2004) Who Are We? America\'d5s Great Debate, The Free Press, New York.

وإذا نظرنا إلى التركة الخلاقة والإيجابية من المسيحية - وهي المسؤولية الشخصية، والحب بوصفه المحرك لتحسين الذات، والروح الليبرالية من المساواة، والشمول، والعدالة الاجتماعية - نجد أن التركة، إذاً، مزدهرة، ولكن خارج الكنيسة بشكل رئيس. وأنها تقع، في معظم الأمور، في صعود وصعود حركة مساعدة الذات، وتعود جذور هذه الظاهرة الأنجلو ـ أمريكية إلى بنجامين فرانكلين على الأقل، وهو الذي كتب بين العام 1771 والعام 1791[1]، وإلى صامويل سمايلز، وهو طبيب بريطاني وصحفي راديكالي، نشر مساعدة الذات في العام 1859، واستمر التقليد بكتب ذات تأثير ضخم، وكانت من أفضل الكتب مبيعاً مثل كتاب ديل كارنجي كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس؟ (1936)، وكتاب نابليون هيل فكِّر وصر ثريا (1937)، وكتاب نورمان فينسنت بيل قوة التفكير الإيجابي (1952)، ومنذ العام 1980، انفجر سوق مساعدة الذات، بكتب من مؤلفين أمثال أنطوني روبنز، وبولو كولهو، وجيمس ردفيلد، وديباك كوبرا، وكل منهم يبيع عشرات الملايين من النسخ.

إن حركة تحسين الذات تنتشر انتشاراً جيداً في كل أنحاء الغرب، وفي أمريكا اللاتينية، وهي تجذب عبر الطيف الاجتماعي والتعليمي تماماً، وما يشرق من خلالها هو البعد الروحي لمعظم كتب مساعدة الذات التي تعد أفضل مبيعاً، وتجلس النصيحة العملية جنباً إلى جنب، كالخد مع الحنك، مع التأملات في طبيعة الكون ومكان الفرد

---

(1) كتب فرانكلين ثلاثة كتب في مساعدة الذات: فن الفضيلة، والطريق إلى الثروة، وسيرة ذاتية.

فيه، وعلى الرغم من أن كثيرين من كتاب مساعدة الذات هم من المسيحيين، فإن الدين على وجه العموم خافت الصوت، وهو في الغالب غائب غياباً كاملاً، ومع ذلك، ففي نبرة الكتاب الإنجيلية، وفي الولاء الشديد الذي يتقنه كتاب كثيرون، وفي تفاؤلهم الصارم في أن الطبيعة البشرية تستطيع أن تتحسن، وفي التشديد على أن الناس ينفتحون على القوى السماوية، وفي تسامحهم وشمولهم، وفي ميلهم إلى استيراد الأفكار الروحية من الشرق، وفي تغلبهم على الذّنب، وفي تمسكهم بالحب وضبط الذات بوصفهما المحركين الرئيسين للتحسين، في كل ذلك، ما يجعل الحركة الحديثة لتحسين الذات أقرب إلى حركة المسيح الأصلية من أي كنيسة معاصرة.

وهناك سبب آخر، أكثر شمولاً، تكون روح المسيحية من أجله غير ميتة، فإن المسيحية بدأت في الأصل في فكرة أن الله اهتم اهتماماً عميقاً بكل مخلوق بشري، وأنه يستطيع أن يحيا داخل كل فرد، وهذه الفكرة ـ التي صار يعبر عنها لاحقاً بالاعتقاد أن كل شخص امتلك «روحا» خالدة فريدة ـ هي فكرة من أنجح الأفكار في جميع الأزمان، وذلك لأنها رسخت بجذورها وصارت عامة لا تمحى في كل مكان في الغرب، واليوم تعلمنت فكرة الروح لتصير فكرة النفس[1]، فإذا كان كل

---

(1) طبعاً، لم تبق الآن كلمة «النفس» تحمل آلياً المضامين الدينية لكلمة «الروح»، ففكرة الخلود، على سبيل المثال، لا تكون بالضرورة جزءاً من فكرة «النفس»، ولكن النفس، مثلها مثل الروح، مفهوم غير مادي، وغير تجريبي، ومراوغ، وهي أعظم وأشمل أداة للإيمان في العالم الغربي، وأساس حضارتنا الثرية والإنسانية، وهي الإيمان الأول الذي لا يستطيع الغرب أن يعيش من دونه.

بني البشر يمتلكون نفساً، شخصية داخلية تجعلهم غير الآلات، وليسوا مجرد جزء من المجتمع، بل أناس مفردون ـ وهو اعتقاد مغروز بمثل هذا العمق داخل الغرب إلى درجة يبدو معها غريباً أن يعبر عنه بوضوح ـ وجب، آنئذ، أن يعاملوا جميعهم باحترام، وكلهم ذوو قيمة، وكلهم يمتلكون الإمكانية لتطوير شخصياتهم، وتعميقها، وتحسينها.

من المستحيل فصل فكرة الروح، أو النفس عن الكفاح، وعن تطوير الذات، والمسؤولية الذاتية، وإذا كان هناك جوهر واحد مفرد للمسيحية، فهو هذا، وهو جوهر بقي حياً سليماً بشكل كامل وبقوة لم تنقص في الغرب اليوم، وهو مستقل عن الاعتقاد الديني تماماً، ومع تحول فكرة الروح تحولاً سليماً إلى فكرة النفس، غيرت المسيحية طبيعة الغرب تغييراً دائماً، وإن قلة تستطيع أن تشك في أن التغيير، في عمومه، تغيير إيجابي على نحو ضخم، وفي هذا المعنى، لا يهم ما يحدث لعدد المؤمنين المسيحيين أو نسبتهم في الغرب؛ لأن المسيحية قد أدت عملها، وهو بالتأكيد تقريباً، عمل لا يمكن الآن نقضه، ولقد حاول النازيون والشيوعيون أن ينكروا فكرتي الروح والنفس، وهذا يشرح إلى حد ما نفورنا من فظاعاتهم الوحشية. ما لم تصل الأمور إلى حد كارثة تنزع إنسانيتنا كلنا، فإن من غير المرجح أن يكون من الممكن في أي وقت الآن أن تجتث فكرة النفس من الغرب.

خاتمة

الله يعمل على نحو أفضل من الكنائس.

الروح المحررة للمسيحية الأولى، واختراعها للنفس الداخلية، وتشديدها على التفرد، ورفض السلطة، والحب في العلاقات الشخصية، وطلباتها للرحمة وللمساواة من أجل المظلومين، وترويجها لضبط النفس ولتحسين الذات، كان لها تأثير حاسم على كل الغرب، جاعلاً منه ليس أنجح الحضارات الأخرى فقط، بل، على الأقل حسب التقييم الغربي، أكثرها إسعاداً لشعوبها إلى حد بعيد، وإن المسيحية قد فجرت ضفاف الكنسية، لا بل كل الدين، ويرجح أن إحساساً بالمسؤولية مشتقاً من التفكير من الفرد لنفسه، وبارزاً من كفاحات المرء الخاصة في الحياة، سيكون إحساساً أعمق من ذلك المشتق من طاعة السلطة، ومهما تكن معتقدات المرء، فسيكون أقرب إلى روح المسيح.

وهناك نص فرعي أشد ظلمة، وهو يكمن في الحماسة التبشيرية والتطرف الثوري المورَّث للغرب، والعالم، من المسيحيين الأوائل[1]. إن مورِّثات العدوان الصليبي المنحرف ـ المدعومة بالعلم، والتقانة وأقوى النظم الاقتصادية والعسكرية التي شوهدت في أي وقت ـ قوّت الغرب

(1) مثل هذا التعصب كان محدوداً عموماً بالمسيحية وابن عمومتها الإسلام. إن الأديان الشرقية تميل إلى أن تكون مفتوحة للاختراق من أفكار أخرى وتشعر بحاجة قليلة إلى التشديد على أن هناك طريقة واحدة صحيحة. والحروب الدينية، المستوطنة في كل التاريخ الغربي والشرقي أوسطي، كانت دائماً نادرة في آسيا.

بقوة شديدة، وأدت في القرن التاسع عشر إلى الهيمنة على العالم، وفي النصف الأول من القرن العشرين، مزقت هذه الموِّرثات المنحرفة ـ المفصولة عن الدين، ولكنها المحافظة على قسوة الألف عام ـ الغرب تقريباً، ومن ورائه العالم، إلى أجزاء، وحين يعاد توحيد مورثات التعصب المفرِّق مع الأصولية الدينية، فإن هذه المورثات تبقى تهديداً قوياً للغرب، لا من الخارج فقط، بل من الداخل الذي يعتبر أكثر تهديداً.



الفصل الثالث

التفــاؤل

من فجر الحضارة الغربية إلى السنوات الأولى من القرن العشرين، كان تاريخ الغرب محكوماً بفكرة واحدة وحقيقية واقعة واحدة، تلك هي التفاؤل الكبير المتعاظم دائماً حول الإنسانية، والثقة بقدرتنا باستمرار على أن نحسن العالم، والتفاؤل قاد إلى الفاعلية، أي إلى أفعال مصممة لزيادة فهمنا للعالم الطبيعيّ ولزيادة سيطرتنا عليه، ولقد كان التفاؤل دائماً صفة غربية بشكل بارز، وكما يقول عالم النفس ريتشارد نِسبِت:

> العالم، للآسيوي، مكان معقد... موضوع للسيطرة الجماعية أكثر مما هو للسيطرة الشخصية. والعالم، للغربي، مكان بسيط نسبياً... موضوع للسيطرة الشخصية للغاية. عالمان مختلفان جداً بالفعل[1].

جذور التفاؤل

تستقر في قلب التفاؤل الغربي ثلاثة معتقدات منضفرة معاً، الأول: هو أسطورة الحكم الذاتي[2] إذ يستطيع الناس أن يكونوا قادرين على

(1) Richard E. Nisbett (2003) The Geography of Thought: How Asians and Westerners Think Differently\'c9 And Why, Nicholas Brealey, London, p.100.

(2) في تسميتنا المعتقدات الثلاثة «أساطير»، نعني أنها تجسيدات قوية لمفاهيم لا يمكن التحقق منها، ولا نستخدم كلمة «أسطورة» في أي معنى انتقاصي.

البدء الذاتي والمستقل، وأنهم يمتلكون الإمكانية لتولي المسؤولية عن مصيرهم، وأن يشكلوا العالم من حولهم لمنفعتهم الشخصية، والثاني: هو أسطورة الخيريّة، إذ الخلْق في نهاية الأمر خيّرون، والبشر، بوصفهم جزءاً من خلق الله، هم خيرون في الأساس أيضاً، وهم قادرون على أن يكونوا أفضل، والثالث: هو أسطورة التقدم، فالتاريخ يسير، وله اتجاه، وأن الحاضر أفضل من الماضي وأن المستقبل سيكون أفضل من الحاضر.

أساطير التفاؤل الثلاث ولدت في الأصل في القرون الخمسة أو الستة قبل المسيح، وفي القرون الثلاثة بعد ميلاده، في اللاهوت اليهودي والمسيحي، وفي الفلسفة اليونانية، وكان الإغريق قد عبروا عن أسطورة الحكم الذاتي أوضح تعبير، وهم الذين وضعوا أعلى أهمية على التدبر العقلي والعقل، وعلى النّوس أو الذكاء الفعال، وحاجَّ الفلاسفة الإغريق في أن البشر فقط امتلكوا العقول، وهي تعطيهم القدرة على فهم الحقائق عن الكون، والعقول كانت فردية وارتبطت بالعقول الأخرى وبالذكاء الإلهي، ولذلك فقد كانت قلقة وتقدمية، ومتطورة دائماً، وإلهية وخالدة، وكان الناس يستطيعون أن يتعلموا المزيد عن طبيعة الحقيقة الواقعة من خلال ممارسة التدبر العقلي، ومن خلال المنطق، ومن خلال الرياضيات، ومن خلال التمثيليات، ومن خلال الاستكشاف والعمارة، وبقية الطبيعة كانت سلبية، وكان الناس يستطيعون ـ ويجب عليهم ـ أن يكونوا فاعلين، متفائلين، متسائلين، خلاقين ويعملون على التقدم الذاتي، إذ كان الناس يستطيعون أن يسيطروا على بيئتهم المحيطة بهم بتعلم القواعد التي تحكم الطبيعة.

وشــارك الإغــريق بأسـطورة الخـيــريّة أيضــاً، فــالكون كــان منظمــاً وعـقــلانيــاً، والشـخص الذكـي كـان يسـتطيع أن يفـهـمـه، ويسـيـطر عليـه، ويحسنه، وفي قلب الفلسفة الإغريقية كان هناك المثل الأعلى من الامتياز، رؤية رفيعة لما كانت الإنسـانيـة تسـتطيع أن تحـقـقه، فـالخَلق لم يكن خيّـراً وحسب، ولكنه أيضاً يصيـر خيـراً أفضل، من خـلال الممارسـة البطـولية من العــقل، وقــد أعطى أفـلاطون، بفكرتـه عن الروح، أوضـح رؤية لخـيــريّة الإنسـانيـة الموروثة أو الممكنة، فـالروح، وعلى الرغم من أنهـا مـحبوسـة في الجسم ومقيدة بالطبيعة المادية للمرء، كانت ثمينة لله، وأعطت الإنسـان الوصول إلى الله، وأقدَرَت الإنسان على تحصيل الفضيلة.

وكـان للفـلاسـفـة الإغـريق أيضـاً تأثيـر فـريد على أسـطورة التـقـدم، واخترع أرسطو فكرة الإمكانية، فأعمق الحقيقة الواقعة لم تكن ما هو كائن، ولكن ما سيكون، وفي نهاية الأمر تستقر الحقيقة الواقعة لا في بداية الأشـيـاء، ولكن في نهـايتـهـا الأخيـرة، نهـايتـهـا التي تطمـح إليـهـا، وغـرضـهـا وشكلهـا النهـائـي، وهـذه رؤية للعــالم مـتفــائلة تفـاؤلاً أسـمى، وتتــضــمن أن كل شـيء يعـمـل نحـو تجليـات أفـضـل يتـجـلاّهـا الكون، وخططت لهـا العنـاية الإلهيـة، وحـرض عليهـا التـدبر العقلي الإنسـانـي، وهو تراكمي ويسير قدماً، ومـا يُهِم هو مـا يصيـر إليه العـالم والناس، وماذا سيكونون حين يصلون إلى تحقيق إمكانيتهم الكاملة.

وفي الوقت نفسـه، وبطريقة مختلفة، قدّم الأنبياء العبـرانيون كذلك أفكار الحكم الذاتي، والخيـريّة والتقدم، وقد رأينا في الفصل السـابق أن حـزقـيـال (597 - 563 قبل عصـر المسيح) والأنبـيـاء الآخـرين دعـوا

الأفراد إلى أن يتولوا المسؤولية الشخصية وأن يمارسوا المبادرة، ويظهروا الرحمة، والعدالة الاجتماعية والحب، وسوف يتقرر مصير العالم بالأفعال الإنسانية، ورأى العبرانيون التقدم بوصفه يد الله في التاريخ الإنساني، وفي نهاية الزمان سوف يظهر مسيح، زعيم إلهي، وسوف يصل التاريخ ذروة نصره، ومن خلال العبرانيين، سوف يؤسس الله مملكته إلى نهايات الأرض، جالباً السعادة والخلاص لكل الإنسانية، وعلى الرغم من كل ما حدث لليهود، في الأزمنة الماضية، والوسيطة، والحديثة، فهم لم يتخلوا عن تفاؤلهم، وفاعليتهم، ورسالتهم إلى كل العالم، وهو ما أدى إلى نتائج لا تتناسب إلى حد بعيد مع أعدادهم.

وفي صهر المسيحيين الأوائل للأفكار الإغريقية واليهودية معاً، أخذوها إلى قمم جديدة من التفاؤل والفاعلية، مضيفين إلى ذلك تحولهم الألفي الخاص بهم، وتحرك أتباع المسيح، إلى مدى لم يشاهد من قبل، لهداية الرجال والنساء، والأغنياء والفقراء، واليهود والإغريق، والرومان والبرابرة، والأرقاء والأحرار، مشعلة كل فرد مسيحي بنار حاجة ضاغطة؛ ليعيش حياة خيرية و«لينقذ» الذين حوله.

وفي داخل اللاهوت المسيحي، فإن حب الله والخيرية منزهان فوق مستوى الظن، وقد أُعطي الرجال والنساء، من خلال المسيح، الوصول إلى الطبيعة الإلهية، وبعد أن صارت المسيحية دين الدولة الرسمي للإمبراطورية الرومانية، في القرن الرابع، كان على اللاهوتيين

المسـيـحـيين أن يكافـحـوا في الحـوار مع رأي مـؤثر إلى درجـة كبـيـرة ومعـاكس لـرأيهم عن طبـيـعـة الخيـر والشـر، ولم تبق المسـيـحـيـة أسـرع الأديان نمواً في العـالم، ولكنهـا المانوّية التي أسـسـهـا فـارسي مع حلول القرن الثـالث وعلَّم أن تأثيرات الخير والشر في الكون كانت في حرب دائمـة أبدية، وكانت الإنسـانيـة مأسـورة في هـذا الصـراع، ولا تسـتطيع أن تهرب من قوى الـشـر، فهذا الدين المتشـائم قوّض الفاعلية الإنـسـانية ودعـا إلى رؤية جبـريِّة للحيـاة وللتـاريخ، فـالخيـر لا يسـتطيع أبداً أن يكسب اليد العليا، إذ ليس هناك إله خير أقوى من الجميع.

وحين غـمـر العنف الإمبـراطورية الرومـانية الجـديدة في المسـيـحـيـة، وبدأت تـنهـار أجـزاء، فـرضت المانوية تحـدياً فكرياً ضـخـمـاً على المسيحية، فوجود الشر والمعـاناة كان لا ينكر، ونهض لمواجهة التحدي إفـريقي، هو القـديس أوغـسطين من هيبـو ولد في العـام (354). وحاور في أن كل الخلق أخيـار، وأن الإنسـانيـة هـي أعظم خلق الله، نظراً إلى أننا نمتلك القدرة لنضاهي بحرية خيرية الله. ومع ذلك، ففي خلق الله للإرادة الإنـسـانيـة الحـرة، فـقـد كـان عليـه أن يسـمـح لنا بالضـرورة بالحرية؛ لنختار إما الشر وإما الخير. ولذلك، فكل الشر ينتج من سوء الاسـتـخـدام الإنسـاني لـلإرادة الحـرة، فـالشـر لا هو بـالحـتمي، ولا هو بالذي لا مـهـرب منه، ولا هو بـالخـالد، ومنذ أوغـسطين، فـإن هذه العـقـيـدة ذات المطالب الكثـيـرة الشـديدة، ولكنهـا العـقـيـدة المفـعـمـة بالسعادة مع ذلك. إذ بقيت في القلب من المسيحية، ومن الغرب.

وأسطورة التقدم أيضاً شحنت شحناً عالياً من المسيحية، وعلى الرغم من أن التوقعات المسيحية في القرن الأول عن نهاية وشيكة ومجيدة للتاريخ كان يجب أن تؤجل إلى أجل غير محدد، فإن الفكرة استمرت بالإصرار على أن غاية الله يجري إنجازها في التاريخ، من خلال شعبه الجديد المختار، المسيحيون من كل الأمم.

تراجع التفاؤل، وانبعاثه وأوجه.

على الرغم من أن أساطير التفاؤل الغربية الثلاث لم تذوِ أبداً أو تختفِ، فقد أُسكِتت أو صارت سرّية تحت الأرض من الوقت الذي انهارت فيه الإمبراطورية الرومانية وتفككت، إلى أن صارت الحركات الجديدة للنمو والحضارة أقوى تقدمياً بعد العام 1000م، وفيما بين ذلك، أدى الانهيار الاقتصادي وبروز الكنيسة الرومانية بوصفها أقوى مؤسسة في المجتمع إلى تثبيط أفكار الحكم الذاتي، والخيريّة والتقدم وتوهينها، وحين نمت الكنيسة، وصارت أشد قوة وتراتبية هرمية، وانطوائية على نفسها، وأكثر محافظة من الناحية السياسية، برزت النسخة المتشائمة من المسيحية، ففي وقت الركود الاقتصادي، والثقافي، والنفسي، نمت سلالة متشائمة في مسيحية القرون الوسيطة، وصارت أكثر تأثيراً مما كانت عليه، مؤكدة التهديد القاتل الذي طرحه، «العالم، والجسد، والشيطان»، ولم تكن مواجهة التهديد ممكنة إلا بالطاعة الورعة للكنيسة، وبالطقوس وآثار القديسين، وبنشدان الحماية من الملائكة والقديسين، ومن بينهم مريم العذراء

التي صـارت أكثر بروزاً من ذي قبل، وبتطوير تديُّن داخلي يليق بالعالم الآخر، وإذا أمكن، بالانسحاب من العالم.

بعد العام 1000، حصلت أوروبة على قدر من الأمن السياسي، وبدأ النمو الاقتصادي، والتجارة، والسكان جميعاً في منحنى صاعد متردد، وصارت الزراعة أكثر إنتاجاً، ونمت التجارة بالمنتجات، وبرزت الدول المدن المستقلة بحكم ذاتي بوصفها جزراً للتجارة وللحرية النسبية، وأهم من هذا جميعاً، أن الاتصال مع الثقافتين الإسلامية والبيزنطية أقدر أوروبة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر على إعادة اكتشاف عمل فلاسفة الإغريق القدامى وعلمائهم، وقد صرح توماس الأكويني (1225 - 74) المتأثر بأرسطو وبأفلاطون أن كل شخص كان مخلوقاً في صورة الله، وأنه كان يستطيع أن يسهم، إلى درجة معينة، في خلق الله اللانهائي للخير، وأعطى علماء من أمثال الأكويني ووليام أف أوكهام (1295 - 1349) الغرب ثقة متجددة ومتزايدة في التدبر الإنساني العقلي، وفي التجريب العلمي، وفي الحرية الفكرية من السلطة الكنسية.

وأدت إعادة اكتشاف بلوتارك (المولود في بداية القرن الرابع عشر) وأتباعه للعمق وللثراء غير العاديين للثقافتين الإغريقية والرومانية إلى توفير منبر جديد للتفاؤل حول الإنسانية، وإبداعها، وعظمتها، وكانت الآثار الأدبية القديمة موضع نظر، بوصفها مثرية للروح الإنسانية، وموفرة لتيار جديد من الاستبصار في دور الإنسانية في الكون، مقارنة بدور المسيحية نفسها، وفي القرن الخامس عشر أعاد

مارسيليو فيسينو، وبيكو ديللا ميراندولا وإنسانيون آخرون شرح أفلاطون؛ ليحاجوا في أن البشر امتلكوا رسالة إلهية للسيطرة على الكون المرئي بفهم قوانينه الفيزيائية والرياضية، وأعطى فيسينو الإنسانية الفضل عن «العبقرية نفسها تقريباً، مثل عبقرية خالق السماوات».

والرأي الجديد عن هذه الإمكانية جرى التعبير عنه أوضح تعبير في عصر النهضة، وكما يقول ريتشارد تارناس:

ضمن مدة زمنية لجيل واحد، أنتج ليوناردو، ومايكل أنجلو، ورافائيل روائعهم، واكتشف كولومبوس العالم الجديد، ولوثر... بدأ الإصلاح، وكوبرنيكوس... شرع بالثورة العلمية... وكان الإنسان قادراً الآن على اختراق أسرار الطبيعة... ووسع العالم المعروف، واكتشف قارات جديدة، ودار حول الكرة الأرضية... وحققت الموسيقا، والمأساة، والملهاة، والشعر، والرسم، والعمارة، والنحت كلها مستويات جديدة من التعقيد والجمال[1]. ونظر رجل عصر النهضة إلى نفسه، بوصفه خالقاً مشاركاً إلى جانب الله، وبدأت الأفكار الغربية، وأنماط التفكير، والطموحات، والاندفاع والإيمان في عقلانية الكون وفي قوة خيال الإنسان في فرض نفسها على العالم، وبدءاً من القرن الخامس عشر، بدأ الغربيون سلسلة من الرحلات في المحيطات، وهي رحلات جعلت العالم ينكمش لأول مرة، إلى كيان واحد كوكبي، وفي غضون قرن من رحلة كولومبوس الأولى، كان الغربيون قد أبحروا حول العالم.

1. Richard Tarans (1991) The Passion of the Western Minds, Crown, New York.

واتسم القرن السابع عشر بانفجار العلم، وهو الذي كشف لأول مرة القوانين الفيزيائية الأساسية للكون، واضعاً الأسس لعصر الآلة، وهو العصر الذي قام بدوره بتحويل العالم وتغييره، ومثل الرحلات البحرية، تزودت الثورة العلمية بالطاقة من التفاؤل الغربي ونُفذّت على وجه الحصر على أيدي الأوروبيين، فمن كولومبوس إلى برونيل إلى إنشتاين، فإن الميزة المحدّدة للغرب هي الفعل التلقائي من الأفراد، إذ ممارسة المبادرة الإنسانية ممارسة مستقلة إلى درجة كبيرة عن المنظمات والتراتبيات الهرمية الموجودة، وعقلية المستكشف، والطلب القلق من أجل إيجاد أو بناء شيء مختلف أو أفضل، وإنجازات الغرب ـ حسنها وسيئها ـ لم تكن في أعمق مستوى فيها، بسبب العلم أو التقانة أو النظام الاقتصادي، والأحرى أن هذه الآليات التي تمنح القدرة هي نتيجة شيء ما أكثر منها جوهرية: الأفكار المحرِّرة، والتجريب، والموقف، والتفاؤل ورأي عال جداً في إمكانية الإنسانية، وفي ألوهيّة مُحسِنة عقلانية.

لقد حقق العلم الغربي هذا القدر الكبير؛ لأن طموحه لم يعرف أي حدود، ولأنه كان موجهاً باستمرار نحو غايات عملية لتحسين الحياة على الأرض، ومن دون هذه الروح، لن تكون التقانة كافية، ولقد امتلك المصريون القدامى أبواباً للمعابد بالطاقة البخارية، وامتلك الإغريق القدامى لعباً تعمل بالبخار، لكن فكرة استخدام الطاقة البخارية لصنع منتجات مفيدة جاءت بعد أكثر من 2000 عام، في بريطانيا القرن الثامن عشر، وقبل الثورة العلمية بقرون، امتلك المجتمع

الإسلامي أعظم علوم العالم وتقانته، وفي العام 1400، قبل أن يبدأ الأوروبيون بالإبحار عبر المحيطات، امتلكت الصين أسطولا ضخماً، وكان إلى حد بعيد أضخم أسطول في العالم، وتكون من مئات من السفن، ومن أكثر من 20.000 ألف ملاح. وهناك، طبعاً، أسباب معينة توضح لماذا جرى إعاقة التجديد التقاني الإسلامي، ولماذا قررت الصين في العام 1432 أن تفكك أحواض سفنها، وتوقف إبحار سفنها[1]، ولكن ليس مصادفة أن الغرب امتلك إيديولوجية للتوسع المتفائل المستند إلى رأي عال في الإمكانية الإنسانية، ولم يمتلك الإسلام والصين ذلك.

إن أعمال علماء من أمثال كبلر، وكوبرنيكوس، وغاليليو ونيوتن كانت في الوقت نفسه محفوزة بالتفاؤل ومعززة به إلى حد كبير، إذ كان العلم تجلياً لإمكانية الإنسان، ولتدبره العقلي وخياله، ولقد خدم العلمُ هدفاً، وهو رفع لعبة الإنسانية، وإعطاء الإنسان سيطرة على الطبيعة، وعلى الكون؛ لكي يستطيع أن يحسن موقفه، ويضيف كرامة ونبلاً إلى الحياة الإنسانية، وقد صرح فرانسيس بيكون بالقول: «غاية العلوم الحقيقية والقانونية هي أن الحياة الإنسانية يجب أن تُثرى بالمكتشفات الجديدة، وبالقوى الجديدة».

---

(1) انظر:

Jared Diamond,\'d5 How to Get rich.\'d5 Edge 56, 7 June 1999 (www.edge.org/documents/archive/edge/56), and Jared Diamond (1997) Guns, Germs and Steel: A Short History of Everybody for the Last 13,000 Years, Chatto & Windus, London.

وقد جعل الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596 - 1650) التدبر الإنساني العقلي هو اختبار المعرفة الأسمى، ولأول مرة في التاريخ، كان يظن أن السعادة الإنسانية هي نقطة الكون، وقد رأى الشاعر أليكساندر بوب الطبيعة الإنسانية تتبع مبدأين متكاملين:

حب الذات والعقل يطمحان إلى غاية واحدة

الألم هو ما يكرهون، واللذة هي ما يرغبون

وكان مفكرو عصر التنوير في أوروبة وأمريكا في القرن الثامن عشر أعظم شُرّاح للحكم الذاتي المستقل، وللخيرية الإنسانية والكمال، والتقدم، فعمانويل كانط عرف التنوير بأنه الحكم الذاتي الإنساني، والشجاعة في استخدام المرء لفهمه الخاص فقط.

بل ذهب فلاسفة التنوير إلى غاية أبعد من ديكارت في رفع العقل الإنساني، الذي رأوه منفصلاً عن بقية الطبيعة ومتفوقاً عليها، وأبرز دينيس ديدرو (1713 - 84) فرادة الإنسانية في إعطاء معنى للحياة: «إن حضور الإنسان هو الذي يجعل وجود الكون ذا معنى»[1].

وبعد تحررنا من التطيُّر المبني على الجهل، كنا نستطيع أن نصير أكثر معرفة، وأكثر أخلاقاً، وأكثر رحمة إنسانية، وأكثر أصالة، وقد صرح المؤرخ إدوارد جيبون بالقول:

1. Denis Diderot, Encyclopedie, p.56. See www.tuna.uchicago.edu/homes/mark/ENC_Demo.

لا نستطيع أن نكون على يقين إلى أي قمة يمكن للجنس البشري أن يطمح... ولذلك، فنحن قد نخضع بأمان في الاستنتاج السار، وهو أن كل عصر من العالم قد زاد، ومازال يزيد الثروة الحقيقية، والسعادة، وربما الفضيلة، للعرق الإنساني[1].

بل إن الشعراء الرومانسيين والكتاب من مطالع القرن التاسع عشر اتخذوا رأياً أقوى تجاه إمكانية العقل، ورأوها أقوى إمكانية في ممارسة الخيال، والقدرة على تحويل اليومي إلى شيء خاص، والقدرة على أن تدرك فيما وراء مستوى سطح العالم حقيقةً أعمق، وأن «ترى داخل حياة الأشياء»، كما كتب وردزورث في تينترن أبي، وبالنسبة إلى الرومانسيين ـ وهم الرواد السابقون للبيئيين المعاصرين ـ فإن علاقة العقل الإنساني والإدراك الحسي بالعالم الخارجي كانت قد تحولت تحولاً كاملاً بفضل شدة الخيال.

وتطور وحيد آخر ـ وهو النمو الاقتصادي ـ زود التفاؤل بالوقود واستحثه، فالتوسع في التجارة من حوالي العام 1450 إلى العام 1750، والانفجار الذي تبع ذلك في الصناعة المستندة إلى الآلة، كانا مرتبطين ارتباطاً قريباً، ومن الناحتين، مع التفاؤل والفاعلية، والرابطة بين التفاؤل والتجديد الاقتصادي هي التجريب والاستقلال الذاتي للتجار ورجال المشروعات، والتفاؤل يعني ضمناً ألا تكون خائفاً من أن

1. Edward Gibbon (1993) The History of the Decline and Fall of the Roman Empire, Vol. I, Everyman, London.

تجرب، والنمو الاقتصادي يتطلب التجديد، وكان التجديد ممكناً في الغرب؛ لأن القدرة على أن تجرب، وعلى أن تنشر الأساليب والتقانات الجديدة الناجحة كانت قدرة منتشرة على نطاق واسع، وكانت اللامركزية أمراً جوهرياً، واحتاجت إلى الحكم الذاتي المستقل، وإلى رجال المشروعات المتفائلين[1]. وكثيرون من أعظم المجددين الاقتصاديين من أواخر القرن الثامن عشر، من أمثال بنجامين فرانكلين، وجوزيه ويدجوود، وجوزيف بريستلي، وجيمس واط، كانوا متعلقين متحمسين بفكر التنوير، وقادة عظماء للتقدم.

ومع نهاية القرن التاسع عشر، حين صار النمو في اقتصادات الغرب أمراً لا يمكن نكرانه، وحين ظهرت المعجزات الجديدة للتقانة ـ السكك الحديدية، والفولاذ الرخيص، والكهرباء، والغاز، وأنظمة البريد الوطنية، والبرقيات، والهاتف، والطعام المعلب، والتصوير الضوئي، والسيارات ـ وتكاثرت كالفطر، وحين صار سبق الغرب الاقتصادي وتقدمه على بقية العالم أضخم وأضخم، أضيف الدليل المادي عن التقدم إلى التأمل الفلسفي بوصفه مصدراً كبيراً للتفاؤل، وسواء كانوا صناعيين أو محرضين سياسيين أو مفكرين، وسواء كانوا محافظين، أو ليبراليين، وديمقراطيين اجتماعيين أو شيوعيين، فإن مشكلي الرأي في أواخر القرن التاسع عشر، وفي مطالع القرن العشرين كانوا عملياً يعتقدون بالإجماع أن الصناعة الغربية الحديثة كانت تمتلك الإمكانية لإبعاد الجوع والفقر عن مجتمعها.

---

(1) انظر:

Nathan Rosenberg and L.E. Birdzell, Jr (1986) How the West Grew Rich: The Economic Transformation of the Industrial World, Basic Books (HarperCollins), New York.

موت التفاؤل

يمكن تتبع جذور التشاؤم الحديث والعودة به على الأقل إلى بُعد يصل إلى الستينيات من 1760، حين أحيت «الروايات القوطية» الإنجليزية الصور المتجهمة الخارقة للطبيعة، وصورت أبطالاً وبطلات يتصفون بالأنانية، وكسرت انسجام الإحسان الإلهي والإنساني، وسواء كان ذلك في خيالات الرومانسيين الألمان من السبعينيات من 1770، أو من الفساد الأخلاقي في رواية دو ساد في الثمانينيات من 1780، أو في الرعب الذي غذته الغوغاء للثورة الفرنسية، فإن الجانب الأسود للإنسانية، انفجر وظهر ظهوراً كاملاً للعيان، بعد أن كان قد أهمل أو أخفي على يد مثالية التنوير المسطحة، وفي العقود التي سبقت العام 1914، اتحدت قنابل العدميين الروس، وفلسفة شوبنهور، وفن أوائل التعبيريين، والاستكشافات النفسية لفرويد؛ لتساند رؤية مظلمة لطبع الإنسانية ومصيرها، ولكن لا شيء حطم الأوهام التفاؤلية للقرنين الثامن عشر والتاسع عشر تحطيماً كاملاً مطلقاً أكثر من حوادث الأعوام من 1914 إلى 1945.

فالإيمان بالحكم الذاتي المستقل للإنسان، وبخيريته، وبتقدم الحضارة الغربية سُحق، طوال جيل، وربما إلى الأبد، بسلسلة من الكوارث وردود الفعل عليها، وذلك بفعل الطبيعة المروعة للحرب العظمى وعواقبها، وبفعل الاعتقاد المتنامي أن الموضوعية استبعدت البحث عن المعنى، وبسبب التصور، الواضح في روايات فرانز كافكا

على ســبـيـل المثــال التي جــاءت كــأنهــا تتبئ بـالغــيب في أواسط العـشـرينيـات من 1920، والذي يتـصـور أن الناس ليسـوا أحـراراً في الواقع، ولا يقـررون مصيـرهم الذاتي، ولكنهم محكومون ومـخضَعون بتأثيـرات شريرة تستعصي على الإدراك بالفكر، وهي في الوقت نفسه مـرعبـة، وبيـروقراطيـة، وخـارجة عن مـدى الفهم، مثل هذه المجتمعات المرعبة جاءت سريعاً لتتحرك عبر أوروبة الوسطى والشرقية، حين قام ستالين وهتلر بتشويه مظهر الحضارة الغربية وتفكيكها، وفي أمـريكا كـذلك، وفي الأجـزاء القليلة من أوروبة التي بقـيت لم تمسـسـهـا دول الكراهيـة، كـانت الثـلاثينيـات من 1930 مـحكومـة بالانهيـار الاقتصـادي وبنظريات السـاخطين من الحضارة الغربية، ولـم يتم استبعـاد ذلك إلا جزئيـاً بفضل الجهود الباسلة التي بذلهـا المتفائل فـرانكلين د. روزفلت، ولقـد انحرف تطـور الإنسانيـة وضل، وبدا، كـمـا قـال بيـرتراند رسـل، أن «الفكر هو البوابة إلى اليأس».

من العـام 1917، وحـتى العـام 1989، كـان بـقـاء الغـرب على قـيـد الحياة موضع شك، حين تضخمت، ثم تضـاءلت الشيـوعيـة والنازية، وكلتـاهمـا فكرة غربيـة، ولـكنهـمـا مـع ذلك عـدوتان مـريرتان قـاتلتـان تقريباً للحضارة الغربية.

وإن نهـاية الكابوس الشـمـولي، و60 عـامـاً من الســلام والرفـاهيـة السـائدين لم تؤدِ إلى إعـادة ترسيـخ التفـاؤل التاريخـي للغـرب كـذلك، وللصـورة اليـوم إطاران اثنان، والأوروبيـون، والمفكرون الأدباء، ووسـائل

الإعلام، والثقافة العامة، وأخفض ثلث من الكَسَبة، يميلون نحو التشاؤم، والأمريكيون، والأستراليون، رجال الأعمال، والعلماء، والنخبة السياسية، والأثرياء يميلون إلى التفاؤل، وخطورة الجبرية أقوى.

ونستطيع أن نربط انهيار التفاؤل منذ العام 1900 أكثر ما نربطه بالدليل، أو بالدليل الظاهر، على أن كل الرؤية الغربية للإنسانية، وعلى وجه الخصوص الرؤية التي كانت هي السائدة من العام 1700، وحتى العام 1900، كانت في جوهرها نظرة كريمة جداً، فالحكم الذاتي المستقل للإنسان، وخيريته، والإيمان بالتقدم التاريخي، وضعت كلها ضمناً موضع النزاع في صحتها في بداية القرن العشرين تماماً، مع نشر كتاب سيغموند فرويد تفسير الأحلام، وقبل ذلك بنصف قرن، كان كارل ماركس قد زعم أن حرية الإنسان والحكم الذاتي المستقل كانت أضاليل، وظهر فرويد الآن ليقدم الدليل، وباختراع فرويد لفكرة اللاشعور، ورواية تفاصيل الوساوس الجنسية التي حفزت الناس حتى أكثر الأفراد منهم قدرة في الظاهر وأوقعتهم في شرك الاستجابات المعتادة، فإن فرويد كان باختراعه ذلك قد قوض فكرة الحرية الإنسانية، وإن الوعي النفسي كشف الغطاء عن صندوق باندورا المليء بالشرور من الصراعات الداخلية المتأججة، والكبت، والغربة، والذَّنّب، والعار وعُصابات لا تنتهي.

ولم يكن لدى فرويد أدنى شك حول أهمية عمله وحول الظلال التي يلقيها، وكتب يقول: «كان على الإنسانية في مرور الزمن أن تتحمل من أيدي العلم ثلاث إساءات فظيعة على حبها الساذج لذاتها».

- اكتشافها أن العالم بقعة صغيرة في كون رحيب لا مركز الكون.
- واكتشاف أن الله لم يخلقنا خلقاً فريداً، ولكننا انحدرنا من القردة*.
- واكتشاف أن عقولنا الواعية لا تخبرنا بالكيفية التي نتصرف بها، ولكنها بالأحرى تخبرنا بقصة جنيات تهدف إلى خدمة الذات[1]
وربما لم يغير مفكر مفرد التفكير الغربي تغييراً أعمق منه، وقلب التفاؤل السائد إلى تشاؤم سائد.

وما بدأه فرويد، أكمله علم الوراثة، وعلم الحياة الدارويني الجديد، وعلوم الأعصاب المعرفية في السنوات الخمسين الماضية، وأدى اكتشاف فرانسيس كريك وجيمس واطسون في العام 1953، أن البشر يشتركون بتركيب (D.N.A) الأساسي نفسه مع كل النباتات والحيوانات الأخرى، إلى رفع درجة أهمية المورثات، وفي العام 1976، عرض ريتشارد داوكنز عالم الحياة في أكسفورد تحويراً جديداً على الحكم الذاتي المستقل الإنساني، فقد رأى كتابه المؤثر تأثيراً ضخماً، بعنوان "المورّثة الأنانية" المورثة الموروثة بوصفها الوحدة الأساسية للانتقاء ولإيثار مصلحة الذات على الآخر[2]، وقد أظهرت علوم الأعصاب الحديثة أن عقولنا مركبة من دوائر عصبية معقّدة من أجل التفكير، والإحساس والتعلم.

(*) كشفت الأبحاث العلمية زيف هذه النظرية، وما أجمل قوله سبحانه وتعالى في خلق الإنسان: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ في أحسن تقويم﴾.

1. Steven Pinker (2002) The Blank Slate: The Modern Denial of Human Nature, Penguin, New York.
2. Richard Dawkins (1976, revised edition 1989) The Selfish Gene, Oxford University Press, Oxford.

إن المعرفة الجديدة عن المورثات، وعن العقل قد تحدت فكرتين كانتا في السابق قد دعمتا التفاؤل الغربي بشأن الطبيعة الإنسانية، الفكرة الأولى، وكانت شائعة طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي أن عقل كل شخص يبدأ بوصفه «لوحاً فارغاً»، ويمكن أن يملأ حسب الإرادة من الآباء، والمربين، والمجتمع، ونحن نعرف الآن، مع ذلك، أن هذه الفكرة خطأ[1] وإن تغيير خبرات الناس يمكن أن يكون له بعض الأثر، ولكنه لا يستطيع أن يعيد تصميم طبعهم، والفكرة الأخرى، وهي فكرة أقدم بكثير تدعم رؤية شمسية للإنسانية، وكانت، كما لاحظنا آنفاً، فكرة الروح، التي كانت إلى حد كبير نوعاً ما ليست موضع نزاع في الغرب منذ انتصار المسيحية، ولقد بحث علماء الأعصاب في القرن العشرين عبثاً عن الروح.

وبالنسبة إلى المفكرين والمواطنين العاديين على حد سواء، فقد بدا لهم التحليل النفسي وعلوم الأعصاب، وكأنهما يبرئان دليل الرؤية المظلمة للطبيعة البشرية من فظاعات القرن العشرين، ومن الحروب المروعة التي ثارت في أماكن أخرى من العالم في كل يوم منذ العام 1939، ويعرض التلفاز والصحافة دليلاً صارماً عن الفساد الأخلاقي للإنسانية، وفي قلب الغرب كذلك، الذي لم يمسسه نزاع كبير منذ العام 1945، يستطيع المتشائمون أن يجدوا الكثير من الأدلة على أن الطبيعة البشرية ضعيفة، أو متعفنة مع تحليق كلٍ من الاكتئاب، والنرجسية، والإدمان على المسكرات، والإساءة بتعاطي المخدرات،

---

(1) انظر بنكر (2002).

والوسـواس بالذات، والانتحـار تحليقاً عـالياً، وخصـوصـاً بين الشـبـاب، وفي الـوقت الذي تظهـر فـيـه أوتار الـسلوك المهـذب والمجـتـمع، وقـد صارت مقطوعة بالمادية المتغلغلة في كل شيء، وبالجشع والأنانية.

والمشكلة الوحيـدة مع هذه الرؤية الواضـحـة والواسـعـة الانتشـار ـ وهي أن العلم وخبـرة القـرن العـشـرين تبـرر التشـاؤم ـ هي أنهـا رؤية زائفـة، وهـذا لا يعني أن نقـول: إن التـفـاؤل لم يبق مـبـرراً بالحـقـائق، والأمـر ببساطة هو أن أسس التشـاؤم الحـديث مهـتـزة أكثر بكثيـر مما تظهر عليه.

والعلمـاء والمؤرخـون، وإلى حـد لا يقـدّره الرأي العام، يتـخـذون الآن من فرويـد، ومن مكتشـفـاته وجهة نظر مـختلفـة جداً، ففي الـعـام 1972، قدَّر السير بيتر ميداوار، الطبيب البريطاني البارز والحائز على جائزة نوبل أن التـحليل النفـسـي هو «واحـد من أشـد الأحـداث البـارزة كلهـا حـزناً وغـرابة في تاريخ فكر القـرن العشـرين»[1]. ويجـد مـؤرخ الأفكار بيـتـر واطسـون، الـذي يعـرض رواية عـادلة ومـتـوازنة عن فكر القـرن العـشـرين تـركـة فـرويـد مـعـيـبـة عـيـبـاً عـمـيـقـاً، ويقـول: إن الروايات الفـرويدية، ورسـومـاته، وأوبراته، «قد سـاعـدت على إشاعـة رؤية معينة للطبيعة البـشرية، وخلع الشـرعيـة عليهـا، وهي رؤية خطأ، وكل الدلائل على عكس ذلك مفقـودة»[2]، ويقول أيضـاً: إن «بحث» فـرويد الآن غيـر

1. Peter B. Medawar (1972) The Hope of Progress, Methuen, London, p.68.

2. Peter Watson (2000) A Terrible Beauty: The People and Ideas that Shaped the Modern Mind \'d0 A History, Weidenfeld & Nicolson, London.

مصدق إلى حد كبير، وإن معظم أفكاره غير علمية بالكامل، وهي «مساوية للتصديق بالأطباق الطائرة».

وليس بمقدورنا أن نستبعد علوم الأعصاب، وعلم الحياة الدارويني الجديد بهذه الطريقة، ومع ذلك، فلا يلزم من هذا أن تكون مضامينها على هذه الدرجة من التشاؤم، مثلما ذهب الظن أول الأمر، ويقول ستيفن بنكر: «إن تمرير اللوح الفارغ أقل إزعاجاً، وفي بعض النواحي أقل ثورية، مما ظهر عليه في أول الأمر... إن جنون العظمة لدى المورِّثات لا يعني أن الإحسان والتعاون لا يمكن أن يتطورا، بأكثر مما يعني القول: إن قانون الجاذبية يبرهن أن الطيران لا يمكن أن يتطور».

التفاؤل يرد بالمِثْل

الأرض المهمة الحاسمة للمتفائلين، وللمتشائمين هي الإدراك العقلي للطبيعة الإنسانية، فهل برر فعلاً علم القرن العشرين رؤية لبني البشر أكثر ظلمة وكآبة؟ إن استنتاجنا حتى الآن هو: ليس كذلك فعلاً، فلقد كانت الأفكار الفرويدية مؤثرة حتى الآن، ولكنها ليست مبررة بالدليل. وإن أهمية التأثيرات الوراثية على الإنسانية، وتراجع «اللوح الفارغ»، تحاجُّ بقوة ضد قابلية الإنسان للكمال، ومع ذلك فهي، إلى حد ما، تُعلي أكثر مما تنقِص من أهمية إرادتنا الحرة، ومن نُبل الحضارة التي حققتها الإنسانية في تجاوز تأثيراتنا الحيوانية والجسدية المحضة.

في العام 1996، فسر كتاب مات رايدلي، أصول الفضيلة، أحدث دليل قدمه علم الحياة ونظرية الألعاب لدعم رؤية متفائلة للإنسانية

وللمـجـتـمع، وحاجَّ في أن المجتمع هو نتاج مـورثاتنا وتطورنا غـيـر المورثاتي، نحن بني البشر، فريدون؛ لأننا ننظم أنفسنا في جماعات كبيرة، مع وجود علاقات داخلية معقدة بين الأفراد، ولأننا نتعاون بطريقة أساسية مختلفة عن الحيوانات الأخرى: «الدماغ البشري ليس أفضل، وحسب من الحيوانات الأخرى، إنه مختلف... إنه [قادر على أن] يستغل العلاقات التبادلية، وأن يبادل أعمال المعروف، ويحصد منافع الحياة الاجتماعية»[1]. ويربط ريدلي هذا باختراع التجارة التي يقول عنها:

> ... إنها تمثل واحدة من اللحظات القليلة جداً في التطور، حين عثر الإنسان العاقل على ميزة بيئية منافسة متفوقة على الأنواع الأخرى التي كانت فريدة فعلاً، وليس هنا ببساطة أي حيوان آخر يستغل قانون الميزات المقارنة بين الجماعات.

ويمكن توضيح أهمية التجارة والتعاون توضيحاً بيانياً بمقارنة التسمانيين المحليين والسكان الأستراليين المحليين، فحين هبط الأوروبيون في تسمانيا في العام 1842، وجدوا مجتمعاً هو أكثر المجتمعات بدائية في العالم في ذلك الوقت، ولم يكن التسمانيون المحليون يستطيعون إشعال نار، ولم يكونوا يمتلكون الأدوات المصنوعة من العظام أو الفؤوس ذات الأيدي أو القوس الخشبي الذي يرتد إلى

1. Matt Ridley (1996) The Origins of Virtue, Penguin, New York.

راميه، ولم يكونوا يستطيعون صيد السمك، أو أن يصنعوا ملابس دافئة، وكان السكان الأصليون الأستراليون يستطيعون عمل كل هذه الأشياء. وكانت الجماعات المعزولة من أمثال التسمانيين تعاني؛ لأن معظم المجتمعات تحصل على أفكارها وتجديداتها من الخارج، من خلال الاتجار بالسلع وبالأفكار، والمجتمع الإنساني يتقدم من خلال التجارة، والتخصص، والتعاون بين الجماعات.

بعد العام 1970، طور علماء الرياضيات نظرية الألعاب باستخدام الحواسيب، بمقارنة نتائج اللاعبين الذين يتعاونون أحدهم مع الآخر في مقابل نتائج اللاعبين الذين يلاحقون مصالحهم الأنانية الخاصة، وأحد المفاهيم التي استخدمتها نظرية الألعاب كان مفهوم «مأزق السجين»، وفي هذا المأزق مجرمان، يقفل عليهما في غرفتين منفصلتين، ولا يستطيعان الهرب من العقاب، إلا إذا رفض كلاهما بشكل مستقل أن يخون أحدهما الآخر، فإذا أعطيا صفقة من الحصانة أو الحكم الخفيف إن ورط أحدهما السجين الآخر، فإن كلا الفريقين سيختار بشكل أناني ذلك المسار، وهذا ما بدا أنه يوحي، بأسلوب حديث كلاسيكي، باتِّباع ماركس، وفرويد والكثير من التاريخ الحديث، أن النزاع كان مستوطناً للمجتمع، وأن التعاون كان محتوماً له أن يكون محكوماً بالأنانية، ولكن في العام 1979، نظم روبرت أكسيلرود العالم الاجتماعي سلسلتي مباريات، ودعا الناس فيهما إلى وضع برامج حاسوب متنافسة؛ ليلعبوا لعبة مأزق السجين 200 مرة ضد برنامج أحدهم الآخر الذي أدخلوه، وضد نفسه، وضد برنامج عشوائي، وفي

كل مـرة، ومن مـجـمـوع 76 مـرة إدخـال، ربح البـرنامـج نفسـه، وكـان اسـم البــرنامج ضــربة مـقــابل ضــربة (تت ـ فــور ـ تات)، وابـتكره العــالم السياسـي الكندي أناتول رابوبورت، وبدأ بالتـعاون ثم فعل الشـيء نفسه، مـثلمـا فعل اللاعبون الآخرون في المرة السـابقة، وشـرح أكيسلرود لماذا ربح برنامج ضربة في مقابل ضربة «تيت ـ فور ـ تات»:

> مـا يفسـر النجـاح القـوي لبـرنامج ضـربة في مقـابل ضـربة هو مـزجـه بين كونه لطيفـاً، ومتـسـامحـاً، وواضحـاً، فلطفه يمنعـه من الوقوع في مشكلة مـزعـجـة غيـر ضـرورية، ورده الانتقـامي يثبط الجـانب الآخر عن الاسـتمـرار في الإصرار، كلمـا حـاول نقض الولاء، ويسـاعـده تسـامحـه على اسـتعـادة التـعـاون المتـبـادل، ويجـعله وضـوحـه مفـهـومـاً للاعب الآخـر، وبهذه الوسيلة يستدعي تعاوناً طويل الأمد[1].

والقضية الأخرى من أجل التفاؤل، طرحها في العام 2000 عالم علم الحيـاة العصبيـة كينان مـاليك[2]، فهو يقـول: إن الإنسـانيـة هـربت من القيـد الجسـدي والحيـوي إلى الوجـود الاجـتمـاعي، فـالبـشـر يشـاركون الشـامبـانزي في 98 بالمئـة من مـورّثاتهم، ومع ذلك فقـد أنجـز البـشـر وجوداً مختلفاً تماماً من خلال اللغة، ووعي الذات، والخيال واستخدام

1. Robert Axelrod (1984) The Evolution of Co-operation, Basic Books, New York.
2. Kenan Malik (2000) Man, Beast and Zombie: What Science Can and Cannot Tell Us About Human Nature, Weidenfeld & Nicolson, London.

الرموز، ويحاجّ في أن «البشر واعون بأنفسهم بوصفهم وكلاء، وواعون بالعالم الذي تتوجه وكالتهم نحوه» وإن البشر ينجزون أكثر من مجموع أفعال الأفراد من خلال التعاون في المجتمع، ولسنا فقط مجرد كائنات جسدية، ولكننا كائنات اجتماعية أيضاً. «قد يكون المخ آلة بالفعل، أما العقل فلا» فما يميز العقل، هو أنه على خلاف المخ، لا ينتمي إلى الفرد بشكل محض والعقل يتأثر بعقول أخرى، ويؤثر فيها، إن البشر، إنما يكونون في الأفكار والعلاقات، مختلفين كمياً عن الحيوانات الأخرى.

البشر يغيرون العالم، وهم يغيرون الثقافات بدلاً من أن يقبلوها ببساطة، والبشر يخترعون الأدوات ـ اللغة، والمفاهيم، والتقانة ـ التي تذهب إلى أبعد من الوراثة الإنسانية نتيجة الانتقاء الطبعيّ، وإنهم يعتمدون بشكل أساسي على العلاقات، والتقمص الوجداني، والتعاون، والعمل المشترك.

إن الكتّاب من أمثال رايدلي وماليك يرجعون بنا إلى الخلف إلى المعجزات التي أنجزتها الحضارة، من خلال التعاون الإنساني والإبداع، وإن أكبر فهم لنا لحالنا الذي نبدو عليه، ربما يكون له ثلاثة مضامين مفيدة، الأول: هو أن هناك سلسلة كبيرة من السلوك الإنساني، والثاني: هو أن التعاون الإنساني، طوال المسافة الطويلة، اعتمد على مجتمعات أكثر تعقيداً دائماً وأعظم تبادلاً في اعتماد بعضها على بعض، وهو ما أقدر البشر على الازدهار والتكاثر، والاستنتاج الثالث: هو أن التعاون لا يعمل تلقائياً، ولكنه يحتاج إلى أن يُحرّضَ بالتقاليد التي تشجع التعاون وتثبط الأنانية.

بعد أن أزيحت الرؤية المتشائمة عن الطبيعة الإنسانية جانباً، هناك أسس موضوعية قليلة أخرى للتشاؤم، وإن الفهم الذي يرى أن القرن العشرين كان دموياً على نحو فريد هو فهم غير صحيح، ففي المجتمعات البدائية المتنوعة، وصلت النسبة المئوية لوفيات الذكور الناتجة عن الحرب إلى مدى يراوح بين 10 و60، والنسبة المئوية المعادلة بالنسبة إلى الغرب في القرن الماضي، ومن ضمنها الوفيات الناتجة عن حربين عالميتين، كانت 2 بالمئة لا غير[1]. وكذلك فإن زيادة انتباه وسائل الإعلام بالحرب لا تعني أن الحرب صارت أسوأ، وقد أظهرت دراسة حديثة لجامعة ماريلاند أن تكرار الحرب وشدتها، مقارنة مع 15 سنة مضت، قد هبطت بأكثر من النصف[2].

ومع ذلك، فهناك تطوران نهائيان اثنان يجب أن نسلط الضوء عليهما، وهما في الوقت الذي لا يوفران فيه بالضرورة تبريراً للتشاؤم المتزايد، يساعدان بالتأكيد على تفسيره. أحدهما، وهو ملحوظ ومفهوم على نحو جيد، هو «التدمير الخلاّق» الذي صنعه تفكيك الرأسمالية المسيطر عليها، وذلك بإزالة الأنظمة، والخصخصة، وتخفيض حواجز الاستيراد، وتجليات أخرى من الأسواق الحرة والفوضوية على نحو متزايد، وإن الثروة العامة تتزايد، ولكن التباينات في الدخل وعدم الأمان الشخصي تتزايد كذلك.

(1) البيانات من بنكر (2002)، ص57.

(2) مقتبسة في «اتجاهات في أماكن عالية» اقتبسها ستاين ـ رينجين، Financial Times, 23 July 2005, p.23. فإذا كنا نجد هذا مفاجئاً، فهو يدل على المدى الذي قام به التشاؤم المعاصر بتشويه إدراكاتنا.

والتطور الثاني أقل وضوحاً وأكثر أهمية، فقد قالت جيرترود ستاين: «في القرن العشرين لا شيء متفق مع أي شيء آخر». لقد انتقلنا من مجتمع متكامل نحو مجتمع تعددي أكثر تشظياً بكثير، ولقد اعتقد كارل ماركس، إلى جانب كل مفكر آخر من القرن التاسع عشر تقريباً، أن المؤسسات المختلفة للمجتمع ـ السياسية، والاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، وبشكل أوسع بكثير الفكرية ـ عزز بعضها بعضاً بشكل طبعيّ. وما لم يستطع ماركس أن يتخيله هو ما يُجلّيه الغرب الآن، وهو عالم قد تكون فيه الأعمال التجارية والصناعية، والفنون، والكنيسة، ووسائل الإعلام، والطبقات السياسية، والعلماء، والمفكرون الأدباء، والجماعات المهنية الأخرى، والجماعات المرتبطة بهويات عرقية أو ثقافية فرعية في نزاع مع بعض الجماعات الأخرى أو معها كلها، أو قد تكون بطريقة أخرى غير مكترثة بها، مع درجات مختلفة من التسامح والاحترام المتبادل.

إن الوحدة والإجماع أصعب اليوم؛ لأن أجزاء مختلفة من الحياة الحديثة تمتلك حكمها الذاتي المستقل وأعرافها المتميزة، ويحتمل أن يميل تعقيد المجتمع وتمييزه المضافان إلى زيادة الثراء الثقافي، والثروة، والمعرفة والحرية الشخصية، ولكنهما يميلان أيضاً إلى إنقاص الإحساس بهويتنا المشتركة وبمصالحنا، ولذلك، فإن التفاؤل والثقة في المجتمع قد تنهاران كذلك إلى حد كبير، ولو كانت المؤشرات الموضوعية للرفاهية والتقدم تتجه إلى الأعلى، فإذا أضفنا الانهيارَ المؤثر الضخم للثقة العامة ولتصديق الحكومة، في نصف القرن

الماضي ـ حتى الآن، بالإضافة إلى المؤرخين، وهم الحافظون الرئيسون للأساطير الضرورية للمجتمع عن نفسه وفضائله ـ نستطيع أن نرى كيف أن تكاثر التشاؤم يمكن أن يتعايش مع التقدم الاجتماعي المتزايد.

خاتمة

لقد اندفع نجاح الغرب بشكل جوهري بالتفاؤل، وتبدو جذور التفاؤل، وقد ذوت.

ومن الأفضل أن نكون واقعيين أكثر من أن نخدع أنفسنا، ومع ذلك ومهما تكن الحقائق، فإن هناك طيفاً ضخماً من التفاؤل أو التشاؤم يمكن للأفراد وللحضارات أن يختاروا من خلاله أن يفسروا الواقع الحقيقي، وإن العالم موجود في عقولنا، ومواقفنا نحو العالم تغذي أعمالنا وتؤثر تأثيراً قوياً على درجة نجاحنا، وما سيحدد منحى الحضارة إلى مدى كبير هو كون هذه الحضارة من الحضارات فاعلة أو سلبية، أو كونها واثقة بذاتها، أو ناقدة لذاتها، أو كانت موحدة، أو منقسمة، ومن دون تقدير الذات، لا يستطيع الفرد أن يعمل إلا القليل من العمل البنّاء، والشيء نفسه يصدق على المجتمعات والحضارات.

لقد كان أعظم تحد للتفاؤل في آخر 100 أو 150 من السنوات الماضية هو رؤية جديدة منحدرة متشائمة للإنسانية، وكانت مشتقة على ما يبدو من مكتشفات علم الحياة وعلم النفس، وليس هناك إنكار للمدى الذي نميل إليه في اتخاذ رؤية أكثر ظلمة عن الإنسانية، ومع ذلك، فليس هناك في العلم الحديث ما يستدعي مثل هذا اليأس،

ولقد فقدنا الاعتقاد باللوح الفارغ، وفي كمال الإنسانية، ولكننا نمتلك أيضاً رؤية أوضح وأقوى عن الاختلافات الفريدة للإنسانية عن الحيوانات الأخرى، وعن مجد العقل، والواقع الحقيقي للإرادة الحرة، وعن قدرتنا على الارتقاء من خلال اللغة المشتركة، والأفكار المشتركة وسيطرتنا على الطبيعة، وعن الإنجازات التي حققتها مجتمعات أكثر تعقيداً، واعتماداً من بعضها على بعض، وأكثر تعاوناً دائماً.

إن الميل الموروث لدى الحضارة الغربية الحديثة هو ميل إلى اللامركزية، وإلى التشظي وحل الروابط التي كان من عادتها أن توحد مجتمعات أكثر تجانساً، وقد يكون ثمن التقدم هو أن نبصر بدلائل أقل عن هذا التقدم، ومن الأصعب أن نرى الصورة الكبيرة، ومن الأصعب كذلك أن نقدرها إلى أكمل مدى يمكن تبريره.

إن كان «التفاؤل الواقعي» يجعلنا أسعد، وهو شرط لتقدم حضارتنا، فالغرب، يواجه، إذاً، تحدياً قاسياً، فنحن لسنا فقط ضحايا نجاحنا الخاص، نحن لا نستطيع كذلك أن نعتمد على أنه مستمر، ونحن لا نملك شيئاً لنكون متشائمين نحوه عدا التشاؤم نفسه، ومع ذلك فالنظر إلى حضارتنا وإنسانيتنا في ضوءٍ ألطف وأكثر إيجابية لا يسير ضد انحيازاتنا السائدة فقط، بل ضد الاتجاهات الاجتماعية الطاردة المركزية أيضاً، والتي ما تزال تتسارع، وإن تدوير الغرب ليعود إلى التفاؤل الذي سوف يستغرق حركة فكرية وعملية جديدة كاملة، وليس هناك أي علامة على مثل هذا التحول في الأفق، وعلى الرغم

من أنه لا توجد أسباب قاهرة تجبر على الكآبة، وهناك أسباب عملية عديدة تدفع إلى النظر إلى الجانب المضيء، فإن من العسير أن نكون متفائلين بشأن مستقبل التفاؤل.





الفصل الرابع

العلم

يشرح انتصار العلم، أكثر من أي عامل من عوامل النجاح الخمسة الأخرى، التقدم الحالي الضخم للغرب على الحضارات الأخرى في التقانة، والتجديد، ومستويات المعيشة، والقوة العسكرية، ولقد كان الإنجاز العلمي منذ العام 1900 أكثر تأثيراً إلى مدى واسع من الناحيتين الفكرية والعملية منه في أي وقت آخر، متوجاً ستة قرون من الاكتشافات المذهلة عن الطبيعة وعن الكون، وكانت الإنجازات والاكتشافات، ومازالت مستمرة، غربية على نحو كاسح.

ولو عرف زائر من المريخ هذه الحقائق، فربما تخيل أن العلم كان معبوداً من العديدين من الغربيين، إن لم يكن من معظمهم، وأن مكانته ما كانت ستكون أعلى مما هي عليه، وفي وقت معين ـ ربما في أثناء ليل 21 /20 تموز/يوليو من العام 1969، حين خطا نيل آرمسترونغ على سطح القمر ـ قد يكون هذا حقيقة عابرة سريعة الزوال، ولكن المخاوف الغربية حول العلم، منذ العشرينيات من 1920، ومنذ العام 1970 على نحو أكثر تخصيصاً، قد زادت زيادة ضخمة، ورأت آخر 30 سنة، من داخل قلب الغرب، سلسلة من الهجمات على العلم عنيفة ومتنوعة على نحو مذهل، وتأتي الهجمات من اليسار واليمين، ومن المفكرين ومن المناوئين للمفكرين، ومن وسائل الإعلام والمحتجين

الغاضبين، ومن الأصوليين المسيحيين ومعلمي العصر الجديد، ويظهر أن الغربيين قد فقدوا إيمانهم بالتدبر العقلي، وبالعلم.

في هذا الفصل، نطرح سؤالين يناقَشان بأقل مما يستحقان بشكل غريب، ثم نجيب عنهما، أولاً: لماذا كان العلم في ذروة أيامه، وفي آخر 600 سنة مضت، كان فعلياً احتكاراً غربياً؟ ثانياً: ما الذي يشرح الهبوط في مكانة العلم في وقت انتصاره العظيم؟ ويصل الأمر، وبشكل مخادع، إلى أن الجواب عن السؤالين هو نفسه، وينذر الحضارة الغربية بالسوء.

صعود العلم

ما العلم؟ بناء على التعريف، يكون الغرب أكثر الحضارات العلمية تطوراً، ولكنها مستقرة بشكل مهم على حضارات علمية قائدة سابقاً، وإلا فهو أول حضارة علمية، وهو الحضارة العلمية الوحيدة.

يقول عالم الأناسة (الأنثروبولوجي) جاريد دياموند: «يساء تفسير العلم في الغالب بوصفه» مجموعة المعرفة المكتسبة من خلال إجراء تجارب مكررة تحت السيطرة في المختبر، «وفي الواقع، إن العلم شيء أوسع كثيراً: إنه الحصول على المعرفة التي يعتمد عليها عن العالم»[1].

1. Jared Diamond (2005) Collapse: How Societies Choose to Fail or Survive, Penguin, New York.

إذا أخذنا بهذا التعريف العريض، فإن الغرب لم يكن أول حضارة علمية، ففي القرن السادس قبل عصر المسيح، أدار الإغريق الأيونيون ظهورهم للسحر، وأسسوا، كما يزعم بعض المؤرخين، علماً طبعيّاً، وقد قال الأيونيون: إن العقل الإنساني، وهو يهتدي بالملاحظة الصارمة للحقائق، يستطيع أن يكتشف طبيعة الواقع الحقيقي، وإن الحقيقة لم توجد في عالم سماوي كالأشباح، ولكنها توجد في عالم من الخبرة الإنسانية القابلة للملاحظة، واعتقد بعض الإغريق أنهم باستبعاد الأساطير والتفسير الماورائي للكون، يمكن أن تفهم الظاهرة الطبعية بتعابير فيزيائية ورياضية، وقالوا: إن المعرفة جزئية وقابلة للسقوط، ويجب أن تُراجع دائماً، حين تبرز دلائل وتفسيرات جديدة.

وكما هو معروف جيداً، فإن العلماء الإغريق أنجزوا تقدماً ضخماً في الرياضيات، وفي الفلسفة، ولكن فكرة اكتساب المعرفة من خلال الملاحظة والتجريب لم تغرس جذورها بشكل ثابت أبداً، فسقراط وأفلاطون سخرا من الملاحظة الفلكية، إذ سماها سقراط «هدراً للوقت». وتعرض تقدم الإغريق نحو العلم للعرقلة بوجهة النظر التي عبر عنها رينو (430 - 490 قبل عصر المسيح)، وكانت مقبولة بشكل شامل تقريباً، وهي أن الكون كان يعمل بطرق مشخصنة، وليس وفق قوانين طبعية، وقال أرسطو: إن النجوم كانت تتحرك في دوائر؛ لأنها كانت تحب أن تتحرك بهذه الطريقة، وسقطت الحجارة إلى الأرض؛ لأنها كانت تحب مركز العالم، وليس مفاجئاً أن الفيزياء التي استندت إلى مثل هذه «التفسيرات» أخفقت في صنع الكثير من التقدم إلى

الأمام، ويقول البروفسور رودني ستارك عن الإغريق القدماء، وهو يلخص آراء مؤرخين كثيرين للعلم: «في النهاية، فإن كل ما حقّقوه لم يكن تجريبياً عملياً، بل مناوئاً للتجريب العملي، وكان فلسفات تأملية، ومجموعات من الحقائق المناوئة للنظرية، وحرفاً وتقانات معزولة ـ إنهم لم يحققوا أبداً اختراقاً إلى العلم الحقيقي»[1].

وبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، صارت الحضارة الإسلامية عسكرياً، وثقافياً، وعلمياً هي البارزة في أوروبة، وتحت مظلة الإسلام، من منتصف القرن مما كان يدعى عصور الظلام، وحين كانت أوروبة المسيحية قد فقدت تقريباً كل العلم الإغريقي كان ذلك العلم معروفاً ومكنوزاً في كل أنحاء بلاد الإسلام، وكانت مدن الإسلام الجميلة في إسبانيا ـ إشبيلية، وغرناطة، وقرطبة ـ مغناطيساً يجتذب العلماء من كل العقائد، وتعاون المسلمون، واليهود، والمسيحيون لتحقيق منفعتهم المشتركة الكبيرة، ومن خلال وساطة العلماء العرب اكتسب الغرب أرقامه الحديثة، وأعاد اكتشاف كتابات علماء الإغريق القدامى، وتقدم في علم الفلك، واكتسب علماً جديداً من بلاد فارس، ومن الهند، ومن الصين على وجه الخصوص، وهي الحضارة الوحيدة التي كانت تتساوى مع الحضارة الإسلامية بالنسبة إلى علمها وتقانتها[1]. ومع ذلك، فالعلم الإسلامي، مثله مثل علم الإغريق

1. Rodney Stark (2003) For the Glory of God: How Monotheism Led to Reformations, Science, Witch-Hunts, and the End of Slavery, Princeton University Press, Princeton.

القدامى الذي كان قد استند إليه، كان له قيود جدّية، ويشرح قيصر ئي. فرح، وهو مؤرخ مسلم متميز وورع، السبب، فيقول: «المفكرون المسلمون الأوائل استأنفوا الفلسفة من حيث تركها الإغريق... في أرسطو وجد المفكرون المسلمون دليلاً عظيماً... الفلسفة الإسلامية... في القرون اللاحقة اختارت مجرد أن تستمر في هذا المزاج، وأن توسع أرسطو بدل أن تجدد»[2].

وفي الوقت نفسه، وعلى الرغم من عدم امتلاكهم للنصوص الإغريقية، فإن «البرابرة» الأوربيين من «عصور الظلام» حققوا تقدماً لافتاً للنظر، لا في العلم، ولكن في التقانة بكل تأكيد، ففي العام 732 هزم شارل مارتل، وجيش الإفرنج المسلمين بنشر فرسان يلبسون درعاً كاملاً، ويستخدمون الرِّكاب والسرج النورماندي لأول مرة، مُمَكِّناً بذلك الفرسان من البقاء على خيولهم في الوقت الذي يضربون فيه المسلمين بالرمح، وطوال القرون الخمسة الآتية، اخترع الأوروبيون الآلات، «وفق معدل لم تعرفه أي حضارة سابقاً»[3]، كما يقول المؤرخ جين غيمبل، ويمكن أن تمتد قائمة التجديدات إلى أكثر من صفحة: وهي تشمل النظارات، وعمود إدارة الحدبات، والبوصلة، والساعات

(1) كانت الحضارة الصينية قد سبقت دائماً حضارتي اليونان وروما من ناحية التقانة، على الرغم من أن عبقرية الحضارة الصينية كانت متجهة إلى الاختراع العملي أكثر منها إلى التأمل العلمي أو البحث.

2. Caesar E. Farah (1994) Islam: Beliefs and Observances, Barron\'d5s Hauppauge, New York, Italics in the original.

3. Jean Gimpel (1976) The Medieval Machine: The Industrial Revolution of the Middle Age, Penguin, New York.

الآلية، وطواحين الماء، ودواليب الماء والبارود[1].

ومن القرن الحادي عشر، بدأ العلم الأوروبي يلحق بعلم الإسلام والصين، وبدأ مع نهاية القرن الثالث عشر يتجاوزه، وقام روبرت غروستست (1253 - 1186)، أسقف لينكولن ومستشار جامعة أكسفورد بتأصيل طريقة التجريب العلمي المنهجية[2]، وأدى اختراع الساعة الميكانيكية في السبعينيات من 1270 إلى دقة جديدة في القياس العلمي.

و«المدرسيون» الرهبان المسيحيون، الذين ضموا في جملتهم المجددين المشهورين توماس الأكويني (74 - 1225)، ووليام أف أوكهام (1349 - 1295)، وجين بيوريدان (85 - 1300)، ونيكولاس دوريسم 1325) (82 - وألبرت أف ساكسوني (90 - 1316) اخترعوا الجامعة[3]، واستبدلوا الملاحظة التجريبية بالتأمل المجرد، وبحثوا عن أبسط التفسيرات وأشدها ضيقاً للفرضيات العلمية، وأخذوا التجريب، والرياضيات والفيزياء إلى قمم جديدة.

---

(1) اخترع الصينيون مسحوقاً متفجراً لعمل الألعاب النارية، واستخدمه الأوروبيون لصناعة البارود، وهكذا فبحلول العام 1325 كان المدفع موجوداً في كل أنحاء أوروبة، وليس موجوداً في أي مكان آخر.

(2) أجرى التجريبيون تجارب خاصة في الإسكندرية، وأجراها الصينيون في عصر هان، والعلماء في بغداد القرن التاسع، ولكن غروستست كان أول من أصر على الطريقة العلمية، وعلى أن يقترح صوغ الفرضيات التي يجب تجربتها بدقة من خلال التجارب.

(3) وجدت جامعتا بولونيا وباريس أولاً، حوالي العام 1150، وتبعتهما أوكسفورد وكيمبردج حوالي العام 1200، وأكثر من عشرين من الجامعات الأخرى، كلها وجدت في المدن الغربية بحلول العام 1300.

ويمكن قياس تقدم المدرسيّين بالطريقة التي تصارعوا فيها مع مفاهيم، مثل القانون الطبيعيّ، ودوران الأرض حول الشمس، وعلى سبيل المثال، قام جين بيوريدان، رئيس جامعة باريس لأول مرة باستكشاف الفرضية بأن الأرض تدور على محورها، فتخلق بذلك وهماً بأن الشمس والقمر يشرقان ويغيبان، وأصّل بيوريدان أيضاً نسخة مبكرة من نظرية العطالة، ومن فكرة أن الله خلق العالم، ثم تركه ليعمل، وفقاً للقوانين الطبيعية، وقال بيوريدان، يمكن المحاجة في،... أن الله، حين خلق العالم، حرك كل واحد من المدارات السماوية، كما أحب، وفي تحريكها طبع عليها قوى دافعة حركتها من دون أن يقوم هو بتحريكها بعد ذلك... وهذه القوى الدافعة التي طبعها هو في الأجرام السماوية لم تنقص، ولم تفسد بعد ذلك... ولا كان هناك مقاومة يمكن أن تكون مخرِّبة أو كابحة لتلك القوى الدافعة[1].

بل إن ألبرت أف ساكسوني، وهو رئيس جامعة باريس في أواخر القرن الرابع عشر، توقع قبل ثلاثة قرون تقريباً، القانون الأول للحركة لدى نيوتن. «...السبب الأول خلق المدارات السماوية وطبع خاصية حركة واحدة على كل واحد منها من النوع الذي يحرك المدار». واستمرت النجوم بالحركة في مداراتها؛ لأنه لم يكن يوجد مقاومة في الفضاء، وبناء عليه لم تكن توجد قوة «نحو أي حركة مضادة»[2].

(1) اقتبسها رودني ستارك (2003)، مستنداً إلى مارشال كلاغيت (1961)

The Science of the Mechanics in the Middle Ages, University of Wisconsin Press, Madison , p.536.

(2) ستارك (2003) ، مستنداً إلى إدوارد غرانت (1994) كواكب، ونجوم، ومدارات:
The Medieval Cosmos, 1200-1687, Cambridge University Press, Cambridge, p.550.

إن عصر النهضة، الذي بدأ في حوالي النصف الثاني من القرن الخامس عشر، نما من تربة أوروبة القرون الوسيطة الفكرية الخصبة، ونصف العقد الذي امتد من 1450 إلى 1455 ورأى ميلاد كولومبوس وليوناردو، واختراع غوتنبرغ للمطبعة، وهجرة العلماء الإغريق إلى إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية، وبين العام 1468 والعام 1488 جاء إحياء الأفلاطونية الجديدة في أكاديمية فلورنس، وكتاب خطبة في كرامة الإنسان الذي لا نظير له من بيكو ديللا ميراندولا، وميلاد كاستيليوني، وكوبرنيكوس، ودورُر، وجيورجيوني، ولوثر، وماجلان، ومايكل أنجلو، ومور، وبيزارو، ورفائيل، وكانت الإنجازات في الرسم والتلوين مثلما هي في القياس الهندسي للفضاء، والواقعية التصورية والتشريحية، دوافع مهمة للتقدمات اللاحقة في العلم الطبي والفني، وأرسى ليوناردو، وهو عالم بقدر ما كان فناناً، المبادئ الثلاثة للعلم الحديث ـ التجريب العملي، والرياضيات، والميكانيك.

إن كل العالم الحديث يستند إلى استبصار واحد، توقعه بيوريدان، وألبرت أوف ساكسوني، وليوناردو، وكوبرنيكوس، واستكشفه وحققه بين العامين 1609 و1687 كل من كبلر ونيوتن، وهو أن الأرض والسماوات محكومة بقلة من القوانين الشاملة، والفيزيائية، والميكانيكية، والرياضية، ففي العام 1609، برهن كبلر، باستخدام كميات كبيرة من البيانات الفلكية، على أن الأرض تدور حول الشمس

= كان المصدر الأصل هو Albert of Saxony (1493) Physics, Padua وهو كتاب لا بد أن يكون معروفاً لكوبرنيكوس، الذي درس في جامعة باديوا بعد قليل من نشر الكتاب.

وليس على العكس من ذلك، وفي العام نفسه، كشف غاليليو، باستخدام منظاره القوي الجديد الخاص، عن النجوم الجديدة التي لا حصر لأعدادها، وعن كون أرحب بكثير مما كان يتصور سابقاً، وفي العام 1687، ربما يكون إسحق نيوتن قد صنع أعظم اختراع فكري في كل زمان، وهو أن أربعة قوانين فيزيائية (ثلاثة قوانين حركة، ونظرية الجاذبية الشاملة) كانت تستطيع أن تفسر كل شيء معلوم وملاحظ سابقاً حول الحركات السماوية والأرضية، وكانت هذه أول نظرية علمية مقنعة عن كل النظام الشمسي، ولم تبق السماوات غامضة بعد ذلك أو خارج التدبر العقلي الإنساني، وشرحت الجاذبية لماذا يسقط التفاح عن الشجر؟ وكيف كانت الكواكب ممسوكة في مكانها؟ وأوضحت الرياضيات كل جزئية حول الحركة الفيزيائية، واخترق التدبر العقلي الإنساني على الأقل أسرار السماوات الغامضة، وأعطى اكتشاف نيوتن ثقة هائلة إلى جميع من جاء بعده من العلماء، والفلاسفة، والمهندسين، فصار كل شيء له معنى، وكل شيء تناسب مع غيره، وكل شيء صار ميكانيكياً، وكان العلم يستطيع أن يبحث كل شيء، ويتنبأ به، ويديره ويحسنه.

لماذا يكون العلم غربياً على نحو متفوق؟

يعرف رودني ستارك العلم بوصفه «طريقة تستغل في الجهود المنظّمة لصياغة تفسيرات للطبيعة، وهي خاضعة دائماً للتعديلات والتصحيحات من خلال الملاحظات المنهجية... يتكون العلم من

مكونين: النظرية والبحث». وهذا التعريف يُقدّرُه على أن يستنتج أن «العلم ظهر مرة واحدة فقط في التاريخ، في أوروبة العصر الوسيط»[1]. ويضع المؤرخ إدوارد غرانت تاريخ ظهور العلم في وقت متأخر أكثر قليلاً، ولكنه يوافق على أنه كان اختراعاً أوروبياً: «إنه لا نزاع في أن العلم الحديث ظهر في القرن السابع عشر في أوروبة الغربية، وليس في أي مكان آخر»[2].

والتعريف الواسع للعلم مثل التعريف الذي اقترحه جاريد دياموند وهو ـ «اكتساب معرفة يعتمد عليها عن العالم» ـ يمكن أن يسلط الضوء على العمل الرائد الذي قامت به الحضارات الإغريقية، والإسلامية، والصينية.

تعريف العلم ليس حاسماً، فكل مؤرخ يوافق على أن أوروبة الغربية، في وقت ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، اندفعت قدماً اندفاعاً ناجحاً، سبق بقية العالم في العلم والتقانة، وهو سبق تعزز في السنوات المائتين التي تلت، ولم يجر تحديه منذ ذلك الحين أبداً، ومنذ مئة سنة، أكد ماكس ويبر بثقة أن «العلم يوجد فعلاً في الغرب فقط في مرحلة من التطور نعترف بها بوصفها صحيحة اليوم»[3]. وفي العام 2000، كتب بيتر واطسون، وهو يكتب تاريخاً للأفكار، وقال: إنه

(1) ستارك (2003)، ص ص. 124، 197.

2. Edward Grant (1996) The Foundations of Modern Science in the Middle Ages: Their Religious, Institutional, and Intellectual Contexts, Cambridge University Press, Cambridge, p.168.

3. Max Weber (1985) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism, Unwin, Hemel Hempstead.

«... في القرن العشرين، لم تنتج الثقافات غير الغربية أي مجموعة من العمل يمكن أن تقارن بأفكار الغرب... ومهما تكن القائمة التي تحرص على أن تصنعها عن تجديدات القرن العشرين... فهي تقريباً كلها غربية»[1].

من الواضح أن الغرب كان أول حضارة، وكان الحضارة الوحيدة التي تطور العلم تطويراً كاملاً، وأن الأسبقية التي أعطاها الغرب للعلم أقدرته على أن يغير طبيعة الاقتصاد والمجتمع، وأن يخلق رفاهية عامة داخل الغرب، وأن يحقق معجزات تقانية لم يكن بمقدور العصور الأولى، ولو أن تتصورها، وأن يقهر القارات كلها، وإن أهمية العلم الغربي ليست موضع شك، وسواء ظهر على نحو فريد أو إلى درجة غير معتادة، فهو ليس الأمر المهم، وإن السؤال الأكثر إثارة للاهتمام هو لماذا يكون العلم غربياً على نحو متفوق؟

العلم والله

في العام 1925، اقترح عالم الرياضيات ألفرد نورث وايتهيد لأول مرة الفرضية التي تحظى الآن بقبول واسع، وهي أن الإلهام الذي جاء بالعلم كان مشتقاً «من الإصرار في العصور الوسطى على عقلانية الله، الذي تم تصوره مالكاً للطاقة الشخصية التي امتلكها يهوه (الإله اليهودي) ومالكاً لعقلانية فيلسوف إغريقي، وجرى ملاحظة كل جزء،

---

(1) واطسون (2000).

وترتيبه: والبحث في الطبيعة لا يمكن أن يؤدي في النتيجة إلا إلى البرهنة على صحة الإيمان بالعقلانية»[1].

في أثناء المدة الزمنية التي خطا فيها العلم أعظم خطواته، في أوروبة الغربية في القرون الوسطى، وفي مطالع العصر الحديث، كان العلماء يعتقدون أن أسرار العالم يمكن الكشف عنها؛ لأنها أسرار غرسها الله الخالق القوي الذي يثقون به، وهو الذي كان قد كتب قواعد الطبيعة بطريقة يمكن الاعتماد عليها، وكانت الثقة بأن الكون كان عقلانياً وثابت الاطراد ثقة أساسية للعلم الحديث، وكان ذلك الاعتقاد يستقر استقراراً مطلقاً على الاعتقاد بأن الله كان قادراً على كل شيء، وعقلانياً، وثابتاً، أي كان الله كاملاً، ويجب لذلك أن يكون خلقه كاملاً، ويعمل وفق مبادئ لا تتغير، وإن الثقة بأنه كان هناك جواب منطقي، وثابت حفز العلماء على أن يجدوه، وفي القرون الوسطى، كان هذا الاعتقاد في طبيعة الله، والكون اعتقاداً فريداً يخص المسيحية، ومن القرن الثالث عشر، وحتى القرن السابع عشر، كان كل عالم غربي مهم مسيحياً ورعاً بالفعل.

وبالنسبة إلى معظم الأديان غير المسيحية، فليس هناك خالق عقلاني، والكون غير قابل للتفسير، ومتقلب ذو نزوات، ولا يمكن التنبؤ به، فالإغريق القدامى، كما سبق أن رأينا، اعتقدوا أن الأشياء مثل الحجارة والنجوم لها دوافعها الخاصة بها، والإسلام آمن بإله واحد،

1. Alfred North Whitehead (1967) Science and the Modern World, The Free Press, New York.

ولكن الله كان يُعتقد أنه فعال وهو أحياناً إله متقلب، يفعل ما يشاء، يقيم العالم يومياً من خلال إرادته، ولم يكن يوجد أي مماثل مواز للمعنى الأوروبي للقانون الطبعيّ الراسخ من الخالق رسوخاً ثابتاً*. وبالنسبة إلى المفكرين الصينيين الذين كانوا يتبعون تاو، فهم لم يعتقدوا أن العالم قد خلق مطلقاً، لقد كان العالم خالداً، وإن ما فوق الطبيعة كان جوهراً، وهو لا يمكن الوصول إليه، وغير شخصي، ودقيق، ومعقد، ومتناقض، ولم يكن هناك أي دافع نحو العلم التجريبي؛ لأنه لم يكن هناك أي تصور لكون منطقي(1).

رؤية المسيحية لله كانت شرطاً ضرورياً لإقلاع العلم الحديث وانطلاقته، ومع ذلك، فإن اللاهوت المسيحي ـ الذي كان موجوداً في

* «بالنسبة إلى المسلم، فإن أقل ما يقال في هذا الرأي هو: إنه فج وساذج، ويدل على الجهل المطبق بالقرآن الكريم، خاصة وبالحضارة الإسلامية عامة، فالقرآن صريح بأن الكون يسير وفق سنن ثابتة، وكل شيء فيه موزون وبقدر، والإنسان مكرم ويسخر هذا الكون، والله تعالى» «ليس كمثله شيء» في أعلى درجات التوحيد المنزه، ومن المؤسف أن مثقفاً شغل منصب وزير التعليم البريطاني يتورط في مثل هذا التعميم المخل، بل إن كلامه عن تاريخ العلم الإسلامي لا يصمد للبحث العلمي الموضوعي، يقول المؤرخ الأمريكي الراحل مارشال هودغسون في كتابه: (المشروع الإسلامي، ج 2ص) 573: إن أصح جزء من الناحية العلمية في عمل كوبرنيكوس كان قد تم التنبؤ به قبل قرنين في أذربيجان) (المترجم).

(1) قابل أوزولد إشبنغلر الطريقة العلمية الأوروبية التي كانت «من أوائل الأيام الغوطية، تفرض نفسها على الطبيعة، مع العزم الثابت على أن تكون سيدتها... إن [العالِم] الغربي يكافح؛ كي يوجه العالَم وفق إرادته» وفي التقانة الصينية... «الصينيون لم ينتزعوا الأشياء من الطبيعة، ولكنهم تزلقوا لها». أوزولد إشبنغلر (1999)، ص 410.

كل الأساسيات طوال أكثر من 1000 عام قبل إقلاع العلم ـ ليس تفسيراً كافياً كما هو واضح، وثمة عاملان اثنان آخران كانا جوهريين: التقدم الفكري الذي أدى إلى رؤية جديدة للإنسانية، والنمو الاقتصادي، الذي اعتمد بدوره اعتماداً مهماً على التقدم نحو الحرية.

العلم والإنسانية

رأينا في الفصل الثالث أن روح التفاؤل التي تسند الحضارة الغربية دفعت حضارة العصور الوسطى العالية، وعصر النهضة والتنوير، وكان التفاؤل يعني ضمناً درجة عالية من الثقة في قوة الله وخيريته، ولكن التفاؤل الغربي بدءاً من القرن الرابع عشر جسّد أيضاً رؤية عالية جداً بالإنسانية بوصفها أسمى خلق الله، وفي العام 1486، نشر بيكو ديللا ميراندولا، وكان عمره 23 عاماً، كتابه الشهير خطبة عن كرامة الإنسان، وفيها يقول الله لآدم «... أنا وضعتك في مركز العالم... ونحن خلقناك لا سماوياً ولا أرضياً، لا ميتاً ولا خالداً، لكي... تتمكن من أن تشكل نفسك في أي شكل ستفضله أنت»[1]، واعتقد مفكرو عصر النهضة أنه لم تكن هناك حدود لقوة الخيال الإنساني، وأن الله أراد من الإنسانية أن تشارك في عملية الخلق من خلال المكتشفات الجديدة في الفن والعلم، وهذه الرؤية الإيجابية والرفيعة للطبيعة البشرية، كانت خاصة بأوروبة الغربية في زمن التقدم العظيم للعلم، وكان مقدراً للمذهب الإنساني أن ينمو أقوى

(1) تارناس (1996).

فأقوى في الدوائر الفكرية الأوروبية الأمريكية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بل لم يكن له حتى ذلك الوقت صدى يقبل المقارنة به في خارج الغرب.

العلم والنمو

هل يقود العلم إلى النمو الاقتصادي، أم هل يقود النمو إلى العلم؟ والجواب هو أن النمو في البداية ساعد على أن يقود إلى العلم، ولكن العلم في القرون الثلاثة الأخيرة كان واحداً من الأسباب الرئيسة للنمو.

وكما سوف نسبر في الفصلين القادمين، فقد كان هناك تطور فريد في أوروبة في القرون التي تلت العام 1000، وهو التوسع والتحول البطيء للاقتصادات الأوروبية، وربطت دائرة فاضلة ثلاثة اتجاهات مهمة: تكاثر التجارة الأوروبية، والنمو في الأعداد، والثروة والقوة السياسية لدولٍ مدنٍ جديدة، وذات حكم ذاتي مستقل، وتسارع اختراع تقانات جديدة. وتظهر الاكتشافات العلمية، في هذه القرون، بأنها كانت نتيجة للتقدم الاقتصادي والسياسي أكثر منها سبباً له.

وأول تقانة جديدة أفادت التجارة الأوروبية إفادة جوهرية كانت هي التجديد الذي أدخل السفينة ذات الأشرعة الثلاثة في منتصف القرن الخامس عشر إلى أواخره، فخفض تكاليف النقل تخفيضاً كبيراً، وأدى إلى الازدهار في التجارة، ومع هذا الاستثناء، فطوال قرنين آخرين، أو ثلاثة لم يكن للعلم والتقانة أثر حاسم على الاقتصاد الغربي، وبحلول القرن الخامس عشر كان العلم الأوروبي أكثر تقدماً

بكثير منه في أي مكان آخر، وبحلول القرن السابع عشر كان العلم الأوروبي مهيمناً هيمنة كاملة، ولكن لم يحدث، حتى حلول القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أن تُرجِمت هيمنة الغرب العلمية إلى هيمنة اقتصادية.

وأسهم المجتمع الأوروبي الأكثر غنى وتعقيداً الذي ولدته التجارة والدول المدن في تطور العلم في ثلاث نواح، الأولى: هي أن الفائض الاقتصادي جعل من الممكن تخصيص موارد أكثر للنشاط الفكري والعلمي، فالجامعات والكليات، على سبيل المثال، مولها بشكل متزايد وفي بعض الحالات أسسها التجار الأثرياء، والثانية: هي أن التوسع الاقتصادي والثروة المتزايدة أسهما في روح الاكتشاف والتفاؤل، والثالثة: هي أن القوة السياسية كانت متشظية بشكل متزايد، وهناك سبب رئيس واحد انتصر من أجله العلم وروح الاستكشاف في أوروبة العصور الوسيطة، ولم تنتصر في المجتمعات الإسلامية والصينية في الوقت نفسه، وهو أن أوروبة كانت أكثر لامركزية بكثير.

في العام 1432 قرر إمبراطور صيني جديد أن خطر التلوث الثقافي من الخارج تجاوز منافع التجارة، فأهمل أسطول الصين الضخم من السفن وتحول إلى نفاية، وكان أضخم بمرات عديدة من أي أسطول لأي حضارة أخرى، وتم تفكيك أحواض سفن الصين، بشكل دائم، وفي العام 1551، جعل الإمبراطور الصيني الإبحار نفسه في سفينة متعددة الأشرعة غير قانوني، ولم يحدث مطلقاً، إلا بحلول العام 1851، أن رست سفينة صينية مرة ثانية في ميناء أوروبي، وإن

مركزية الصين السياسية أفقدها سبقها الواضح في التقانة البحرية، وقارن ذلك المشهد القصير مع محاولات كولومبوس التي امتدت طويلاً لتأمين التمويل من أجل رحلته البحرية العابرة للمحيطات من أوروبة في العام 1492 ولقد حصل كولومبوس على الدعم من أجل مغامرته في المحاولة السادسة، ولم يكن قادراً على الإبحار إلا بسبب التشظي السياسي لأوروبة، والذي كان يعني أنه كان يوجد عشرات من رؤساء الدول، وكان كولومبوس يستطيع أن يلجأ إليهم[1]، وكما هو بالنسبة إلى الإسلام، حظرت السلطات حظراً فعالاً المطبعة؛ خوفاً من تدنيس المقدسات، ولم يكن هناك ملاذات سياسية يمكن أن تُحمى فيها الأفكار الجديدة[2].

وتلخيصاً لما سبق، فإن العلم صعد صعوداً كاملاً في أوروبة الغربية بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر، وكان الشرط الضروري للظهور الكامل للعلم هو الإيمان بإله واحد شامل القوة، إله انتظر خلقُه الكامل التفسير العقلاني، والعلمي، وهذا الشرط وفت به المسيحية، ولكن لم تفِ به الأديان الأخرى، ومع ذلك، فقد استغرق المسيحيون أكثر من 1000 عام، حتى بلغوا العلم المختَرع الحديث، وكان التقدم الفكري من حوالي العام 1000، واستعادة المذهب الإنساني

---

(1) وضعت هذه النقطة بصورة قوية في جاريد دياموند في «كيف تصير غنياً»، إيدج 56، 7حزيران/يونيو 1999، وانظر أيضاً دياموند (1997).

(2) انظر:

David Landes (1999) The Wealth and Poverty of Nations: Why Some Are So Rich and Some So Poor, Abucus, London.

الإغـريقي وتعـزيزه، مـحفـزات حـاسـمـة لإقـلاع العلم، وكـان التـجـديد التقانـي مهمـاً أيضـاً، وكذلك كـان أيضـاً الانتعـاش والنمـو الاقتصـاديان في أوروبة بعـد العـام 1000، وهمـا اللذان اعـتـمـدا بشكل فـريد على التوسع، وعلى نفوذ أكثر من 20 دولة مدينـة مهمة حكمها مـواطنون أحرار، ولقد سمح النمو بتأسيس الجامعات وتزويدها بمصدر للدخل، وعـزز، مع الرؤية الجـديدة لكرامـة الإنســان، روح التـفـاؤل الذي سـاد العصور الوسطى العالية وأوروبة بعد عصر النهضة.

واكـتـشـاف أمـريكا والمسـتـوطنات النـاجـحـة هنـاك عـززت النـمـو الاقـتـصـادي، والتـقـدم الفكري، والتـفـاؤل والالتـزام بتـمـجـيـد الله بالاخـتـراق الكامل لألغـاز الكون، ومن القـرن الثـامن عـشـر، قـادت الاختـراقـات في التـقـانة، التي ارتبطت ارتبـاطاً فضفـاضـاً بـالبـصـائر العلمية، إلى نمو اقتصادي غير مسبوق وتلقـائي، ومستند في البداية إلى المحــرك البــخــاري، وبعـدئذ قــادت إلى كل الأنواع الأخــرى من الآلات، ومن القـرن التـاسع عشر إلـى اليوم الحـالي قـادت إلى المبـادئ العلمية الأسـاسية والبـحث، وإلى التنظيم المنهجي للناس العـاملين في الصناعة، ثم إلى تحريرهم لاحقاً[1].

من العام 1750، كسر التاريخ نمطه السابق، فالإنسانية سادت على الطبـيـعـة، وبنت حـضــارة جـديدة، ومنـذ ذلك الوقت حـتى الآن، نمت إنجازات العلم النظرية والعملية، وأعداد السكان ونسبـة السكان الذين انهـمكوا في العــمل المبني على المعـرفـة، ونمـا الاقــتـصــاد، والمدن والحضـارة الحضـرية، والتجـديد التقـانـي، ونمت مستويات المعيشة في

(1) استُكشِفت هذه الموضوعات في الفصل التالي.

كل أنحاء المجتمع، ونمت القوى العسكرية، والبحرية، والقوة النووية مؤخراً، وكلها نمت ونمت ونمت، من دون أن تبدو أي نهاية على مرمى البصر، وكل هذا كان مستنداً إلى العلم والمعرفة، والعلم والمعرفة، بدورهما، كانا مستندين إلى المسيحية، والتفاؤل، والمذهب الإنساني، والحرية، والنمو الاقتصادي، ولقد كان الالتزام الغربي للسيطرة على الطبيعة، والإيمان بأن خلق الله كان عقلانياً، والميل إلى التفسيرات البسيطة الكيّسة هي الأمور التي منحت الطاقة للعلم وللسيادة الإنسانية على العالم.

ولكن هذه ليست هي نهاية القصة، ففي القرن العشرين حدث شيء غريب ومشؤوم للعلم، وهو المحرك المتفوق للثقة وللهيمنة الغربيتين.

ما الذي جنح إلى الخطأ؟

في العام 1900، لم يسبق أن كانت مكانة العلم أعلى مما هي عليه، ولكن العلم، عبر السنوات المئة التي تلت، واجه مجموعتين ضخمتين من التحديات، إحداهما: داخلية ونظرية، ومتعلقة بما اكتشفه العلماء، وبما اكتشفه الفكر، والأخرى: خارجية، ومتعلقة برؤية للعلم من بقية المجتمع أكثر نقداً للعلم بكثير.

وكانت المشكلة النظرية هي أن الكون الذي كشفه نيوتون قد انهار، فقد كشفت التقدمات التي تحققت في الفيزياء ـ في الميكانيك الكمي، وفي النظرية النسبية ـ عن كون محير على ما يبدو، ومستغلق على الأفهام، ويحكمه الغموض، والريبة، والمصادفة.

في المدة بين العامين 1913 - 1912، قام الفيزيائي الدانيماركي العظيم نيلز بوهر (1962 - 1885)، وهو يبني على عمل النيوزيلاندي إرنست روذرفورد (1937 - 1871)، ببناء رؤية جديدة للعالم الصغير، من أصغر أجزاء من المادة، فلقد كان روذرفورد قد طور نموذجاً للذرات، بوصفه صورة مصغرة للأنظمة الشمسية، مع وجود نوى ضئيلة من البروتونات والنيترونات تدور حولها إليكترونات أضأل، وقد حَزَرَ بوهر أن الإليكترونات أشعّت ضوءاً، حين غيرّت مدارها، وأنها غيرت موقعها فوراً، مارة من موقع واحد إلى آخر ليس مجاوراً له، من دون المرور مادياً عبر الفراغ الفاصل بين الموقعين، وبدت الإليكترونات تعمل هذه «القفزات الكمية» عشوائياً بشكل كامل.

وأبان الفيزيائي الألماني فيرنر هايسينبيرغ في العام 1927 أن الريبة غير المتيقنة تثوي في قلب العالم الصغير، وكان من المستحيل أن يُقاس كل من: أين يكون الإليكترون، وكمية تحركه، وأظهر مبدأ هايسينبيرغ، وهو «مبدأ الريبة» أن قياسات الذرات والإليكترونات كانت تقريبية، وربما كانت وهمية، وقال هايسينبيرغ: إن فكرة أن هناك عالماً «حقيقياً» محكوماً بالسبب والنتيجة، كانت فكرة «بلا نفع وبلا معنى».

وفي العام نفسه، أظهر بوهر أن الضوء هو في الوقت نفسه مثل موجة، ومثل جسيم دقيق، وحين راقب العلماء فوتوناً بكاشف الجسيمات، لاحظوا جسيماً دقيقاً، ولكنهم إذا نظروا إلى الفوتون نفسه بكاشف الموجات، رأوا موجة، وقال بوهر: إن الضوء موجة وجسم معاً، وكلا الوصفين يكمل الآخر، وهذا النوع من

التفكير قوّض قروناً من إجراءات عملية علمية قامت على «إما/ أو» فلقد صار العلم غامضاً.

ويقول البروفسور مارتن ريس، الفلكي الملكي لبريطانيا: «الميكانيك الكمي يفوق أي اختراق تصوري آخر في اتساع تشعباته العلمية، وفي الارتباك الذي أحدثته عواقبُه المضادة للحدس السليم على رؤيتنا للطبيعة»، وكان الميكانيك الكمي غريباً وهادماً إلى درجة كدّرت ألبرت إنشتاين الذي سمّاه «أضاليل إنسان ذكي للغاية مصاب بجنون العظمة»، وكتب إنشتاين إلى ماكس بورن في العام 1944، يقول: «أنت تؤمن بالله الذي يلعب النرد، وأنا أؤمن بالقانون الكامل، والنظام في العالم الذي يوجد بشكل موضوعي...» ولكن التجارب ساندت رؤية لاعب النرد للمادة الصغيرة.

وفي الوقت نفسه، فإن نظريات إنشتاين الخاصة عن النسبية هدمت إلى حد أبعد كون نيوتن المنتظم كآلية الساعة، ووفر إنشتاين طريقة جديدة لفهم الفضاء، والكتلة، والطاقة، والنظرية الخاصة للنسبية، التي أرساها إنشتاين في العام 1905، تناقض رؤيتنا الفطرية الحدسية عن الزمان والفضاء، وقد قال: إنهما لم يكونا كميتين ثابتتين أو مطلقتين، فلقد كانا ذاتيّتين: فالمكان الذي يقف فيه المراقب يحدد رؤيته لما حدث ومتى وأين، وفي العام 1916، شرحت نظرية إنشتاين العامة للنسبية الجاذبيةَ بوصفها تغليفاً للفضاء، وللزمان بالكتلة المادية، والفضاء نفسه كان منحنياً، والزمان لم يكن مستقلاً عن الفضاء، وتصرف الزمان بوصفه بعداً رابعاً للفضاء،

والزمان أيضاً يمكن تغليفه بالجاذبية، والأحداث تقع لا في الزمان، بل في «متصلة فضاء ـ زمان». والفضاء والزمان قد لا يكونان حقيقتين من الطبيعة مطلقاً، بل هما بالأحرى آثار نفسية بسيطة، ونظراً إلى أن شكل الفضاء ـ الزمان اعتمد على الجاذبية، فإن الفضاء والزمان لا يصنعان أي معنى إذا لم يمتلك البشر أجساماً، وقال: «كان يعتقد سابقاً أنه لو اختفت كل الأشياء المادية من الكون، فإن الزمان والفضاء سيبقيان، ووفقاً للنظرية النسبية، على كل حال، فإن الزمان والفضاء معاً يختفيان مع الأشياء».

وعلى الرغم من غرابة النسبية والميكانيك الكمي، فقد كان لهما آثار عملية بارزة، ومن ضمنها القنابل النووية، والطاقة النووية، والترانزيستورات، والحواسيب، وعلم الكون الحديث.

كيف فقد الغرب اهتمامه بالعلم؟

حتى العام 1900، أثار تقدم العلم آمالاً في أن البساطة السابقة لرؤى العالم الدينية سوف يحل محلها تفسير علمي أكثر دقة، ولكنه تفسير علمي مساوٍ في البساطة، يجعل من الأسهل، فالأسهل أن نفهم العالم، ولكن منذ ذلك الحين، على ما يبدو، جعل العلمُ فهمَ الحقيقة الواقعة أكثر صعوبة، وكما قال جان ـ فرانسوا ليوتارد: إن العلم الحديث، «لا ينتج المعروف، ولكن غير المعروف»[1]، فليس مدهشاً أن

1. Jean_Francois Lyotard (1984) The Post-Modern Condition: A Report on Knowledge, Manchester University Press, Manchester.

يكون لهذه النسخة من العلم جاذبية أقل، وتخيل أن نيوتن في العام 1687 كان قد اكتشف نظرية النسبية بدل قوانينه عن الحركة والجاذبية، فهل كنا سنمتلك في أي وقت الثقة لنخترع المحرك البخاري، والزراعة الحديثة، والأقمشة الرخيصة، والسكك الحديدية، والكهرباء، والفولاذ، والسيارات والطائرات؟ وهل كنا نستطيع أن نحسن المجتمع بالعمل السياسي والاجتماعي؟ وهل كان السحر والخرافة قد استسلما للعقل؟

إلى المدى الذي يكون فيه ممكناً للشخص العادي أن يفهم انجراف العلم الحديث، فإن الرسالة لم تكن محببة، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، ظهر العلم متوافقاً مع نظام إلهي خير، ومع دورنا الخاص بصفتنا وكلاء مع الله في خلق عالم أفضل، ولكن الرؤية التي عرضتها نظريات داروين في العام 1859 ونظريات علم القرن العشرين ظهرت أقل تقبلاً بكثير لله، وللبشر.

كان من المعتاد أن يعتقد أن العلم سوف يمنح العالم منافع ضخمة، وكان من المعتاد للعلم أن يكون قادراً على الوفاء بهذه التوقعات، وربما تكون الثقة بالعلم قد وصلت إلى أوجها مع الإنزالات على القمر، والعودة السالمة لرواد الفضاء في مركبة أبوللو في العام 1969، ولكن قبل ذلك كان هناك تيار مضاد قوي في التقدير العام للعلم، وهو التيار الذي كان قد بدأ في السنوات التي كانت بين الحربين، مع التصور الواضح على سبيل المثال في كتاب ألدوس هكسلي «عالم جديد شجاع» (1932)، وهو أن العلم كان ينزع عن الإنسان صفاته الإنسانية،

وكان أداة سهلة جداً للمستبدين ومنح الامتيازات للنخبة، وتضاعف الشك في العلم على نحو ضخم وتعمق نتيجة لفظائع هيروشيما، والخوف الحقيقي نفسه، وقد أعطى تبريراً كافياً في أزمة صواريخ كوبا في العام 1962، من أن الترسانات النووية كانت تستطيع أن تدمر الحضارة الإنسانية، وقد عبر العلماء البارزون بصوت عال عن شكوكهم، وقال إنشتاين بعد هيروشيما: «لو كنت أعرف أنهم كانوا سيعملون هذا، لكنت عملت صانع أحذية»، وقام برتراند راسل، الفيلسوف وعالم الرياضيات البريطاني المرموق بقيادة مسيرات احتجاج رفعت شعار: «امنعوا القنبلة» في الخمسينيات من 1950، وفي الستينيات من 1960، وبعد العام 1969، لم يستطع استكشاف الفضاء، الذي تم بصمت أكبر، أن يسترد الخيال العام استرداداً كاملاً أبداً.

ومن الستينيات من 1960 بدأت الدلائل تتراكم وتشير إلى أن انتصارات العلم كانت قد بدأت من قبل في تسميم ماء الكوكب، وهوائه وتربته، وعُرِف أن أثر البيوت الزجاجية، ونضوب طبقة الأوزون وتخريب النظام البيئي للأرض، وتدمير غابة الأمطار الأمازونية، والانتشار المروع، والتوافر المتزايد للأسلحة النووية، والكيماوية والحيوية كلها ثمرات العلم، ويقدر عالم الفلك مارتن ريس أن الإنسانية لا تملك إلا فرصة 50 - 50 للبقاء في القرن الآتي من دون كارثة كبيرة تهدد الحياة نفسها[1].

1. Martin Rees (2004) Our Final Century? Will the Human race survive the Twenty-First Century? Arrow, London.

في أواخر القرن التاسع عشر، وطوال معظم القرن العشرين، انهار الإيمان بالدين، ونما الإيمان بالعلم، وفي أواخر القرن العشرين، وحين ترنح الإيمان بالعلم، انتعش الإيمان بالدين، وبشكل مساو، حين صعد الإيمان بالدين، سقط الإيمان بالعلم أكثر من ذي قبل، وبعد العام 1990، فإن 35 إلى 40 بالمئة من الأمريكيين، ونسبة أصغر من ذلك، ولكنها مهمة أيضاً من الغربيين الآخرين، عرّفوا أنفسهم بأنهم «ولدوا ثانية» مسيحيين، وهم يعتقدون أن الكتاب المقدس هو كلمة الله المعصومة، وأن خلق الكون كان قد وصف وصفاً دقيقاً بالرواية الموجودة في سفر التكوين.

وعقيدة الخلق، ربما تكون غير علمية أكثر منها مناوئة للعلم، وما هو أكثر إثارة للقلق بالنسبة إلى العلم والإيمان بالعقل هو الدلائل على هبوط شعبي غربي، وخصوصاً أمريكي إلى الخرافة، وإلى الذهاب إلى ما وراء الأقلية الأصولية، وقد أظهر استطلاع جرى في العام 1999 أن 77 بالمئة من الأمريكيين كانوا يؤمنون «بالملائكة، أي، بنوع من المخلوقات السماوية التي تزور الأرض»، وأن 73 بالمئة يؤمنون أن الملائكة «تأتي إلى داخل العالم في هذه الأيام الحديثة»، وتظهر الاستطلاعات أيضاً أن ربع الأمريكيين يؤمنون بالتنبؤات الفلكية (وأن 22 بالمئة آخرين ليسوا متأكدين)، وأن النصف تقريباً يؤمنون أن الشياطين يمكن أن تتلبس الناس، وأن 57 بالمئة يؤمنون بالتخاطر، أو بالأشكال الأخرى من الإدراك فوق الحسي، وأن 60 بالمئة يؤمنون بوجود الشيطان، وقال استطلاع أجرته مجلة نيوزويك في العام 1996:

إن 48 بالمئة من الأمريكيين صدقوا بالأجسام الغريبة غير المحددة، وأن 27 بالمئة آمنوا بأن غرباء زاروا الأرض، وفي العام 1997، روت سي إن إن بتقاريرها أن 50 بالمئة من الأمريكيين آمنوا بأن الغرباء قد خطفوا بشراً، وأن 64 بالمئة آمنوا بأن الغرباء قد زاروا الأرض، وأن 80 بالمئة ظنوا أن حكومتهم كانت تخفي المعلومات عن وجود الغرباء.

وتشير الاستطلاعات إلى انتعاشٍ في الاعتقاد بالسحر لم يكن له سابقة منذ القرون الوسطى، ومن العسير أن نعرف إلى أي مدى من الجدية يمكن أن نأخذ ما يقوله الناس إلى مستطلعي الرأي، فمن المؤكد، أن المجيبين الذين يدعون الولاء لرؤية العالم السابقة للرؤية العلمية، أو الولاء للسحر الخفي يتصلون اتصالاً ثابتاً بالإنترنت من خلال وسائل علمية، ويفضلون الخطوط الجوية على عصي المكانس، وإن المعتقدات الغريبة لا تستبعد السلوك العقلاني.

ولكن الواضح، على كل حال، هو النمو في نصف القرن الأخير في معاداة التفكيرية، ومع التأثر بالتلفاز، وبالعقائد الدارجة للنسبية ـ أي أن رأياً واحداً معيناً هو على الجودة نفسها مع رأي آخر ـ فإننا نشهد رفعاً للعاطفة فوق العقل، و«للعلاقة» الشخصية والقناعة فوق التفكير الجاد.

هل يهم فقدان الإيمان بالعلم؟

يبدو العلم منيعاً على الهجمات التي توجه ضده، ويجري تشكيل العالم بالعلم، إلى درجة أعظم من أي وقت مضى، وسواء كان ذلك من خلال المزيد من السلاح المتقدم، أكثر من أي وقت، أو تطوير تقانات

جديدة، مثل الهواتف الجوالة (الهاتف الخليوي)، أو الحاسوب الشخصي وشبكة المعلومات العالمية (الإنترنيت)، أو توسع علاجات جديدة وإجراءات طبية جديدة، أو انتشار البحث والتعليم، فإن العلم يتقدم بثبات، ويخترق كل ركن من أركان الكوكب، ومن أركان حياتنا اليومية، وإن التقدم العلمي لا يمكن إيقافه، إنه ثابت ومتراكم، وليس هناك بديل للعلم الغربي، وليس هناك طريقة أخرى لمزج الملاحظة مع النظرية، ولتسخير العالم للأغراض الإنسانية، ولجعل الأشياء، تعمل على نحو أفضل، إذ ليس هناك علم «بديل»، ولا علم بوذي، ولا علم لعصر جديد، ولا علم نسبي، ولا علم أصولي، والغرب يحتفظ بهيمنته العلمية، وفي التسعينيات من 1990، نالت الولايات المتحدة 44 جائزة نوبل، ونالت ألمانيا خمس جوائز، ونالت فرنسا ثلاثاً، ونالت اليابان جائزة واحدة فقط، على الرغم من صرفها نصف مستوى الولايات المتحدة بشكل كامل على التمويل العلمي[1].

إن العلم هو الذي يحدد ثروة الأمم وقوتها وثروة الأفراد وقوتهم، وبالمقارنة بالعلم، فإن تأثير الطبقات الاجتماعية، والجماعات المهنية، والزعماء السياسيين، والأحزاب السياسية، والحركات الاجتماعية، أو

(1) التفسيرات التي تقدم بشأن الإنجازات القليلة للعلم الشرقي تركز عموماً على ثلاثة عوامل: الميل إلى دعم علماء متوسطين أكبر سناً بدل دعم الشباب اللامعين، وغياب الحوار والمواجهة، وربما، وهو أكثرها أهمية، الأنماط الشرقية للفكر، وهي التي تحترم التعقيد، وتتردد في صياغة فرضيات بسيطة من السبب والنتيجة، وكما يقول ريتشارد نيسبيت، «في العلم... أنت تقترب أكثر من الحقيقة بسرعة أكبر عن طريق التعامل بقسوة مع التعقيد».

أي محرك آخر للتاريخ، أمور تتلاشى كلها إلى الخلفية، وإن انتشار نظامنا الاقتصادي الجديد بعد الرأسمالية فقط، وهو انتشار مساو في قسوته لانتشار العلم ـ وهو الملخص في الفصل الآتي ـ هو الذي يشكل قوة موازية، ومكملة ذات أهمية قابلة للمقارنة في تقرير مستقبل العالم، والنظام الاقتصادي الجديد مشتق بشكل جوهري من العلم نفسه.

ولذلك، فقد يظهر أن العلم يستطيع أن يتجاهل مكانته العامة الشعبية المنخفضة، فالأرصدة لتمويل العلم مستمرة بالمجيء، مثلما يستمر التزويد الجاهز بالعلماء المتعلمين تعليماً إلى درجة عالية، ولكن توقَّفْ، فكّرْ في الأسباب الفكرية للعلم الحديث: الإيمان بالله، والإيمان بالإنسانية، ورؤية عقلانية للعالم، وتفاؤل عن مكان الإنسانية في الكون، ويبدو أن العلم قد تخلص من الإيمان في أسباب العلم، وقد دمر العلم بالتدريج أسس فكره، فإذا كان هذا صحيحاً وغير قابل للرجعة فيه، فما الذي بقي؟ «فقط» التقانة، البحث عن الربح والفضول الفكري للإنسانية الذي لا يمحى، ولقد وضعنا «فقط» بين علامتي اقتباس؛ لأن التقانة، والأعمال والخيال محركات دافعة ومقدِّرات رائعة، وسوف يستمر العلم بالازدهار، ولكن مشاركة العلم في المعنى الإنساني، والروح الإنسانية، والثراء غير المادي للحضارة قد ذوت، والمعرفة نفسها، بدلاً من استثارة الغربيين وتوحيدهم على وجه العموم، هي في خطر من أن تصير ذوقاً للأقلية، محصورة في داخل الجامعات، ومعاهد البحوث والمؤسسات، وتقف حاجزاً ضد السلالة الجديدة من البرابرة، أولئك الذين صاروا من قبل في داخل بوابات

المدينة، يعرضون بلا خجل جهلهم، ويتمرغون في نعمة الحمَّام الدافئ للبلاهة العاطفية، وبعض البرابرة الجدد «عُلِّموا» في جامعاتنا، وهم فصحاء، أذكياء ومتهكِّمون في ترويج القيم المناوئة للفكر، إنهم يقودون الناس الذين هم أقل موهبة، لا نحو المعرفة والحضارة، بل نحو عكسهما.

طبعاً، نحن نبالغ، فمازال هناك علماء مثاليون، ومازال هناك مواطنون متعلمون ومحبون للمعرفة، ومازال العلم يحتفظ ببعض السلطة الأخلاقية، ولكن المثل الأعلى من المجتمع المستند إلى العقل والمعرفة يتراجع.

ثلاثة طرق إلى الأمام

أولاً: دعونا نكن واضحين في أن المعنى لم يُدَّمر بالعلم، فالعلم يعمل على مستوى فني، بعيداً عن الأحكام الأخلاقية والدينية، والعلم ليس معارضاً للدين، ولو في الأزمنة الحديثة، فأكثرية من العلماء الأمريكيين يصفون أنفسهم بأنهم متدينون[1] وإن العلم يُستكمل

(1) في آخر مسح تفصيلي متوافر، وعلى نطاق واسع، وهو الذي أجرته هيئة كارنجي للعام 1969، المستند إلى عينة من 60.028 أكاديمي أمريكي، وصف55 بالمائة من العلماء في علوم الفيزياء والحياة أنفسهم بأنهم متدينون، كما وصف 60 بالمائة من علماء الرياضيات وعلماء الإحصاء أنفسهم بذلك، و27 بالمائة فقط من هؤلاء الأخيرين، و27 بالمائة من العلماء الفيزيائيين، و29 بالمائة من علماء الحياة قالوا: إنهم لا دين لهم، ومن المثير للاهتمام أن نسبة علماء العلوم الاجتماعية الذين كانوا متدينين كانت نسبة أخفض على نحو مهم، عند 45 بالمائة، مع علماء النفس (33 بالمائة) وعلماء الأناسة (29 بالمائة) وهم الأقل تديناً، ونحن نشك أن المعارضة بين الدين والعلم قد جرى المبالغة فيها من طرف علماء العلوم الاجتماعية الذين ربما كانوا يستنتجون استنتاجاً لا شعورياً من آرائهم الخاصة وآراء زملائهم.

بأشكال أخرى من المعرفة، بالفلسفة أو بالدين، وهي الأشكال التي تعالج البحث الإنساني عن المعنى.

ثانياً: إن الرؤية العلمية الجديدة ـ صورة لكون المصادفة العشوائية الاعتباطية ـ قد تكون كذلك تبسيطاً خطراً، غير دقيق، وغير ضروري، وإن العالم الصغير يتصرف بطريقة غامضة، ومع ذلك فالعلماء لم يتخلوا عن الطريقة العلمية، ولسبب وجيه، فالغالبية الكبيرة من العلم عرضة للعقل، وللتجريب، وللتحقيق والتكذيب، ونحن لا نستطيع حتى الآن أن نفهم الأشكال الصغيرة من المادة بتعابير عقلية كاملة، ولكن هذا لا يعني ضمناً كوناً غير عقلاني.

العلماء ميالون إلى تخفيض تعقيد مكتشفاتهم؛ لتكون (وحدات ـ فكر) وهي متأثرة لا شعورياً بآخر أفكار المجتمع المتعارف عليها حسب الزي المتبع أكثر من تأثرها من الحقيقة المتأصلة من بحثهم، ودارون مثال ممتاز، فداروين نفسه، وهربرت سبنسر الذي كان دراون قد أعجب به إعجاباً عظيماً وامتدحه، اعتقدا أن استبصار داروين في أصل الأنواع دل ضمناً بشكل طبعيّ على تفوق الأعراق الأوروبية على كل الأعراق الأخرى، وكما يعترف كل شخص الآن، فقد كان ذلك هذراً ساماً، وليس هناك شيء في كتاب في أصل الأنواع يبرر، ولا يحاول أن يبرر «المضامين» العنصرية التي استُمدت تقريباً بشكل شامل على أيدي جيل لاحق من علماء علم الحياة، ولا يوجد الآن داروِني واحد يؤمن بها، ومع ذلك، فإن داروين كان عالماً لامعاً، محتشماً، وصادقاً،

ورجلاً لطيفاً! إن نظريته رجّعت الصدى مع رأي تشكل من قبل عن التفوق العرقي الأوروبي، فأعطته زخماً متجدداً مميتاً.

هل سيبقى العلماء في غضون 50 عاماً أو 100 عام ـ إذا وجد أحد ـ معجبين بالفيزياء الكمية، ولكنهم يهزون أيديهم بتعجب من الفكرة التي أثبتت أن الكون كان غير عقلاني؟

ثالثاً: وإن حدث، أن الاكتشافات العلمية الحالية والمستقبلية – وهو أمر غير مثبت بالبرهان، ونحن نعتقد أنه غير مرجح ـ أدت فعلاً بشكل نهائي إلى أشد الاستنتاجات تشاؤماً عن الحياة والكون، وإلى تفسير يفيد بأنه لا يوجد معنى فيهما، وإلى أن الحضارة مجرد مصادفة، أو مجرد وهم كذلك، فهل هذا يعني آنئذ أنه لا أمل هناك؟

نحن لا نعتقد ذلك، وما يمكن أن ندعوه «الفرضية المتوحدة» ـ إنه لا يوجد إله عقلاني خيّر، وربما لا يوجد إله مطلقاً، وإن الإنسانية هي بقعة غير ذات أهمية على طرف كون شاسع، لا معنى له، محكوم عليه أن يعود عاجلاً أو آجلاً إلى اللاشيء الذي جئنا منه ـ فهي فرضية تملك روعتها، وإلهامها، وتبريرها لذاتها، فإذا لم يكن هناك معنى في الكون، فكم هو مجيد من الإنسانية أن تكون قد خلقت مثل هذا الكثير من مثل هذا القليل! إن إنجازات حضارتنا الخاصة كافية لتبرير الكون، كافية ولو سُمِع التبرير بصمت مطبق أو باللامبالاة من أي قوة غير إنسانية، أو من أي قوى قد تكون موجودة، أو لا تكون، وإن وجود الفكر الإنساني وإنجازاته، وإبداعه، وحبه، كافية تماماً لتوفير معنى في الكون إذا لم يوفر المعنى في الكون أي شيء آخر.

خاتمة

لقد استخلصنا أربعة استنتاجات، **الأول**: هو أن العلم في شكله المتطور الكامل ظاهرة غربية، **والثاني**: هو أنه في جذر العلم يثوي المنبه لفكرتين اثنتين أخريين عظيمتين غربيتين ـ هما الإيمان المسيحي بخالق كامل وقوي وعقلاني، والتفاؤل بشأن طبيعة الإنسانية، **والثالث**: هو أن العلم قد عانى بسبب علم القرن العشرين، والأكثر أهمية هو أن خيالات جديدة حسب الزى الحديث، قوضت الإيمان بهاتين الفكرتين العظيمتين كلتيهما على وجه الدقة، **والرابع**: هو أنه لا يوجد إلا تبرير ضئيل جداً إلى درجة بعيدة؛ لنقوم بالتخلي عن ثقتنا في العقلانية، وفي العلم، وذلك لأن أفضل أشكال الحضارة تعتمد عليهما اعتماداً مطلقاً.



الفصل الخامس

النمو

منذ ما يقارب 200 سنة، وعلى نحو مفاجئ نوعاً ما بالتعابير التاريخية، صار النمو الاقتصادي في الغرب نمواً لا يمكن إيقافه، ولقد كان تاريخ الإنسانية، حتى تلك النقطة تاريخ النمو المتواضع، أو النمو المتلاشي إلى حد الصفر. وهبطت مستويات السكان والمعيشة بفعل الطبيعة، وفوق كل شيء آخر بفعل الجوع والمرض، وبين العام 1750والعام 1820، دخلت إنجلترا عصر الآلة، والآلات جلبت النمو الآلي، وهي ظاهرة جديدة، ومع المحرك البخاري والصناعة انتشر النمو انتشاراً سريعاً في كل أنحاء الغرب، وفي غضون قرن، أدى النمو الاقتصادي إلى منح الهيمنة العالمية للغرب.

إن وصول النمو الذي يتمدد ذاتياً هو أهم تغيير في التاريخ الإنساني، وإن يكن هذا أمراً قابلاً للنقاش، وقد أعطى هذا النمو الإنسانيةَ نجاحاً حيوياً (بيولوجياً)، قادراً على أن يعيش طويلاً، وأن يعيش حيوات آمنة وضاعف الأرقام ومستويات المعيشة مضاعفة هائلة، وأدى النمو الصناعي أيضاً إلى قلب المجتمع، وقسمه إلى طبقات جديدة، وركزه في المدن، وخلق تراتبيات هرمية واسعة، ودنس الريف، واغتصب الكوكب، واستنزف روح الإنسانية، وساعد على أن يقود إلى تركيز للقوة غير مسبوق، وأدى التصنيع أيضا إلى التجريب

بمنهجين اقتصاديين جديدين، والتنازع بينهما: الرأسمالية، ومذهب مركزية الدولية (بسيطرة من الدولة الشيوعية، أو النازية).

وكما نعرف، فقد ربحت الرأسمالية ـ ولكن ذلك كان بشق النفس ـ وبعد اضطرابات مدمرة على نحو ضخم، وبرهنت، في النهاية، على أنها نظام اقتصادي أفضل بكثير، ولكنها ظهرت طوال 100 سنة، للأغلبية الكبيرة من المفكرين، وللنصف الأدنى من السكان، على أنها غير جذابة بشكل عميق، وكل هذا، أيضاً، كان تراث النمو التلقائي، وفي العام 1900 كان الغرب منتصراً وبدا متحداً في حضارته، وفي العام 1914، مزّقت القومية السلام، ومن العام 1917إلى العام 1989، حاولت الشيوعية الروسية أن تبني عالماً جديداً، جاء نموذجه من الغرب، ولكنه كان معادياً لكل العالم الغربي عداء لدوداً.

واليوم، يتحرك النمو الاقتصادي، وقد تم تدجين الرأسمالية، وهي مقبولة قبولاً واسعاً، وامتدت إلى ما وراء الغرب امتداداً جيداً، ولكن شيئاً جديداً يحدث الآن، ففي الغرب، يقوم نظام اقتصادي أكثر تفوقاً باقتلاع الرأسمالية والحلول محلها بالتدريج، والنظام الجديد ـ الذي نسميه «اقتصاداً مشخصناً» ـ يوفر نمواً قابلاً للاستدامة مساوياً للرأسمالية أو أكبر منها، باستخدام رأسمال أقل بكثير، وبنهب أقل لكوكب الأرض، وباغتراب إنساني أقل، ولكن الاقتصاد المشخصن يعاني من معوِّق واحد كبير، أو من اثنين، إذا أنت عددت حقيقة أن هذا الاقتصاد سيكون صعباً جداً للبلدان غير الغربية أن تتبناه.

كيف اكتسب الغرب النمو التلقائي؟

في العام 1750، لم يكن الغرب أكبر ازدهاراً بكثير من البقية، وقبل العام 1400، كانت الصين قد اقتربت إلى مسافة ضئيلة، مثل عرض الشعرة، من التصنيع، وعلى الرغم من أن التصنيع قد أجهض بتغيير النظام، وباقتصاد انطوى على نفسه، فإن الصين بين العام 1500 والعام 1820 كانت هي التي تقرر بشكل ثابت ما بين ثلث وخمس ناتج العالم الإجمالي، وقبل العام 1750، كانت أكثر البلدان الأوروبية تقدماً قد ملكت دخلاً لكل فرد يراوح بين ضعف ونصف أو ضعفين من دخل الصين، مقارنة بتقدم أمريكا الحالي على الصين بنسبة تزيد عن تسعة أضعاف(1).

ومع انغراس النمو التلقائي بالتصنيع، بدأ الغرب يحصل على الميزات ويتقدم، وحتى حلول العام 1820، فإن البلدان الغربية احتلت المواقع العليا الخمسة عشر من أصل 24 بلداً نمتلك لها تقديرات للدخل لكل فرد، وتبعتها المكسيك، وفنلندا، وروسيا، ثم جاءت بعد ذلك

---

(1) إذا قسنا الدخل الفردي بناحية القوة الشرائية، وهو مقياس أعدل، فإن الصين حالياً تملك دخلاً فردياً يبلغ أكثر من 3.500 دولار بقليل، مقارنة مع الولايات المتحدة التي تصل إلى أكثر من 32.000 دولار بقليل، وإذا قسناه حسب معدلات تبادل السوق الفعلية، فستكون الأرقام هي 856 دولاراً و36.154 دولاراً على التوالي، وهو تفوق للولايات المتحدة يساوي 42 ضعفاً. انظر:

Roger Bootle (2005) Money for Nothing: Real Wealth, Financial Fantasies, and the Economy of the Future, Nicholas Brealey, London, pp.146-7.

خمسة بلدان غير غربية، وكان دخل الصين لكل فرد 30 بالمئة فقط من مستوى المملكة المتحدة (الأرقام معدلة؛ لتخرج منها أثر التضخم، وتم التعبير عنها بقيم حديثة، أو لتكون أكثر دقة، بمعدلات دولار العام 1990، انظر الجدول 5 ـ 1)[1].

الجدول 5 - 1: الدخل لكل فرد في العام 1820 (معادل الدولار)

المملكة المتحدة	1.756	النرويج	1.004
الأراضي الواطئة	1.561	إيرلندا	954
أستراليا	1.528	كندا	893
النمسا	1.295	تشيكوسلوفاكيا	849
بلجيكا	1.291	المكسيك	760
الولايات المتحدة الأمريكية	1.287	فنلندا	759
الدينمارك	1.225	روسيا	751
فرنسا	1.218	اليابان	704
السويد	1.198	البرازيل	670
ألمانيا	1.112	أندونيسيا	614
إيطاليا	1.092	الهند	531
إسبانيا	1.063	الصين	523

(1) John Kay (2003) The Truth About Markets, Penguin, London.
نقتبس من أحدث دراسة متوافرة (ثم القيام بها في العام 1992، وتشمل المدة 1820 - 1990).

ولم يكن الأمر بأكمله مصادفة، إذ إن النمو التلقائي ظهر أولاً في الغرب، ومن حوالي العام 900 ارتفعت الإنتاجية الزراعية ارتفاعاً حاداً بعد اختراع الرِّكاب، والمحراث بجرافة، وطوق الحصان، وبالتدريج ازدهرت المدنُ الدولُ الأوروبية، وصارت محكومة بالحكم الذاتي المستقل بشكل متزايد، حين شكل الحرفيون الأحرار، والتجار والمواطنون الآخرون للمدن طبقة متوسطة متنامية من المجتمع، لا هي لوردات، ولا هي فلاحين، وعلى طول القرون اللاحقة، صار المخترعون الأوروبيون يتكاثرون بشكل مذهل، وتُظهِر عينة صغيرة من الاختراعات المدى والتأثير: فرن الصهر، وسد قناة الماء، والمدخنة، ونار الفحم، ونافذة الزجاج، واللوحة البحرية، ودولاب الماء، والمطبعة، والنظارات، ومضخة المص، ونول بالدواسة، وكير يدار بالماء، وساعة يديرها وزن، وطاحونة هواء، وأول براءة اختراع سبق أن منحت ـ وكانت قد أعطيت من أجل زورق قناة مزود بالروافع ـ في فلورنسا في العام 1421.

هناك ارتباط واضح بين الإبداع الفردي، وبين درجة الحرية السياسية، وارتباط بين التجارة والتقانة من جهة، وبين زيادة الحكم الذاتي المستقل للحرفيين، والتجار في المدن الدول الخاصة بهم، من جهة أخرى يكتب مؤرخ اقتصادي، يقول:

> في جذر التقدم التقاني يوجد... بيئة تجعل من الممكن للمخترعين أن يُسمَعوا... [موحياً] أن التعبير الحر والانفتاح للإقناع يقود إلى الثراء، وحين توقف الأوروبيون، أو حين توقف بعضهم على الأقل، عن تعذيب بعضهم بعضاً، وقطع رؤوس

بعضهم بعضاً، وحرق بعضهم بعضاً، نما الاقتصاد، فلا عجب أن الأمم التي كان فيها التعبير حراً بحسب المعايير المعاصرة كانت هي الأمم الأولى التي صارت بنموها ثرية: هولندا، وسكوتلاندا، وإنجلترا، وبلجيكا، والولايات المتحدة[1].

خرج المثل الأعلى الأرستقراطي الخاص بالمجد العسكري والنهب المتعطش للدم، ودخل المثل الأعلى التاجر الخاص «بالتجارة اللطيفة» ـ الذي يستطيع فيه العمل الجاد أن يأخذ حرفياً إلى الرفاهية المتواضعة، وتستطيع الأراضي المختلفة أن تتاجر بسلام، ولقد قال فولتير في القرن الثامن عشر: إن التجارة سهلت الحرية ووحدت البشرية: «... اليهودي، والمحمدي، والمسيحي، يتعاملون معاً، وكأنهم جميعاً آمنوا بالدين نفسه... ومثلما أغنت التجارة المواطنين في إنجلترا، فهي قد أسهمت بالشكل نفسه في حريتهم، وهذه الحرية على الجانب الآخر وسعت تجارتهم»[2].

كانت هذه إيديولوجية حضرية، فلقد نمت مع المدن، وفي العام 1500 كان هناك خمس مدن أوروبية فقط يصل سكانها إلى 100.000 نسمة، وبحلول العام 1600 كان هناك 14 مدينة[3]، ونمت إنجلترا أسرع

1. I. Kirtzner (1989) Discovery, Capitalism and Distributive Justice, Blackwell, Oxford.

2. Voltaire (1994) Letters Concerning the English Nation, Oxford University Press, New York, p.30.

(3) أمستردام، وأنتورب، والقسطنطينية، ولشبونة، ومرسيليا، ومسينا، وميلان، وموسكو، ونابولي، وباليرمو، وباريس، وروما، وأشبيلية، والبندقية، ونصفها كان موانئ مهمة، وكلها مراكز تجارية.

من الجميع، فمن إعاشة سكان من 4.1 من الملايين في العام 1600، رفعت التحسينات الحادة في الإنتاجية الزراعية، والمثيرات الأولى للصناعة في الورشة، رفعت عدد السكان إلى 5.7 من الملايين بحلول العام 1750، ثم جاء الإقلاع في العام 1771، إذ فتح ريتشارد آركرايت، وهو حلاق وصانع الشعر المستعار الذي تحول إلى مخترع، وفتح أول معمل غزل على نطاق واسع في العالم على ضفاف نهر ديروينت، بارتفاع خمسة طوابق، وكل منها بمساحة 3.000 قدم مربع، ومزودة بطاقة دولاب الماء واستخدام إطار الماء الخاص الذي امتلك براءة اختراعه آركرايت نفسه من أجل غزل القطن، وفي العام 1776، صنع جيمس واط، «الميكانيكي» الأسكتلندي من الطبقة الوسطى، أول محرك بخاري قابل للحياة تجارياً. وبحلول العام 1787 تفاخرت بريطانيا بوجود 145 معمل غزل قطن، فولد نظام المصنع.

وبدأت الآلات حياة خاصة بها، إذ في السابق كان الناتج مقيداً بقوة الحصان وبالجهد الجسدي الإنساني، أما الآن فتستطيع الآلات أن ترفع مستويات الإنتاج ونوعيته باستمرار في الوقت الذي تخفض فيه باطراد تكلفة المنتج، والعدد نفسه من الناس، المعززين بالآلات وبالمال، كانوا يستطيعون عمل المزيد والمزيد، وقد خلق توسع الثروة أسواقاً جديدة وتوظيفاً جديداً، وعلى الرغم من أن الظروف كانت قاسية، فإن السكان الإنجليز تضاعفوا ثلاثة أضعاف بين العامين 1750 و1850، ووصلوا إلى 16.5 من الملايين، وهو انفجار سكاني لم يُر من قبل أبداً من دون هجرة جماعية.

وكانت المعجزة الحقيقة هي أن النمو صار ذاتي الدفع، إذ كان التقدم الاقتصادي محدوداً بحجم الأسواق المتاحة فقط، والتي استمرت بالنمو في الوقت الذي زادت فيه الرفاهية، فإذا كان هناك طلب، فإن الصناعة كانت تستطيع أن تعرض تزويده، وباستخدام التقانة ورأس المال، تستطيع الصناعة أن تصنع بشكل ثابت مستمر سلعاً أفضل وأرخص، وكما لاحظ كارل ماركس، فإن نظام الآلة كان يعني ضمناً الثورة الدائمة: «إن الصناعة الحديثة لا تنظر أبداً إلى... الشكل الموجود من العملية بوصفه نهائياً، ولذلك فإن الأساس الفني لتلك الصناعة أساس ثوري، في الوقت الذي كانت فيه كل الأنماط السابقة للإنتاج محافظة بشكل أساسي»(1)، والنتيجة هي نمو في الناتج لكل رجل ـ ساعة بحوالي 3 بالمئة في كل عام، وهي التي تم إنجازها تقريباً في كل بلد مصنع من العالم، وفي كل التاريخ الصناعي، وتبدو ثلاثة بالمئة نسبة متواضعة، ولكنها تضاعف مستويات المعيشة في كل 23 سنة(2).

آلام النمو

طوال 900 سنة سبقت عصر الآلة، صار المجتمع الغربي بشكل ثابت أكثر تمتعاً بالحكم الذاتي المستقل، وصار حراً بشكل متزايد،

1. Karl Marx (1995) Capital, edited by David McLellan, Oxford University Press, Oxford, volume 1, Chapter 15, Section 9, pp.291-2.

(2) بعض الكسب ينعكس في ساعات عمل أقصر، وبذلك يمكن للدخل ألا يرتفع بثلاثة بالمائة في العام، ولكن عبر المسافة الطويلة، فإن المكاسب الحقيقية في الساعة ترتفع فعلاً، بشكل موثوق، بمعدل 3 بالمائة في السنة.

وصنعت أوروبة، وبعد ذلك أمريكا، التقدم من خلال التوسع في رفع الطبقات المتوسطة الحضرية وطاقاتها، ورفع صحة المجتمع وتقديم الحرية الشخصية والسياسية كذلك، وهذا المنحنى الصاعد طوال 900 سنة نحو المزيد من الحكم الذاتي المستقل الكبير سُحِق سحقاً فظاً بفعل الرأسمالية الصناعية، فتكاثرت الثروة والنمو كما لم يحدث من قبل أبداً، ولكن الحكم الذاتي المستقل كُبِح.

ففي حين كان يستطيع عامل زراعي مستقل أو حرفي مستقل أن يمتلك أدواته الخاصة به، لم يكن أي عامل فرد يستطيع أن يمتلك أو يشغل محركاً بخارياً، وصار العامل مقزَّماً نتيجة للصناعة، وكما قال ماركس: «لم يبق العامل بعد الآن هو الذي يستخدم وسائل الإنتاج، ولكن وسائل الإنتاج هي التي تستخدم العامل...»[1]. وهكذا فرأس المال يستعمل العامل، والعامل لا يستعمل رأس المال[2] والأفراد المبدعون من أمثال آركرايت وواط اخترعوا تقانة الصناعة، ولكن الاقتصاد المستند إلى الآلات نما نمواً متزايداً مركزياً ومتعطشاً إلى رأس المال، وبشكل أكبر، فأكبر من السابق، إذ تجاوز تقسيم العمل الاجتهاد والإبداع الفرديين.

صار المشروع غير مشخصن، ففي حين كان يستطيع رجل أعمال واحد، أو عائلة واحدة، أو مجموعة واحدة من الأفراد أن يمتلكوا مزرعة، أو أسطولاً من السفن، أو معمل نسيج، تجاوزت حاجات

(1) كارل ماركس (1995)، المجلد 1، الباب 11، ص. 187.

(2) كارل ماركس، «نتائج العملية المباشرة للإنتاج»، في رأس المال، ص. 394.

السكك الحديدية من رأس المال، وحاجات معامل الفولاذ، وحاجات المجموعة الكاملة للإنتاج الصناعي الكبير، والتي تطورت منذ منتصف القرن التاسع عشر، تجاوزت بسرعة المال النقدي الحاضر وتجاوزت المهارةَ الإدارية لمعظم العائلات، واستمر الحد الأدنى من مستوى رأس المال اللازم للتنافس تنافساً فعالاً بالارتفاع، ولم يبد هناك أي حد أعلى للمعدل الفعال.

واستمر آندرو كارنيجي بمضاعفة حجم معامل الفولاذ، واستمر بتركيز المزيد من الإنتاج في مؤسسة مفردة، واستمرت تكلفة الإنتاج بالهبوط تلو الهبوط، وخَلَق تطبيق الإنتاج الكبير على السيارات صناعة جديدة كثيفة الحاجة إلى رأس المال، وهي الصناعة التي غيرت وجه أمريكا، وركزت حصة السوق إلى حد فوق المعتاد، ففي حين كان 500 من صانعي السيارات في التسعينيات من 1890 يكافحون من أجل أجزاء من السوق الأمريكي الضئيل، كانت ثلاث شركات مع حلول العام 1967 قد سيطرت على 94 بالمئة من سوق أكبر بشكل ضخم.

وطوال الوقت، نما عدد العمال، ورأس المال، المستخدمان في المؤسسات، والتراتبيات الهرمية المفصلة للمؤسسات، وسيطرتها المركزية على الإستراتيجية، ورأسمال المؤسسات، واستمرت كلها تنمو وتنمو، في الوقت الذي كانت فيه أهمية العامل الفرد تنكمش وتنكمش، ولم يكن العمال يستطيعون أن يمارسوا بعض القوة الموازنة إلا بالتنظيم في اتحادات أضخم فأضخم، ولكن هذا كان يعني محاربة المركزية بالمركزية، وزادت أرباح العمال، وتقلص استقلالهم الذاتي.

والعداوة الهائلة للرأسمالية من منتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف القرن العشرين يجب أن تُرى على هذه الخلفية، فالشيوعية، والفاشية، والنازية كانت خطرة؛ لأنها اتصلت بنزعة غنية من الأفكار المناوئة للتحضير، والمناوئة للتصنيع، والمناوئة للمادية، والمناوئة للرأسمالية، والمناوئة للسامية، وهي على الرغم من اللاعقلانية فيها، وعلى الرغم من البغضاء القاتلة فيها غالباً، كانت تقوم على أكثر من مجرد قدر صغير من الحقيقة، وهو أن الرأسمالية كانت من الناحية الروحية موهِنة للروح الإنسانية ، ومدمرة لها، وإن هذه الحقيقة هي التي مازالت تغذي الحركات المناوئة للنمو والمناوئة للرأسمالية، وهي الحقيقة التي بسطها في الأصل الرومانسيون الأوروبيون في مطالع القرن التاسع عشر، وهم الذين كرهوا النواحي القبيحة، المشوهة للمجتمع في بداية التصنيع[1].

واليوم، يتولى أشد القائمين بالحملات المناوئة للنمو إقناعاً ربط مناوأة المادية بالقيم الخضراء، فهم يحاورون بشكل مقنع أن زيادة الازدهار، وراء مستوى معين من الدخل، لا تولد زيادة في السعادة... ولذلك فما المغزى من النمو الإضافي، من النمو الذي لا يمكن

(1) طبعاً، امتلكت الشيوعية عملياً كل النقائص الصناعية نفسها مثل الرأسمالية، ولكنها كانت أكثر من الرأسمالية في ذلك، و«رأسمالية الدولة»، كما سمى تروتسكي النظام السوفيتي بحق ، كان أقل فردية وأكثر تغريباً للفرد، وطلبت من العمال إنكارًا للذات أكثر من الرأسمالية؛ كي تراكم رأس المال تراكماً أسرع، وقد استغرق بناء رأس المال في الاتحاد السوفيتي نصف الدخل القومي تقريباً، في حين أن ذلك لم يتجاوز ربعه في الغرب.

استدامته، في نهاية المطاف، ولاسيما إذا أخذنا بالحسبان الحدود المتناهية لمصادر كوكبنا والتوسع الهائل في أعداد البشر وتوقعاتهم؟ وكما لاحظ ميلتون وروس فريدمان، فإن: جميع حركات العقدين الماضيين من الزمن، وهي حركة المستهلك، وحركة البيئة، وحركة العودة إلى الأرض، وحركة حماية البريَّة، وحركة النمو الصِّفْرِي للسكان، وحركة «الصغير هو الجميل» والحركة المناوئة للذرة هي حركات كانت تملك شيئاً واحداً مشتركاً، إذ كلها كانت حركات مناوئة للنمو[1]، وهذا النقد «الأخضر» يجد له أصداء فكرية وشعبية، ومع ذلك فإن جمهور الناخبين مازال يطلب النمو.

والنتيجة هي فصام شخصية جماعي، فنحن نعرف أن النمو غير قابل للاستدامة، ومع ذلك لا نستطيع أن نتخلص من هذه العادة، فهل هناك مدخل آخر، منسجم انسجاماً كاملاً مع القيم والحاجات الغربية، للنمو بطرق تقلل إلى الحد الأدنى من استخدام الموارد المتناهية؟

قد يكون هناك حل، بالنسبة إلى الغرب على الأقل، وسوف نأتي له بعد قليل، وعلى كل حال، قد يكون من المرغوب فيه أن نتوقف، ونتأمّل أنه في الوقت الذي قد يكون فيه إهمال الروحانية الإنسانية رهيباً وهازماً لأغراضه، فقد يكون هناك أيضاً الكثير الذي ينبغي قوله في الثناء على المادية، فأي شخص سبق له أن عاش في بلد من العالم

1. Milton and Rose Friedman (1980) Free to Choose, Harcourt Brace, New York.

الثالث - أو في بقعة من الغرب كذلك، تعاني الصعوبات، يستطيع أن يقدر قليلاً ثمن الفقر من حيث البؤس والإهانة المقصودة للكرامة الإنسانية، وإن الثمن ليس مجرد الجوع وحسب، أو البرد، أو المرض، أو السأم، أو فقدان الأمل في مستقبل أفضل، إنه كذلك سحق مشاعر الاعتزاز بالذات، والعجز أن تكون متفائلاً وكريماً للأصدقاء وللعائلة، والبؤس المطلق الذي يجعل من المستحيل أن نبتهج بأجمل ملامح الطبيعة، وإن غروب الشمس الجميل قد يبدو أقل جمالاً بعين المشاهد له من جزء حقير من بلدة للعاطلين والساقطين.

وبعد وفرة متواضعة كذلك، تستطيع المادية بالفعل أن ترفع الروح الإنسانية وتعززها، وإن رغبة المرء في مستقبل أفضل لأطفاله هو دافع كريم، يعطي الملايين هدفاً مفيداً في الحياة، والطموح نفسه المتركز على الذات من أجل تحقيق النجاح، ولخلق حياة أفضل للشخص نفسه، يعطي حتماً درجة من الحركية البناءة إلى المجتمع ـ في اقتصاد السوق سوف يميل ذلك إلى التحقق، إذا نجح رجل المشروعات النشيط ـ لأنه فعل أو لأنها فعلت شيئاً ما يريده الناس الآخرون، وإن درجة من الفاعلية والحفز إلى الأمام هي ما يدفع المجتمع نحو التحسن، إذ إن البشر، إلى درجات تزيد أو تنقص حيوانات مضخمة لذواتها، فإذا كان الطموح لا يستطيع أن يعبر عن نفسه تعبيراً بناء في البحث عن ظروف مادية محسنة للحياة، فإنه سوف يعبر عن نفسه بطرق أقل بناء، من أمثال الرغبة في السلطة فوق الناس، أو فرض القسوة في خدمة مَثلٍ أعلى سامٍ، وإن عقلية التاجر، والصانع، ورجل الأعمال والمشروعات،

وموفر الخدمات، هي عقلية مادية، وعقلية البطل، والجنرال والرجل المسؤول في الدولة ـ سواء كان بيروقراطياً، أو رجل كنيسة، أو مفكراً ـ سوف تميل إلى أن تكون أقل مادية، ففي بعض الأوقات قد يكون هذا محفوفاً بالحظ السعيد، ولكن قد تكون له غالباً عواقب أقل سعادة، وإن مادية التاجر تقود على الأرجح إلى السلام والرخاء الإنساني والازدهار كذلك، وإن الحرب هي أعظم غواية وبلاء للإنسانية.

ليست المسألة مع النمو هي أن يكون مرغوباً أو غير مرغوب، إنه مرغوب طبعاً، فمن دون النمو، يكون تحسين المجتمع والفرد مستحيلاً، ومن دون النمو، تذوي الروح الإنسانية أو هي تُدفع إلى غايات مدمرة، وبدون النمو، لا نستطيع أن نخدم أنفسنا أو نخدم المجتمع، وبدون النمو لا توجد، على العموم، موسيقا جديدة، ولا عمارة جديدة، ولا رسم جديد، ولا أدب جديد، ولا علم جديد، ولا المزيد من التقانة المريحة، ولا توجد الراحة، وليست الراحة فقط هي التي لا توجد، بل لا توجد الحضارة أيضاً.

المسألة هي أي نوع من النمو هو المرغوب والممكن، فهناك تراتبية هرمية للحاجات الإنسانية، مثلما شرحها في العام 1970 عالم النفس الصناعي، أبراهام ماسلو[1]، وهي تنطبق على المجتمعات مثلما تنطبق على الأفراد، فإذا كان البلد فقيراً، فهو يحتاج إلى النمو الصناعي، وإذا كان المجتمع ثرياً، فهو يحتاج إلى السلع والخدمات التي تستخدم أقل ما يمكن من موارد متناهية، ولكنها تجعل الحياة، مع ذلك أكثر

1. Abraham H. Maslow (1970) Motivation and Personality, Harper & Row, New York.

قابلية للاستمتاع بها، وأكثر إثارة، واجتماعية على نحو أكبر، ومتحررة تحرراً أكثر، وأكبر حاجة، بعد أن تكون كل الحاجات الأخرى قد تم إرضاؤها، عبر عنها ماسلو بتعبير «تحقيق الذات». وهذا يعني القدرة على الاستمتاع بالعمل، وأن يرى العمل بوصفه تأكيداً لشخصية الإنسان وتطوره، وأن يختار المدى الذي يعمل له، والمدى الذي يتابع فيه وسائل أخرى من التعبير الخلاق عن الذات.

النظام الاقتصادي الجديد للغرب

حين تصير الاقتصادات الصناعية أثرى، فإنها تتطور، والمراحل المبكرة، ركزت في الصناعة الثقيلة والسلع المنتجة، فمهدت بذلك الطريق لمزيد من الاقتصاد المعقد الذي كانت فيه سلع المستهلك والخدمات الشخصية هي السائدة، وصار هذا التحول في الولايات المتحدة، وفي بريطانيا مهماً في الخمسينيات من 1950، وبحلول العام 2000، كان راسخاً رسوخاً لا عودة فيه في كل أنحاء الغرب.

وحين يصير المستهلكون وافري الغنى، فإنهم يطلبون شيئاً أفضل قليلاً، مختلفاً، أو حسب رغبة المستهلك، والعلامات التجارية تُعنى بالهويات المتميزة للمستهلك، وفي حين جرت العادة على طرح المنتجات الجديدة مرة في العقد من الزمان، فإن المنتجات الجديدة الآن تُقَدم في كل عام أو في كل شهر، فالاختيار يفوق المقدرة.

تستجيب التقانة في ردها على الطلب، وكان من عادة التجديد أن يجعل السلع أكبر وأرخص، وذلك من خلال مركزية رأس المال الكثيف، أما الآن، فالتقانة تصنع منتجاً معيارياً، أخف، وأصغر، وأمرن، وأكثر جاذبية، وأكثر شخصية، وهو عادة أرخص أيضاً.

وفي أثناء التقدم، تحول الاقتصاد، فقد كان من المعتاد أن تكمن القيمة في المواد الأولية والتصنيع، في الموارد الطبعية ومصانع الإنتاج الكبير، وفي العوائد لرأس المال والعمال، ذوي الياقات الزرقاء، أما الآن فالقيمة مستقرة في التصميم، والتسويق، والبرمجيات، وتوصيل السلعة، وحسب المواصفات التي يحددها الشخص، وهذه الفعاليات ليست آلية، أو مدفوعة بالآلات، أو العمل الكثيف أو رأس المال الكثيف، إنها فعاليات خلاقة ومشخصنة.

وكذلك قطاعات التصنيع التقليدية ـ الأثاث، والملابس، والأحذية ـ يمكن تحويلها، وعبر الكثير من بلاد العالم، يمكن للإنتاج الكبير واليد العاملة الرخيصة أن تستمر في تقديم معظم ما نلبسه ونجلس عليه، ومع ذلك ففي الثمانينيات من 1980 اكتشف رجال الأعمال الإيطاليون طريقة مختلفة، فمن خلال التصميم التجديدي، والإبداع والنوعية العالية، ازدهر عمل المنتجين الإيطاليين، وهم في الغالب يعتمدون على الأسرة، في حين كاد الصانعون التقليديون في البلدان الثرية الأخرى، مثل أمريكا وبريطانيا، يختفون تقريباً.

الآلات، والتراتبيات الهرمية المشابهة للآلات داخل المنظمات الكبيرة، تستطيع أن تعطي الكفاية، وهي لا تستطيع أن تعطي التجديد الخصب الذي لا يتوقف، وإن الآلات المزيَّتة تزييتاً جيداً لا تجدد تجديداً تلقائياً، إذ إن التنويع والتفكير المتجددان هما صفتان إنسانيتان تتطلبان التعليم، والاستقلال والاندفاع، كاندفاع المتمرد، ولقد صارت الحماسة للشيء المنتج أساسية، وتأتي أفضل

التجديدات من الأفراد الذين هم مستهلكون متحمسون «للشيء الجديد». المجددون يتشككون في البقرات المقدسة، والمجددون مثل لوحة رسم فارغة، إنهم يحبون معرضهم الخاص بهم.

التحرك من الكفاية إلى التجديد يخلق ترتيباً واسعاً من الأسواق الجديدة، والمنتجات الجديدة، ومراحل الإنتاج الجديدة، وهي التي تستطيع فيها شركات جديدة يقودها أناس يمتلكون أفكاراً جديدة أن تدخل وتنمو على حساب شركات راسخة، وضخمة، وواسعة الخط، ومتكاملة، وكثيفة رأس المال، فالمجددون يتطلبون رأس مال صغير نسبياً، وهم يتجنبون الفعاليات المنخفضة العائد، والكثيفة رأس المال مثل الصنع، فيعطون الصنع لمقاول من الباطن إلى الشركات الموجودة، التي تعاني من فرط القدرة الكبيرة التي تنشأ بشكل ثابت من مسير الكفاية مسيراً مطرداً لا يتوقف.

والشركات الكبيرة الكثيفة رأس المال نفسها يجب أن تحول نفسها ليصير باطنها ظاهرها، وإن الكفاية احتاجت إلى المركزية، وأما الاضطلاع بالتغيير، والاختيار، وتكبر الزبائن والمنافسين الجدد، فيتطلب اللامركزية، وكان المديرون في العادة مرؤوسين مخلصين ينفذون الأوامر النازلة من موقع السلطة العالية، أما الآن، فقد صار عليهم أن يكونوا مجدِّدين، ومجرِّبين، ومجازفين بالمخاطر، وكان لهذا أثر واحد مهم أهمية ضخمة، قلما لوحظ، فهناك تحول ضخم للسلطة الحقيقية أو الممكنة من المؤسسة ـ من تراتبيتها الهرمية والمسهمين ـ إلى الفرد.

والذهاب إلى ما وراء الصناعة يعني بالضرورة أيضاً الذهاب إلى ما وراء الرأسمالية، فالرأسمالية تدور حول الحاجة إلى تراكم رأس المال، فالعامل النادر، والأشد قوة والأكثر حسماً في الإنتاج هو رأس المال، والمستخدمون يلعبون أدواراً صغيرة إلى درجة ما في كتلة غير متمايزة من العمال، وتنجذب الأرباح إلى مالكي رأس المال، وتبني الرأسمالية مؤسسات أضخم، وأكثف رأس مال، وأكثر ربحاً، وتستقر السلطة فيها مع مالكي رأس المال؛ لأن رأس المال منتج والمعروض منه أقل من الطلب عليه، وإن الرأسمالية تزدهر على التصنيع، والمركزية، والتنظيم المنهجي الصارم، والمعايرة، واقتصادات الميزان، التي كلما زاد فيها عدد الوحدات المنتجة نقص متوسط التكلفة، وعلى كون المنتج هو أكبر منتج وأرخص منتج، وإنها نظام مضبوط، ومستقر، ويمكن التنبؤ به، وقادر على التحمل، والناس المهتمون بكسب المال يصيرون رؤساء صناعة ناجحين أقوياء، ولكنهم نادراً ما يصيرون هم أنفسهم مالكين بارزين للمال.

في الغرب، هذا التنظيم يذهب، إنه يتضاءل تضاؤلاً سريعاً، فأضخم الشركات وأكثفها في رأس المال تهبط في الأهمية، فأكبر 100 شركة أمريكية علت نسبة 62 بالمئة من القيمة السوقية للأسهم في العام 1980، لكنها كانت تعلل نسبة 46 بالمئة فقط بعد 20 عاماً، وهذا يقلّل من مدى التغيير، نظراً إلى أن العديد من الشركات الجديدة الفائقة النجاح ـ وشركة مايكروسوفت هي أفضل مثال لذلك ـ هي شركات ليست كثيفة رأس المال، فعلى الرغم من أن

مايكروسوفت تبدو مثل مؤسسة رأسمالية، فإن أعظم عوائدها قد رجعت إلى مؤسسيها وإلى المستخدمين، لا إلى مقدمي رأس المال، الذين كانوا، وما زالوا غير مهمين مطلقاً، وكل قطاع التقانة المنتشر كالفطر يمتلك كثافة رأس مال منخفضة، فالأفكار هي التي تهم، لا رأسَ المال.

والناس الذين يريدون أن يكسبوا المال في هذه الأيام لا يصنعون مساراتهم الوظيفية داخل مؤسسات صناعية ضخمة راسخة، إنهم يصيرون مصرفيي استثمار، أو مستشارين إداريين، أو وكلاء توظيف خاصين، أو وسطاء، أو رأسماليين مجازفين في الاستثمار، أو نجوم رياضة، أو نجوم روك، أو نجوم سينما، أو مؤلفين لأفضل الكتب مبيعاً، أو رجال أعمال ومشروعات، وفي العام 1982 كان هناك 13 بليونيراً أمريكياً فقط، أما الآن، فهناك أكثر من 200، وبعد أن نأخذ التضخم المالي بالحسبان، فإن المزيد من الأمريكيين مع ذلك قد صاروا بليونيرات في الخمس عشرة سنة الماضية، وهم أكثر مما كانوا في كل التاريخ السابق.

إن أول قوة تدفع الإبداع ما بعد الصناعي ليست هي الأرض، ولا العمل، ولا رأس المال، إنها التجديد الإنساني، إنها العقل الإنساني والفعل الإنساني، وفي أثناء الثورة الصناعية، كان المخترعون الذين ليس لديهم رأس المال متوسلين، وكان القليل من التجديد يحتاج إلى أكوام من رأس المال.

أمـا اليوم، فـالناس اللامـعـون يسـتطيـعـون بالفكرة الصـحـيحـة أن يخلقوا الملايين أو البلايين برأس مـال صـغيـر. في أواخـر السبعـينيات من 1970، أسس شـخصان شبه هيبيين «خنفوسين» هما ستيف جوبز وسـتـيف ووزنـيـاك، شـركـة أبل، طامـحـين إلى تطوير أول حـاسـوب شـخصي قـابل للحـيـاة، واحـتـاجـا إلى بعض رأس المال، ولكنه لم يكن كثيـراً، وحصلا عليه فوراً، الأول منهما باع حاسبته من نوع إتش بي، والثـاني باع سيـارته الفـولكس فـاغن، ثم صـار صـديق لهمـا، وهو المدير التنفيذي في شـركة أنتل، مايك ماكولا، شـريكهما، وقدم 91.000 دولار، وولد الحـاسوب أبل الشـخصي، وصـارت الشـركة تسـاوي بلايين، وترك ووزنياك شـركة أبل، بعد أن خاب أمله في حياة الشـركة، ليصـرف ثروته في تمويل سلسلة من جـمـاعـات الروك قبل أن يؤسـس شـركـة أخـرى؛ ليجدد من جديد.

مكان الخلق كـان قـد انتقل، إذ تحت الـرأسـمـالية الصـنـاعـيـة، كـانت الآلات التي تعمل مـركزياً تخلق الثروات، فـآركرايت وكـيي اختـرعا إطار الغزل الآلي، وواط أكمل مـحـركه البـخاري، ولكن الآلات بعدئذ اكتسبت حياة خـاصـة بهـا، فـالآلات نفسـهـا تمخضت عن المال، والناس رقـصـوا حـول الحـواف، يوسـعـون الآلات ويحـسنونهـا، واضـعـين الآلات مـعـاً في مـعـامل كـبـيـرة، أو في مناجم لتـسـريع الإنتـاجـيـة تسـريعـاً توربينيـاً، ومكيـفين خطوة عـملهم مع خطوة الآلات، ولقـد كـانت الآلات هـي التي أنتجت إنتاجاً لافتاً للنظر، وكانت تحت السيطرة.

أما الآن، فليست الآلات أو مالكوها هـم من يقف في مركز المسرح،

مركز الأهمية الكبيرة، بل هم الأفراد المبدعون، فالناس لا يخترعون التقانة الجديدة فقط، إنهم هم التقانة الجديدة، وفي الاقتصاد المشخصن، فإن الصناعات «الخلاقة» ـ التي راوحت بين العمارة، والنشر، والتصميم والبرمجيات، إلى الموسيقا، والإذاعة، والترويح، والرياضة والفنون ـ تنمو بمعدل يساوي ضعف معدل الاقتصاد بمجمله، وبمعدل أسرع بأربع مرات من صناعات الإنتاج والتوزيع القديمة، فالمادة الأولية للصناعات الخلاقة هي البيئة المحيطة، وهي الناس والأفكار، فالآلات تكمل، ولكنها لا تغتصب الخيال الإنساني، وكما يقول عالم الاجتماع مانويل كاستيلز:

> لأول مرة في التاريخ، يكون العقل الإنساني قوة منتجة مباشرة، لا مجرد عنصر حاسم في نظام الإنتاج، وهكذا، فالحواسيب، وأنظمة الاتصال، وفك الرموز الوراثية وبرمجتها كلها مضخمات للعقل الإنساني وامتدادات له[1].

من العسير أن نتصور تحولاً أكثر شمولاً من المركزية إلى اللامركزية، ومن الآلات إلى الرجال والنساء، ومن السلطة غير المتجسدة غير الشخصية إلى السلطة المشخصنة، ومن الماضي المحدد إلى الإمكانات غير المحدودة من المستقبل... ومن رأس المال إلى الأفراد.

في الغرب، صارت المعرفة مشخصنة، وعلى الرغم من أن الكثير من المعرفة القيمة تبقى بحوزة الحكومة والمؤسسات، فإن الاتجاه الجديد هو أن تصير المعرفة القيمة فعلاً ملكية للأفراد.

1. Manuel Casetells (1996) The rise of the Network Society Blackbell Publishers, Malden, MA.

في العام 1947، اخترع وليام شوكلي الترانزستور، وكان شوكلي موظفاً لدى مختبرات بل، التي كانت مملوكة من شركة إي تي أند تي، وبخاصية غر يبة من نظام الولايات المتحدة، لم تكن شركة إي تي أند تي قادرة، وهي التي تمتعت بما يقارب الاحتكار لشبكة الهاتف، على أن تستغل اكتشاف شوكلي، وأقام شوكلي شركة فيرتشايلد سيميكوندكتر، وقامت فيرتشايلد، بدورها، بإنشاء عدد لافت للنظر من الشركات الفرعية في وادي السليكون، ومنذ ذلك الحين كون آلاف من رجال الأعمال المهندسين في وادي السيليكون ثروات من الأفكار التي كيفوها من بِرْكة المورِّثات الفكرية للوادي، من الأفكار التي استقرت في الأصل على أكثر الأفكار عمقاً أساساً من جامعة ستانفورد، ومن برامج البحث الحكومية والبحث والتطوير لدى المؤسسات، وعلى نحو كبير جداً، دفع دافعو الضرائب، ودفع المسهمون من أجل المعرفة، والأفراد حصدوا المكافأة، ومع ذلك فإن من المشكوك فيه جداً أن انفجار الأفكار الجديدة والمنتجات التي مثلت اختراقاً في كاليفورنيا كان سيحدث في أي مكان، ويكون قريباً في عظمته مثل ما حدث، من دون السماح للأفراد بأن يستخدموا الأفكار القديمة لتطوير أفكار جديدة، وللانتفاع بها انتفاعاً شخصياً، فهذه هي الكيفية التي تعمل بها المجتمعات المفتوحة والحركية.

يقول البروفسور هنري تشيسبرف من مدرسة الأعمال في هارفرد: إن «التجديد المغلق» هو الذي كان سائداً قبل العام 1980،

فكان البحث يجري سراً، داخل مؤسسات ضخمة[1]، وبعد ذلك التاريخ، كانت المنتجات تُطور بشكل متزايد من خلال «التجديد المفتوح»، فتدفقت الأفكار من مصادر مختلفة، مع الإسهام النشيط من الجامعات، والحراك العالي للعمالة، وللأفكار تبعاً لذلك، ومع سوق رأسمال متحمس في مشروعات تنطوي على المجازفة، ومع مشروعات أعمال مبتدئة عديدة منتجة إنتاجا عالياً.

وانتقل العمالقة الصناعيون من أمثال شركة آلات الأعمال الدولية (آي. بي. أم) إلى التجديد المفتوح؛ لأنهم كانوا مجبرين على ذلك، وقد كان من عادة آي بي أم أن تضم إليها الطلاب المتفوقين في الفيزياء والرياضيات وعلم الحاسوب، ومن ناحية أخرى، فبعد العام 1950، تكاثرت أقسام علم الحاسوب في الجامعات، استناداً إلى موجة من التمويل الحكومي، وكان لدى أفضل الخريجين الآن خيار، إذ كانوا يستطيعون أن يلبسوا القمصان البيضاء في شركة آي بي أم، أو أن يلبسوا ما كانوا يحبونه في الحرم الجامعي، فبصفتهم أعضاء في هيئة التدريس، كانوا يستطيعون شراء التقانات والمنتجات الجديدة من شركات مدعومة من رأس المال المخاطر من أمثال شركة المعدات الرقمية (دي ئي سي) والتجريب على هذه التقانات والمنتجات، ففي السابق كانت شركة آي بي أم، تمتلك احتكاراً للأفكار ولموهبة علم الحاسوب، وكان

1. Henry Chesbrough (2003) Open Innovation: The New Imperative for Creating and Profiting from Technology, Harvard Business School Press, Boston.

احتكاراً قوياً مثل قوة احتكارها للحواسيب نفسها تقريباً، وبفقدان آي بي أم للاحتكار الأول، فإنها خسرت الاحتكار الثاني.

وأثر التجديد المفتوح هو تحويل المبادرة والثروة من المؤسسات الراسخة إلى أخرى جديدة، ومن المسهمين إلى الأفراد.

ومشهد آخر فوق ما تقدم هو التقانة الحيوية (بيوتكنولوجيا)، فطوال أربعة عقود من الزمن صبّت مؤسسة العلوم الطبعية الأمريكية والمعاهد الصحية الأمريكية أكثر من 100 بليون دولار، بنقود اليوم، في البحث التقاني الحيوي، وفي تدريب الآلاف من طلاب الدراسات العالية من المختصين بالتقانة الحيوية، ولم يكن أحد يعلم إن كان ذلك الصرف والتدريب سيكون له في أي وقت عائد تجاري، وحين وصل العائد، من التسعينيات من 1990، اندفع المختصون بالتقانة الحيوية إلى البدء بإنشاء شركاتهم الخاصة، ويجري الآن إعادة تدوير التمويل الضخم في البحث التقاني الحيوي إلى قيمة سوقية للأسهم والسندات: وفي أثناء كتاباتنا لهذا النص، فإن شركتين اثنتين فقط هما آمجين وجينتيك، تمتلكان مجتمعتين قيمة تساوي 129 بليون دولار، فمن الواضح، أن الصناعة الإجمالية للتقانة الحيوية سوف تستعيد أكثر بكثير من 100 بليون دولار، وإلى أين تذهب هذه البلايين؟ لم ترجع إلى الحكومة، والقليل جداً منها رجع إلى عمالقة الصيدلانيات من الطراز القديم الذين خاب أمل بحثهم التقاني الحيوي باستمرار، إذ إن منجم الثراء يذهب إلى المديرين الأفراد، وإلى مسانديهم من أصحاب رأس المال المخاطر.

ليست المعرفة وحدها التي صارت مشخصنة بل التنافس أيضاً. فالمديرون الأفراد يستطيعون ممارسة تأثير كبير على الوضع الإستراتيجي لشركتهم، وذلك عن طريق الالتحاق بمنافس، أو بتحولهم إلى منافسين، فإذا كانت هناك حاجة إلى رأس المال للبدء بمشروع، فإن الرأسماليين المخاطرين ـ الذين هم أنفسهم مهنيون والذين يبدؤون من دون رأس مال، ويأخذون حصة كبيرة لهم شخصياً ـ سوف يمولون الأفكار الجيدة والناس الجيدين.

ومن الفكر إلى الفعل، يكون الأفراد في قلب الخلق، والتجديد وخلق الثروة، وكل عنصر من الشخصية الإنسانية الفريدة يشارك بدور في الخلق، حيث الفكر، والخيال، والعاطفة، والحسابات، والتقمص الوجداني، والاتصالات، والفعل ورد الفعل، وهكذا فبعيداً عن كون المشروع غير شخصي، فإن كل مشروع مهم للعمل قد صار مشخصناً، حتى يكاد يكون عملاً فنياً[1].

وأنت لا تحتاج، كي تبدأ مؤسسة إلى الهروب من قوة رأس المال، فأنت تستطيع أن تصير صاحب عمل لشخص واحد، أو أن تلتحق بمجموعة صغيرة من الشركاء، وأنت تفعل غداً بالضبط ما تعمله اليوم، ولكن على حسابك الخاص، فالسباكون، والمحاسبون، وسائقو

(1) لقد قيل: إن المجتمع الغربي الحديث الليبرالي فريد في إعطائه مثل هذه المكانة الرفيعة للفنان وللخلق الفني، فإذا كان الأمر كذلك، فمن السهل أن نفهم لماذا يستطيع في مثل هذا المجتمع فقط أن يكون مشروع الأعمال على مثل هذه الدرجة من الإبداع، فلو دام الرايخ الثالث، والإمبراطورية السوفيتية ألف عام هل يستطيع المرء أن يتخيل أحدهما منتجاً للحاسوب الشخصي؟.

سيارات الأجرة، ونجوم السينما، ووكلاء العقارات والرياضيون المحترفون، والمنظفون ونجوم الروك، والمدربون الشخصيون والمهندسون المعماريون... وقائمة الناس الذين يوظفون أنفسهم، وهم في الغالب لاجئون من القطاع الرأسمالي، هي قائمة طويلة جداً، فإذا كان الأفراد يمتلكون وسائل الإنتاج ـ أدمغتهم الخاصة، وأذرعتهم وأرجلهم، وحواسيبهم، ومفكات براغيهم، وسياراتهم ـ فإنهم آنئذ لا يحتاجون إلى العمل تحت رأس المال، والعمال أنفسهم الذين يوظفون ليسوا في القطاع الرأسمالي، وحتى العمال في المؤسسات الرأسمالية يعاملون الآن أحياناً بصفتهم أفراداً ويكافؤون، أكثر فأكثر، على أساس إسهامهم الفردي، لا بوصفهم جزءاً من كتلة من العمال، وحين صار العمل مفرَّداً، وجب أن يصير عقد التوظيف مفرَّداً أيضاً، لا بل إن الموظف المفتقر إلى المبادرة، لديه فرصة، إذا كان ماهراً مهارة عالية، أن يأخذ قيمة فائضة من المسهمين.

ولذلك، فنحن نتحرك، في كل الطرق، مبتعدين عن الرأسمالية، عن اقتصاد يرتكز على رأس المال، وعلى المؤسسات الكبيرة، الراسخة المتراتبة هرمياً[1]، ولكننا لا نتحرك من التراتبية الهرمية الخاصة إلى

(1) طبعاً، لن يحل الاقتصاد المشخصن حلولاً كاملاً أو فورياً محل الرأسمالية، مثلما فعلت الرأسمالية بالضبط، وعلى نحو كامل أو فوري، حين حلت محل الاقتصاد الزراعي، وما يحدث هو أن الاقتصاد الجديد يشكل طبقة فوق الاقتصاد القديم، الذي يعاني أولاً من هبوط نسبي، ثم من هبوط مطلق، والقوة الدافعة الجديدة والنمو اليوم هو اقتصاد مختلف، ومشخصن، على الرغم من أن الرأسمالية ستبقى مهمة في أجزاء من الاقتصاد الغربي (مهمة جداً في خارج الغرب) لزمن طويل قادم.

التراتبية الهرمية العامة، ومن الرأسمالية إلى الاشتراكية أو الشيوعية، فنحن نتحرك نحو نظام هو نفسه موجه حسب السوق أكثر من الرأسمالية كذلك، وهو أكثر لامركزية بكثير، لاشك أننا نتحرك نحو عالم يكون فيه الفرد، الشخص المستقل، مركزياً نحو الاقتصاد المشخصن.

ما هو مختلف الآن هو أن القيمة مدفوعة بالتجديد، والتجديد مدفوع بالناس، أما الرأسمالية واشتراكية الدولة، فكانتا مدفوعتين بقوة الآلات، وتخضع حدود الاغتراب الإنساني للاختبار، ولكن الناس لا يستطيعون أن يكونوا في وقت واحد مغتربين ومخترعين معاً، وإن منطق الرأسمالية هو التوسع وكسب المال، ولكن التوسع في هذه الأيام وكسب المال يتطلب تفكيك كل المعوقات التي تعوق الإبداعية الإنسانية، وهذا هو السبب في أن الرأسمالية تسمح الآن، لا بل تشجع، على الاستقلال الذاتي الإنساني، ولكنه السبب أيضاً في أن الرأسمالية تفكك نفسها، قطعة قطعة، بشكل ثابت مطرد.

والنتيجة النهائية هي إعادة توحيد التقدم الاجتماعي والشخصي مع التقدم الاقتصادي، وفي «المسيرة الطويلة للتاريخ»، كانت الرأسمالية انحرافاً، وشذوذاً، ففي حين صنعت أوروبة، ولاحقاً أمريكاً، التقدم طوال 800 سنة، من خلال التوسع، ومن خلال طاقات الطبقات الوسطى الحضرية الصاعدة، وأدى ذلك في النتيجة إلى النمو الاقتصادي، وتقدم الحرية الشخصية والسياسية، فإن الرأسمالية الصناعية مزقت هذه الوحدة أجزاء، فلقد جاءت الرأسمالية بتقدمات اقتصادية ضخمة، لكنها همشت المنتِجَ الفردَ،

وجعلت الاقتصاد والمجتمع مركزيين، وإن الاقتصاد المشخصن يعود إلى اتجاه غربي طويل الأمد متمثل في تقديم الثروة والحرية معاً، وإن تقدم الاقتصاد المشخصن في الغرب تقدم لا عودة عنه، باستثناء أن يكون ذلك في حالة غير مرجحة جداً، وهي أن تفرض الدولة نظاماً جديداً بالقوة، وبالنسبة إلى أولئك الناس منا الذين يخافون من انتحار الغرب، فإن التطورات الاقتصادية هي أرحم مؤشر معاكس لذلك الانتحار.

وبكلمات أخرى، باستثناء شبح الانتحار البيئي الذي يتراءى لنا.

والمشكلة الأولى مع النمو في السكان والاقتصاد ـ وربما تكون هي أكبر قضية في قرننا ـ هي إضعافها للموارد المحدودة (الغابات، ومخزونات الأسماك، والتربة، والوقود المستحاثية، والنباتات، وأنواع الحيوانات، والهواء، وضوء الشمس، والماء، والفضاء) والزيادة المفاجئة في الإضرار بالبيئة (الكيماويات السامة، والغازات الجوية، وأنواع النبات غير المتوطنة). والنمو التلقائي الذي جاء مع عصر الآلة الصناعي انتشر في أثناء القرن العشرين إلى ما وراء الغرب بشكل كبير، فإذا وصلت بلدان خارج الولايات المتحدة، وأوروبة واليابان في نهاية المطاف إلى مستويات الاستهلاك الغربي الحالية، فإن الأثر السلبي على الموارد وعلى البيئة سيكون مضاعفاً إلى اثني عشر ضعفاً [1]، ومن المستحيل بالنسبة إلى الأرض أن تقوى على دوام حمل مثل هذا التأثير.

---

(1) جاريد دياموند (2005).

نحو اقتصاد أكثر خضرة

يقدم الاقتصاد المشخصن حلاً جزئياً لمسألة الاستدامة هذه، وذلك بتسخير ما يدعى حالة انعدام الوزن، «اللاوزن».

الاقتصادات الصناعية «ثقيلة»، والقيمة فيها تعني وزناً، وعملياً تضمن كل التقدم الصناعي من العام 1750 إلى العام 1950 بناء منشآت صناعية أكبر فأكبر، ومع نمو الاقتصادات، أُنتجت منتجات أثقل فأثقل من أمثال الفولاذ، والإسمنت، والحديد، والجرارات، والسيارات، والدبابات والطائرات.

ولكن التقدم، منذ العام 1950، عنى تكاثر منتجات وخدمات أخف وأصغر مما كان سابقاً، فالحواسيب الأولى كانت ثقيلة بشكل ضخم وبحجم عدة ملاعب لكرة القدم، وأما الآن، فإن القدرة الحاسوبية الكبيرة توجد في حاسوب الحضن (اللابتوب)، وكان من العادة أن تكون معظم قيمة الحاسوب كامنة في معداته الصلبة، أما الآن فهي في برمجياته، فهل هناك أي شيء آخر يتطلب مثل هذا الحيز الصغير والطاقة الصغيرة، وهو مفيد قدر فائدة الحاسوب؟ وكذلك، فإن شبكة النسيج العالمي، تقوم بدورها على نحو سحري بإعدام الوزن والمسافة.

وبعض المنتجات، طبعاً، مثل السيارات، مازالت تزن الكثير، ولكن مع السيارات نفسها، فإن الطريقة الجديدة لتضيف قيمة هي أن تطرح من الوزن وتضيف ملامح خفيفة، وذلك عادة من خلال تحديث البرمجيات ورفع درجتها، وإن ثلث تكلفة السيارة الجديدة، والكثير الزائد في قيمتها، يأتي من البرمجيات.

في الانتقال من الرأسمالية إلى الاقتصاد المشخصن، تشكل الخدمات الشخصية من كل الأنواع حصة أكبر، فأكبر من المخرجات الكلية، فالمنتجات تصير أخف، ولكنها أيضاً (على الرغم من أننا مازلنا، طبعاً، نحتاج إلى الآلات والأشياء) تصير أقل أهمية، ومن هنا فإن الاقتصاد يستطيع أن ينمو، ولكنه مع ذلك لا يستهلك المزيد من الموارد، ويقدر أن قيمة مخرجات الولايات المتحدة قد زادت حوالي عشرين ضعفاً من العام 1900، ومع ذلك فهي لا تزن أكثر[1].

وهكذا، ربما يتراجع الكابوس الأخضر، إذ إن الاقتصاد المشخصن ليس كثيف رأس المال، ولا كثيف المواد، وإلى الدرجة نفسها، ليس كثيف الطاقة، إنه كثيف الإنسانية، فالعقل والروح الإنسانيان يتمددان، ويتقلص استخدام الصناعة والمواد، فإن من الممكن الآن أن نتخيل نمواً اقتصادياً قوياً يتعايش مع تناقصات مهمة في استخدام الموارد المحدودة، والاتجاه نحو اقتصاد أكثر خضرة يحدث الآن طبعياً، ولكن الحكومة، والمبادرات الخاصة والفردية تستطيع أن تعززه.

الكابوس قد يتراجع، ولكنه لن يختفي، فإن الغرب يزداد خضرة، وقد جاء ذلك في جزء منه، عن طريق نقل الغرب لإنتاجه إلى بقية العالم بتكليف مورّد أو صانع خارجي بالأعمال لتخفيض التكلفة، وهناك استخدام أقل للمواد وتلوث أقل في الحزام الصدئ من أمريكا، ولكن هناك المزيد منهما في مانيلا، وفي المدن الأخرى في كل أنحاء

1. Diane Coyle (2001) Paradoxes of Prosperity, Texere, New York; and Diane Coyle (1997) The Weightless World, Capstone, Oxford.

العالم الذي يجري تصنيعه، وإذا صار الاقتصاد المشخصن كونياً، فحينئذ فقط يستطيع أن يحل المسألة الخضراء، وذلك لن يحدث على عَجَل.

مظهران سلبيان للاقتصاد المشخصن

الأول: هو عدم المساواة الجامح، فالرأسمالية تلام غالباً على عدم المساواة، ولكن هذا اللوم سوء تصور، فمع مرور الزمن، وتحت ضغط المستخدمين والمجتمع، وصلت المؤسسات الكبيرة للرأسمالية إلى صفقات مع اتحادات العمال، ومارست نفوذاً فرَض المساواة، وقد أظهرت المسوح الاستطلاعية التي أجريت باستمرار، حتى وقت قريب، أن العمال غير المهرة وشبه المهرة في الشركات الكبيرة، شريطة أن يكونوا أعضاء في اتحادات العمال، كانوا يحصلون على أجور تزيد 30 بالمئة إلى 40 بالمئة عن أجور نظرائهم في الأعمال الصغيرة.

ولكن الأعمال التجارية الصناعية الكبيرة، لا تستطيع بعد الآن أن تكون سخية على هذا الشكل، فالشركات الكبيرة يجري اعتصارها في كل الجوانب، من المسهمين المتطلبين أكثر، والراغبين في أرباح أعلى، ومن العمال ذوي القيمة فعلاً، الذين يمكن أن يكون فقدانهم قاتلاً للمؤسسة، ومن أصغر المنافسين الجدد، وأنشطهم وأشدهم فظاظة، الذين يزدهرون بمكافأة القوي على حساب الضعيف، فالمؤسسات تخفض أعداد العاملين فيها، وتزيل طبقات منها، وتضع العمال على عقود مؤقتة عرضية، وتستأجر عمالاً أرخص لجزء من الوقت

وللمواسم، وتخفض الراتب لغير المهرة، وتجري مراقبة النتائج الفردية مراقبة قريبة أكثر بكثير من السابق، ويجري طرد الأشخاص السلبيين في تعاونهم، وكل هذا ليس غلطة الرأسمالية، أو غلطة المديرين، الذين يفضلون المعاملة الأبوية، أو الحياة الهادئة، تفضيلاً أكبر من لعب دور البخيل، فإن اللوم يقع - بحق - مباشرةً على الاتجاه من الرأسمالية نحو الاقتصاد المشخصن، ومن دون تدمير الفوائد العديدة التي جاء بها اقتصاد مستند إلى الفردية والإبداعية، فإن المجتمع بوصفه كلاً، ومن خلال اتخاذ القرار ديمقراطياً، هو الوسيلة الوحيدة لحماية الناس المهمشين في العملية.

إن الموهبة ليست موزعة بالتساوي بين السكان، ولكن الموهبة ليست مائلة كذلك ميلاً رهيباً، والمشكلة هي أن القدرة على كسب المال هي المائلة، إذ إن كسب الملايين ليس علامة فضيلة، مثلما قد يرى الكالفينيون والأغنياء، فإن كسب المال في جزء منه حظ، وفي جزء منه فرصة، وفي جزء منه سرقة أفكار عظيمة وتكييفها، وفي جزء منه اندفاع عدواني، وفي جزء منه عبقرية تجارية محضة، ومهما تكن الخلطة، فإن نسبة مئوية صغيرة جداً من السكان سوف تكسب نسبة مئوية كبيرة جداً من الدخل، وتلك هي المشكلة مع ما يدعى نظام المقدرة أو الإنجازات تحت أسواق غير مركزية ومشخصنة.

والعائق السلبي الثاني للاقتصاد المشخصن هو أنه يزيد، ويحتمل أن يستمر في زيادة، الفجوة بين الغرب وبقية العالم، ولقد كان أحد

الأشياء العظيمة في الرأسمالية هو أنها كانت تقبل بسهولة معقولة أن تُنقل إلى اقتصادات أخرى، إذ إن طبيعة الرأسمالية التي تشبه الآلة كانت تعني أنه بوجود اقتصاد مفتوح إلى الغرب، وبسياسات صديقة للمستثمر، كان يمكن للرأسمالية أن تُستَورد، مثل نظام تسليم المفتاح تقريباً الجاهز للاستخدام الفوري، وكان يمكن إغراء مؤسسات غربية ضخمة للمجيء أو تقليدها، وكانت التقانة وطرائق العمل تُستورد، ومرحى! هيِّ سريعاً! معجزة اقتصادية! لم يكن استيراد الرأسمالية صعباً جداً.

والاقتصاد المشخصن ليس كذلك، إنه يحتاج إلى ظروف سياسية واجتماعية ليبرالية، لا بل إلى ظروف داعية إلى التحرر في الفكر والكلام والتخيير، وإنه يحتاج إلى درجة عالية من الأصالة التقانية، وإنه يحتاج إلى نظام تعليمي يشجع، على الأقل في ذروته، على التفكير المخالف للمألوف، وإنه يحتاج إلى الروح المتمردة، وإنه يحتاج إلى السياسات القانونية والمواقف التي تدعم الفرد ضد الدولة والمؤسسة الخاصة، وإنه يحتاج إلى أن يقوم الناس بعمل أشيائهم الخاصة بهم.

الرأسمالية قابلة للتكيف أكثر بكثير، لا بل هي لا تميز بين الأنظمة، ولقد ازدهرت تحت أنظمة أرستقراطية، مثل نظام إنجلترا من العام 1750، وحتى العام 1867، وتحت اليابان الإمبراطورية، من القرن التاسع عشر، وحتى العام 1945، وتحت حكم الدكتاتوريات المستبدة، مثل حكم الجنرالات فرانكو، وسالازار، وبينوشيه، وفي

أمريكا المالكة للرقيق وأمريكا الديمقراطية، وتحت الديمقراطية الاجتماعية لدى الأوروبيين واليابانيين بعد الحرب، وفي جنوب شرق آسيا منذ العام 1970، وهي البلاد التي اصطدمت فيها الديمقراطية الهشة مع الحكم المستبد المطلق، ومع الزمر الفاسدة، وتحت نظام حكم التمييز العنصري في جنوب إفريقية ، وحكومتها السوداء الديمقراطية، لا بل تحت الصين الحمراء القمعية، وهو بالأحرى ما يلفت النظر.

ولأسباب تتصل في جزء منها بسياسة الحكومة، ولأسباب أكثر جذرية تتصل في جزئها الرئيس بالتاريخ، وبالنظرة العامة، والميل، فسيكون تقليد الاقتصاد المشخصن أصعب بكثير على البلدان غير الغربية، مما كان عليه تقليدها للرأسمالية، والإبداعية في الأعمال التجارية والصناعية، مثلما هي في العلوم والفنون، تحتاج إلى النزاع الفكري، وإلى فوضى مجتمع يدعو إلى التحرر في الفكر والكلام والتخيير.

خاتمة

النمو الاقتصادي التلقائي كان اختراعاً غربياً، وأدى إلى نمو غير مسبوق في السكان، وطول العمر، والوفرة، والنمو الصناعي ينتشر في كل مكان، جالباً معه المنافع الفورية نفسها، ولكنه يتسبب في ضرر ضخم لا يمكن أن يقبل الاستدامة لكوكب الأرض، وفي الوقت نفسه، فإن الغرب قد انتقل من الرأسمالية الصناعية إلى الاقتصاد

المشخصن، وهو اقتصاد يستند إلى الخيال الفردي، وإن الاقتصاد المشخصن تحسين ضخم على الرأسمالية، وهو يحسن تحسيناً عظيماً الحرية الفردية من أجل المهن الإبداعية، ويقلل الأذى الذي يفعله النمو في البيئة.

في توليد الاقتصادات المستندة إلى الآلة، قد يكون الغرب قاد العالم إلى حافة الانتحار البيئي، والأمل الوحيد هو الاستبدال الكوني للرأسمالية الصناعية ليحل محلها الاقتصاد المشخصن، ويبدو هذا غير مرجح حالياً، فالنجاح في خلق اقتصاد مشخصن يعني تبني القيم الغربية واحتضانها، وهذا لا يعني الصيرورة مثل الغرب فقط، إنه يعني الصيرورة جزءاً من الغرب.





الفصل السادس

الليبرالية

المجتمعات الغربية جميعها منظمة بمبادئ ليبرالية وبمؤسسات ليبرالية، وهي منظمة بطريقة لم تنظم بها إلا قلة صغيرة جداً من المجتمعات غير الغربية، وكون المجتمعات الغربية ليبرالية هي مصادفة سعيدة جداً، كما سنبين بعد قليل، وهي متجذرة تجذراً عميقاً في التاريخ المتميز للغرب، ولكننا نحتاج أولاً إلى تحديد ما نعنيه بالمجتمع الليبرالي.

المجتمع الليبرالي هو مجتمع ليس ديمقراطياً بشكل كامل وحسب، بل هو المجتمع الذي توجد فيه أيضاً روح الحرية، والإنصاف والاحترام لكل المواطنين، والحضارة الليبرالية، مقارنة بالحضارات الأخرى، تعلق أهمية كبيرة على قداسة الحياة الإنسانية وكرامتها، وعلى تعليم شعبها جميعه، وعلى المساواة في الفرص، وعلى الحرية للفرد والتنمية الكاملة لمواهبه ومواهبها، وعلى استئصال التحيز ضد الأفراد والجماعات، وعلى ترويج العلم والفنون، وعلى اختراع منتجات أفضل وأرخص، وأنسب، وعلى تخفيف المعاناة، وعلى المساواة الجوهرية في الأخوة لكل الإنسانية، والمجتمع الليبرالي ليس فاسداً من الناحية المؤسساتية ولا قاسياً، ولا هو محكوم بالشرطة أو بالعسكريين، وليس متراتباً تراتباً هرمياً أو بيروقراطياً، والسلطة في المجتمعات الليبرالية سلطة لا مركزية، وهناك حرية للصحافة

ولوسائل الاتصال الأخرى، وحرية للأعمال التجارية والصناعية لتعمل، لا يقيدها إلا متطلبات الأمانة والمعايير الإنسانية الرحيمة، والتسامح مع السلوك غير التقليدي، طالما أنه لا يؤذي الآخرين، والحكومة تابعة لحكم القانون، والدولة موجودة لخدمة المواطنين، ولزيادة ثروتهم، وصحتهم، ولحمايتهم من القوة الاستبدادية والاضطهاد من أي نوع كان، والمجتمعات الليبرالية لا تؤمن بالمجد العسكري، والحرب هي الملاذ الأخير، وهي بالدرجة الأولى لحماية النفس، وفي الممارسة العملية، فإن الدول الليبرالية لا تعلن الحرب أبداً تقريباً على الدول الليبرالية الأخرى.

والحضارة الليبرالية لم تصل أبداً ناضجة نضجاً كاملاً في وقت معين، ولا وصلت من دون كفاح من أجل الحرية، وقد ظهر كل مجتمع ليبرالي من خلال عملية طويلة من التكيف، ومن خلال صعود أفراد وجماعات عازمين على زيادة حريتهم واستقلالهم الذاتي، ومن خلال تنازل النخب عن السلطة بالقوة أو طوعاً، وإن توسع الحرية السياسية، وتوسع المؤسسات التي تقيد القوي وتعامل كل المواطنين بالإنصاف وبالتساوي، هو جزء فقط من العملية، ومن خلال نمو القوة الاقتصادية عادة يكسب الأفراد، والجماعات المهنية والطبقات احترام الذات والثقة بالذات، ويكسبون احترام عناصر المجتمع المهيمنة، أو تذمرهم، أو غير ذلك، والحرية أحياناً تأخذ قفزة إلى الأمام، نتيجة للنزاع السياسي، ولكن الحرية لم تصل أبداً في أي مجتمع من خلال القوة بشكل محض، فالتسامح، والمصالح الذاتية المشتركة والقدرة على

التعاون والتكيف مع الظروف المتغيرة، هي ميزات يظهر من خلالها المجتمع الليبرالي ويديم نفسه.

إن الديمقراطية الليبرالية هي الطريقة الوحيدة لتنظيم المجتمع التي تسمح له بالتجريب تجريباً كاملاً، متقدماً من خلال التجربة والخطأ، وتسمح للحكومة أن تتغير مع الظروف، ومن دون عنف، والمواطنون الأحرار والمستقلون، المزودون بدرجة من التعليم، والمبادرة والاعتماد على الذات، ليسوا نتاج مجتمع حر بقدر ما هم شرط مسبق لمجيء هذا المجتمع، ومع ذلك ، فإن المجتمعات الليبرالية تمنح الكرامة إلى المواطنين كلهم، وتعتني بأولئك الذين لا يستطيعون العناية بأنفسهم عناية أصيلة، وإذا كان المجتمع ثرياً ثراءً كافياً، فإنه يلزم نفسه بالقضاء على الفقر.

والمجتمعات الليبرالية موسومة بحرية الدين والضمير، وبالانفتاح، وبالتسامح المنتشر انتشاراً واسعاً، والقدرة على التعاون، وبرغبة المواطنين في تحمل المسؤولية عن أفعالهم، والحضارة الليبرالية تستطيع أن تسمح بالحرية الشاملة من دون التحريض على الفوضى؛ لأن القانون غير منحاز ومحترم، ولأن العملية السياسية تستحق الموافقة، ولأن المواطنين يستطيعون أن يثق بعضهم ببعض؛ ليتصرفوا تصرفاً معقولاً، وفي المجتمعات الليبرالية، لا يذعن القانون للمكانة، وتضمن العملية السياسية أن تكون الدولة في خدمة الفرد، وليس على العكس من ذلك، وهناك إحساس بالعضوية المشتركة في المجتمع، ولم

يسبق في أي وقت أن ظهر مجتمع ليبرالي ظهوراً كاملاً من دون ملكية جوهرية للممتلكات من المواطنين العاديين، أو من دون إحساس واسع الانتشار بالقيم المشتركة، والالتزام الضمني بالمجتمع وبمؤسساته، والمجتمعات الليبرالية متسامحة بالسلوك الجديد، أو غير المعتاد؛ لأن هناك إحساساً بالعضوية المشتركة والهوية التي توحد كل الجماعات، حتى أشدها يأساً. وأخيراً، فإن أكثر المجتمعات ليبرالية كانت دائماً مصدراً للمرجعية، وللإلهام من أجل الناس المكافحين من أجل الحرية، وكانوا دائماً يرون القيمة في التماهي مع المجتمعات الليبرالية الأخرى، وذلك إلى درجة معينة على الأقل بسبب رؤية مشتركة للكيفية التي يتم بها بناء حضارة جذابة وناجحة، والمجتمعات الليبرالية قادرة على أن تتخذ لها رأياً نقدياً لعيوبها ولنقائصها، وأن تعمل نحو إغلاق الفجوة بين الواقع الحقيقي، وبين التقديم المستمر للطموحات الليبرالية، في الوقت الذي لا تفقد فيه هذه المجتمعات الرؤية للمدى الذي وصلته، ولا تخسر الاعتزاز المناسب بقيمة الحرية.

وأداء الدول الليبرالية أداء فوق العادة، وعلى الرغم من عيوب عديدة فيها، فهي تنتج حياة أطول وأصح، وراحة أكثر وحرية، وطاقة فنية أعظم، وعلماً أكثر تميزاً ونفعاً، وهي تنتج معاناة أقل من أي طريقة أخرى لتنظيم المجتمع، وتتمتع المجتمعات الليبرالية بمستويات معيشية أعلى من الدول غير الليبرالية، ومن دون استخدام الرعب، أو الإكراه، قامت المجتمعات الليبرالية بخلق التقدم الأخلاقي، ووسعت

توسيعاً مطرداً، كما أظهر ذلك الفيلسوف بيتر سنغر[1]، دائرة أولئك الذين يتلقون شفقتنا، ومد حقوق الإنسان إلى كل الإنسانية، ومن جملتها الأطفال، والنساء، والرقيق، والأجانب، والأعراق الأخرى، والمرضى عقلياً، والمعوقون، والمحتضرون في الموت، والمجرمون، وأسرى الحرب، وشددت المجتمعات الليبرالية على أهمية القرارات والأفعال الجماعية، مقيمة بذلك المصالحة بين الحرية الفردية وبين مبادرات الجماعة «وهي أقوى ما تكون، حين تضفي الدولة عليها الشرعية، ويكون تنفيذها، مع ذلك تلقائياً وطواعية» من أجل الدعم المتبادل وإغناء الحياة للفقراء وللمضطهدين، والمجتمعات الليبرالية تتواصل دائماً في سبيل المزيد من التحسين الأخلاقي، وهي ترى إمكانية مد دائرة الحقوق؛ لتشمل الحيوانات، والأنواع، والبيئة وكل نظام محيط بكوكبنا وبيئته.

وبينت الحضارة الليبرالية عملياً، لا أن الحرية تستطيع أن تتعايش مع الرفاهية الكبيرة فقط، بل بينت كذلك أن الحرية شرط للنمو الكامل للمواهب الفردية ولثروة المجتمع، وبتعابير اقتصادية، فإن الحرية ليست حرة فقط، بل لها تكلفة سلبية، فالمجتمعات التي تتمتع بحرية أقل تخسر الثروة مثلما تخسر الحرية كذلك، والثروة الزائدة تميل أيضاً إلى زيادة الحرية، لا للأفراد وحسب، بل للمجتمعات

1. Peter Singer (1981) The Expanding Circle: Ethics and social-biology, Farrar, Straus & Giroux, New York.

بمجملها أيضاً، وإن حرية الناس الذين عاشوا في العصر الحجري كانت مقيدة تقييداً شديداً من الطبيعة، ومع اكتساب الحضارات ثروة أكبر واستقلالاً ذاتياً أكبر عن الطبيعة، باستخدام العلم، والتقانة والتجارة لرفع مستويات المعيشة، صار التقدم الأخلاقي ممكناً على نحو متزايد، وكان توسع الحرية مرتبطاً مع توسع الاقتصاد على يد فاعلين اقتصاديين جدد، هم الذين طالبوا بالحرية وحصلوا عليها؛ لأنهم كانوا نافعين من الناحية الاقتصادية، والدول الليبرالية تستقر على دائرة فاضلة، ففي هذه الدول تقود الثروة الكثيرة إلى حرية أكبر، وتقود إلى القدرة على نشر الثروة نشراً واسعاً في المجتمع، وهنا تقود الحرية الكبرى إلى مجتمع أكثر لا مركزية، وإبداعاً، وثراء، وعلى كل حال، فإن التوسع يشبه ركوب الدراجة، لأن توسع الليبرالية يحتاج إلى زخم مستمر، فإذا لم يكن من المستطاع تحسين المجتمع والاقتصاد، فإن عملية التقدم القائم على التعزيز المتبادل تهتز، وترتد إلى الوقوف، وتسير إلى عكس اتجاهها، وفي الكساد الكبير في الأعوام 1929 - 35، تقلصت الثروة، وتقلصت الحرية كذلك.

وفي الوقت الذي توجد فيه بعض البلدان في خارج الغرب، مثل اليابان، وجنوب إفريقية، وبوتسوانا، وبعض البلدان في أمريكا اللاتينية، يمكن أن تُعرّف بهذه الطريقة بوصفها مجتمعات ليبرالية، فإنها قليلة ومبعثرة، ولا نستطيع أن نأخذ دوام ترتيباتها أمراً مسلماً به.

وتتوافر بدائل عديدة للحضارة الليبرالية في خارج الغرب، وهي تضم الدكتاتورية الشخصية، واستبداد الحزب الواحد، ودولة الشرطة

والجيش، والدولة اللاهوتية، و«الدولة المخفقة»، التي تُرى أحياناً في أمريكا اللاتينية، وفي إفريقية، وفيها يكون المواطنون فريسة لجماعات الجريمة، أو للفئات السياسية، أو للخطف، أو للفوضى، وأخيراً هناك الدولة التي يمكننا أن ندعوها دولة شبه ليبرالية، ويوجد فيها ديمقراطية رسمية، واقتصاد سوق، وحكم القانون، ولكن عادات الليبرالية، ومثلها العليا لم تتجذر بعد تجذراً كاملاً، وتمتلك الدولة شبه الليبرالية العديد من منافع الحضارة الليبرالية ولكنها تفتقر على الأقل إلى واحدة من أساسيات الحضارة الليبرالية، وهي الحرية الكاملة للفرد، والمساواة في المكانة بين جميع المواطنين، والإحساس بالهوية المشتركة والعضوية المشتركة، وحرية الدين، والتسامح اللطيف نحو الأقليات، والشفقة والمساعدة العملية لأضعف الأعضاء في المجتمع، وقدرة العناصر المتباينة على التعاون تعاوناً فعالاً، والقدرة على البقاء واستبدال الحكومة السيئة.

وليس المجتمع الليبرالي الواسع الانتشار خاصية فريدة للغرب وحسب، بل هو شامل داخل الغرب، ويتبع نموذجاً مفرداً، مشتركاً سياسياً واجتماعياً، فهناك طبعة واحدة للحرية، والقانون، والعملية السياسية، وحماية حقوق الإنسان، تنعم بها كل بلدان الغرب، وهناك ثقافة سياسية واحدة، وطريقة حياة واحدة وحضارة واحدة، وهذا لم ينشأ نشوءاً آلياً أو بالفرض، لقد نما من تاريخ مشترك، ومن مجموعة مشتركة من الخبرات القانونية، والدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية.

كيف ظهر المجتمع الغربي الليبرالي؟

اعتمد نمو الحرية على تطورين عرضيين، وهما: استبدال أول اقتصاد مختلط في العالم بالإقطاع، بين الأعوام 1000 و1900، واختراع السياسة الحديثة في أوروبة وأمريكا بين الأعوام 1600 و1900.

كان الأوروبيون أول شعب في العالم يهرب من الاقتصاد الزراعي المتركز على وحدات الكفاية الذاتية، و«مقاطعات اللوردات»، التي اعتمدت على استخدام عمل الرقيق، وكان اللورد المالك للمقاطعة يمارس فيها السيطرة الاقتصادية والسياسية كلتيهما، وفي العام 1000، كان نظام الإقطاع هذا، الذي جعل الحرية مستحيلة، مهيمناً في كل أنحاء العالم، وبحلول العام 1900، اختفى بشكل مطلق، وبشكل فريد في أوروبة، وفي البلدان التي استقر فيها الأوروبيون.

لقد تراجع الإقطاع الغربي لسببين، الأول: هو ظهور الدول المدن المستقلة استقلالاً ذاتياً في إيطاليا وهولندا، وعلى شواطئ بحر البلطيق وبحر الشمال، وهذا المدى من الحكومة الذاتية في هذه الدول المدن ليس مسبوقاً، والمدن الدول الإغريقية القديمة فقط هي التي تمتعت بشيء يمكن مقارنتها فيه بها على نحو غامض، ولم يكن لذلك أي أشباه توازيه في الحضارات الآسيوية العظيمة أو الإسلامية، ففي المدن الأوروبية فقط استطاع التجار، والصناع المهرة، والحرفيون أن يهربوا من القيود الإقطاعية إلى الحرية[1].

(1) انظر روزنبيرغ وبيردزيل (1986).

والثاني هو التطور المتحرر، في أواخر عصور أوروبة الوسيطة ومطالع عصور أوروبة الحديثة، إذ كان التوسع التدريجي من «الزراعة للنقود» تنمية محاصيل؛ لتؤخذ إلى السوق وتُبادل بالنقد الحاضر، بدلاً من استهلاكها داخل مقاطعة الإقطاع، فالزراعة النقدية عجلت بالتصفية البطيئة للمطلوبات الإقطاعية المستحقة الدفع، وللرسوم، وحيازة ممتلكات صغيرة قابلة للتسويق، وهي التي حولت الفلاحين إلى مزارعين صغار مستقلين (مُزارع في أرضه)، وقد نمت الزراعة النقدية نمواً غير متساو في هولندا، وإنجلترا، وفرنسا قبل أن تنتشر إلى بقية أوروبة.

وما كانت التجارة والزراعة النقدية لتستطيعا أن تتكاثرا لو لم تكونا في صالح المصالح الاقتصادية للعديدين، وربما في صالح مصالح معظم ملاك الأرض الإقطاعيين، وكانت هذه القصة هي قصة التعاون أكثر منها قصة نزاع، فالتجار يحتاجون إلى زبائن، وطبقات ملاك الأرض كانت مشاركة راغبة مع التجار، وتبيع محاصيلها، وصوفها، وأخشابها ومعادنها لهم، وتشتري المستوردات منهم «التوابل، والتبغ، والسلع المجلوبة، ومع نمو التجارة والصناعة، نمت كذلك دخول ملاك الأرض، ونمت قيمة أراضيهم، وانتفع ملاك الأرض الرئيسون واللوردات من توسع العلم والتقانة، ومن التجارة، ومن الجامعات، ومن البلاطات الملكية، ومن الصنع والتعدين، من استبدال بنية اجتماعية اكثر تعقيداً وتنوعاً بالإقطاع، وفي هذه البنية الجديدة تطورت طبقة اعمال تجارية صناعية مستقلة استقلالاً ذاتياً بمعدل كبير لأول مرة

«في أوروبة كلها، وخصوصاً في إنجلترا وهولندا» وكان ذلك؛ لأن عادات التسامح وتبادل المصلحة الذاتية المشتركة بين الجماعات الاقتصادية المختلفة، والقبول في التغيير الاجتماعي جلب المنفعة الاقتصادية، وكانت كلها عادات واسعة الانتشار من قبل.

وقامت الحكومات الأوروبية بالتدريج بالتلاؤم مع الحقيقة الواقعة، وهي أن التنازلات الاقتصادية والسياسية للتجار كانت تستطيع فعلاً أن تعزز قوة الدولة وثروتها.

وفي إنجلترا وهولندا، وفي أماكن أخرى لاحقاً، تنازل الحكام عن السلطة في مصادرة الملكية في مقابل الحق في فرض الضرائب بانتظام وفق معدلات متفق عليها، ويقول المؤرخان روزنبيرغ وبيردزيل: «كان لهذا التغيير أثره، ولا نستطيع أن نقدِّر مغزاه إلا بمقابلته بالإمبراطوريات الآسيوية والإسلامية، التي لم تتبن هذا التغيير أبداً».

اختراع السياسة الحديثة

في وقت متأخر في التاريخ نوعاً ما، في القرنين السابع عشر والثامن عشر، اخترع الغرب علم السياسة الحديثة والديمقراطية الحديثة، وحدث الاختراع من خلال خمسة اضطرابات سياسية ذات مغزى هائل، وإن تكن عرضية بشكل رئيس، وهي: الثورة الإنجليزية في الأعوام 1640 ـ 60، والثورة الإنجليزية في العام 1688، والثورة الأمريكية في الأعوام 1776-83، والثورة الفرنسية في الأعوام 1789 - 94، والحرب الأهلية الأمريكية في الأعوام 1861 ـ 65.

ومن المؤكد أنه كانت هناك أفكار وحوادث أسبق، وكلها كانت تتفتح داخل أوروبة، وهي التي مهدت الطريق إلى السياسة الشعبية، وبين الأعوام 6000 و4000 قبل الميلاد كان الإغريق القدماء طليعة في الديمقراطية، مع مساواة سياسية واقعية بين المواطنين، وذلك طبعاً، على الرغم من استبعاد عدد ضخم من السكان الأرقاء، واستفادت أوروبة أيضاً فائدة دائمة من التراث العظيم للإمبراطورية الرومانية، وكان نظاماً علمانياً قانونياً، يطبق في كل مكان.

وفي المسيحية حدث تطوران لصالح الحرية أيضاً، **الأول**: هو أن حركة المسيح نمت ونضجت بوصفها طائفة يهودية صغيرة منحرفة، معتمدة من أجل وجودها على التسامح السياسي والحماية المتوفرين من الدولة الرومانية، ومن هنا، ومن البداية، قبل المسيحيون فصل الدين عن سلطة الدولة، وقبلوا بوجود سلطات دينية وعلمانية مختلفة «أعط الأشياء التي تخص قيصر لقيصر، وأعط الأشياء التي تخص الله لله»[1].

(1) ماثيو، 21.2. الفيلسوف روجر سكروتون، في كتابه الممتاز حول الغرب والإسلام يذكر نقطة هي أن قبول المسيحية لقانون علماني يقف في تناقض صارخ مع الإسلام، ففي الإسلام «يتأسس الأمر القانوني في الأمر الإلهي»، وقد كان محمد (ص) قائداً دينياً وسياسياً معاً، ونتيجة لهذا، فإن الدول التي لم تتأسس على القانون الإسلامي المقدس لا تعتبر شرعية.

Roger Scruton (2002) The West and the Rest: Globalization and the Terrorist Threat, ISI Books, Wilmington/Continuum, London.

والثاني: هو أن المسيحيين الأوائل جاؤوا بفكرة سياسية هي من أشد الأفكار التي ضربت العالم حتى الآن هدماً، وهي المساواة في المسيح لكل الأمم والأعراق، من العبيد والسادة، ومن الرجال والنساء[1].

وفي العام 1073 أمر البابا غريغوري السابع بأن من الممكن خلع الحكام إذا تحدوا إرادة الله، وطوال القرون التي تلت كان هناك قتال شرس لمرات عديدة بين الكنيسة والدولة، ومن غير قصد من البابا، فإنه كان قد فتح الباب للتعددية السياسية، وخلق فجوات بين السلطات المتنافسة التي كان يمكن احتضان الحرية فيها.

ومرة أخرى من غير قصد، سهل الإصلاح تسهيلاً عظيماً وصول الحرية، فمارتن لوثر وجون كالفن لم يكونا ليبراليين أوليين .. ففي دولة كالفن اللاهوتية، التي أقيمت في جنيف في العام 1541، كانت تقطع رؤوس الرجال المتزوجين الزناة، وكانت تُغرق النساء المتزوجات الزانيات، وكان الهراطقة (المنحرفون) يحرقون وهم أحياء، وكان الكفر والسحر جريمتين كبيرتين أيضاً، ومع ذلك، فهي تشدد على حقوق الفرد في أن يثور ضد سلطة أوروبا الثقافية والدينية العليا، وفي رفع دعاوى الضمير الفردي، وفي تجاوز محاولات الكنيسة الكاثوليكية للوقوف بين الله وبين الفرد، وفي التشديد على «كهانة كل

(1) وكما يلاحظ المؤرخ جيه. إم. روبرتس، فإن «زوجة من باث لتشوسر ليس من السهل أن نتخيلها في تركيا العثمانية أو الصين الكونفوشيوسية»

J.M. Roberts (2001) The Triumph of the West: The Origin, Rise and Legacy of Western Civilization, Phoenix Press, London.

المؤمنين»، وفي انتقال السلطة من الكاهن إلى الرجل العادي، وفي رفض لاهوت الكنيسة، وتشجيع كل مسيحي على أن يجد الحقيقة عن الله لنفسه ذكراً أو أنثى في الكتاب المقدس، وفي وضع الحقيقة في حكم الرجل العادي، وفي حث الفردية والمسؤولية الشخصية المستقلة استقلالاً ذاتياً، مدفوعة لا بالسلطة الأرضية بل بالرغبة في الوصول إلى الخلاص الأبدي، وتجنب اللعنة الأبدية، وفي السماح للحكام باستخدام الدين مبرراً لتحدي البابا، وفي تقسيم البلاد المسيحية إلى دول تضمر الولاء لأشكال مختلفة من الدين، وكان بذلك للإصلاح أثر لا يحصى في الحث على التعددية الدينية، وحرية الفكر والحرية السياسية.

وصارت البروتستانتية شارة دالة على الاحتجاج السياسي، تساعد مجموعات مثل الجامعات، والمدن، والمقاطعات، والبرلمانات على توسيع حرياتها، فالكليات والمدارس التي أنشأها الإصلاحيون ومكافحو الإصلاحيين علمت الكثيرين من الناس العاديين، وجعلت التفكير المستقل تفكيراً ممكناً.

وكان هناك انفجار في التنظير السياسي والفعل السياسي في أوروبة، وفي القرن السابع عشر أشاع جون لوك (1704 - 1632) ومفكرون آخرون فكرة «العقد الاجتماعي»، وهو أن الأفراد المستقلين ذاتياً وافقوا على الاجتماع معاً لتشكيل مجتمع، ولا نستطيع أن نغالي جداً في ضخامة العقد الاجتماعي الذي قال به لوك «فالدولة كانت

خادمة للشعب، وزيادة على ذلك، فالأساس الجوهري للجماعة، والجُسيم الأساسي للمجتمع، كان هو الفرد الحر والمستقل[1].

وما كانت الفكرة الثورية للعقد الاجتماعي لتستطيع الانتصار في إنجلترا من دون تطورين اثنين لا غنى عنهما: المسيرة الطويلة للتقدم الاقتصادي، وحدث سياسي عنيف جائحي.

ففي المجال الاقتصادي، كانت الحقيقة الرئيسة هي زيادة الاعتماد المتبادل والمصلحة المشتركة بين الطبقة القديمة لملاك الأرض وبين الطبقات «الوسطى» الصاعدة: التجار، وصغار المزارعين، والعمال المهرة والحرفيين، وقد سهل التجار على وجه الخصوص «تحضير الأرستقراطية» ، وهو ما جلب ثروة جديدة وأدواراً جديدة في المجتمع لكبار ملاك الأراضي[2]، فمن القرن السادس عشر إلى اليوم الحاضر، وافق البرلمان الإنجليزي (ولاحقاً البريطاني)، سواء موافقة

(1) كان توماس هوبز هو الذي أعطى الشهرة لفكرة العقد الاجتماعي في كتابه ليفياثان المنشور في العام 1651، ومما يبدو متناقصاً أن هوبز استخدم الفكرة ليبرر الدولة القوية، لأن المواطنين (في حسبانه) قد اختاروا أن يسلِّموا حقوقهم لها، لتجنب فوضى فقدان الحكومة، وكان مضمون العقد الاجتماعي الأقرب إلى أن يكون طبعياً، ومثلما شرحه لوك وكتاب عديدون آخرون، هو أن الحقوق ملك للأفراد، الذين قرروا بعقلانية أن يجتمعوا في مجتمع مدني، ولعل الأرجح هو أن الكاهن جان جيرسون كان أول من اخترع العقد الاجتماعي في القرن الخامس عشر، وقال: إن الرجال وافقوا على تجميع الموارد وطاعة القانون من أجل مصالح السلام، والأساس الشرعي الوحيد للدولة كان هو موافقة المواطنين.

(2) انظر روزنبيرغ وبيردزيل (1986).

فورية أو مترددة، على كل طلب مهم معين لطبقات الأعمال التجارية والصناعية، وأعطى بذلك المؤسسات ورجال مشروعات الأعمال استقلالاً ذاتياً متزايداً عن التدخل السياسي والديني، ومع حلول القرن السابع عشر، وعلى نحو متزايد طوال القرنين الآتيين، تعاون ملاك الأراضي الذين كانوا مسيطرين في البرلمان مع الطبقات الرأسمالية، بوصفهم شركاء صغاراً في سلسلة طويلة من المحاولات المتتابعة لتحديد السلطة الاستبدادية التي كان يتمتع بها التاج، وهو ما جعل البرلمان الحَكَم الأعلى للحكومة ولفرض الضرائب.

والحدث المحوري، الذي من دونه ربما ما كان للمجتمع الليبرالي أن يتطور أبداً في أي مكان، كان الثورة الإنجليزية بين الأعوام 1640 ـ 60، وقد شدد تحالف من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة المنشقة، ومن الفلاحين المستقلين، ومن التجار، ومن العمال المهرة على سيادة البرلمان، وحملوا السلاح ضد الملك الشرعي، وهزموا جيشه، ونفذوا فيه حكم الإعدام وأقاموا «كومنولثاً»، أي حكومة، يديرها البرلمان، وعلى الرغم من أن الملكية قد أعيدت في العام 1660، فقد كانت إلى درجة رئيسه على أساس السماح البرلماني، وقد تبين ذلك عملياً على نحو حاسم في «الثورة المجيدة» في العام 1688، إذ قام البرلمان بخلع سلالة ستيوارت مرة، وإلى الأبد، واستورد وليام وماري، الملك والملكة الليبراليين الدستوريين من الأراضي المنخفضة، وقبل العام 1776، كان «أصدقاء الحرية»، من أمثال فلاسفة التنوير الفرنسيين، ينظرون إلى إنجلترا بوصفها أكثر الأمم تقدماً سياسياً على ظهر الأرض، وكانوا

يعجبون بالطريقة التي قدَّم بها ملاك الأراضي الحاكمون تنازلات ذكية للطبقات الوسطى الصاعدة من التجار والصناعيين.

وقدَّمت الثورة الأمريكية كذلك بين الأعوام 1776 ـ 83 نسخة ليبرالية أفضل، وقد صُمِّم الدستور الأمريكي بمهارة؛ ليمهد الطريق إلى الديمقراطية، في الوقت الذي يفرض قيوداً وتوازنات قللت خطر العنف والاستبداد إلى الحد الأدنى، وقد قال توماس جيفرسون: إن إعلان الاستقلال سيكون هو «الإشارة لاستنهاض الرجال... ليتولوا بركات الحكومة الذاتية وأمنها ... [مستندة إلى] الحقيقة الملموسة، وهي أن جماهير البشرية لم تكن قد ولدت والسروج على ظهورهم، ولا مع قلة من المحظيين بأحذيتهم ومهامزهم، جاهزة لتركب عليهم»، وكانت الثورة الأمريكية، ضد التاج البريطاني، هي عمل المستوطنين البروتستانت القادمين من بريطانيا إلى درجة كبيرة جداً، وكانت بمجملها وفق التقليد المستمد من الثورة الإنجليزية من الأعوام 1640 و1688 «وهو توكيد مبدأ» لا فرض للضرائب من دون تمثيل، من التقاليد البريطانية للقانون، والعدالة، وحقوق الأفراد والملكية الخاصة، وتحديد السلطة التنفيذية[1].

وتم استكمال الثورة الأمريكية الليبرالية بعد حوالي 80 سنة، حين ربط أبراهام لينكولن ربطاً بارعاً بين نصر الشمال في الحرب الأهلية

(1) باستثناء الهنود والرقيق، كان 80 بالمئة من سكان الولايات المتحدة في العام 1790 من البريطانيين من الناحية العرقية، وكان باقي السكان إلى حد كبير من الألمان والهولنديين، وكان 98 بالمئة من السكان البيض من البروتستانت.

وبين النصر الديمقراطي على الرق، ففي خطاب غيتسبرغ في العام 1863، ربط الرئيس ربطاً لا يمحى بين الحرب وبين الوعد بأن «حكم الشعب بالشعب، وللشعب، لن يزول عن الأرض»، وصارت العقيدة السياسية الأمريكية «الديمقراطية، والمساواة، وعدم التمييز، وحقوق الفرد، والسلطة اللامركزية» هي المعيار الذهبي للأحرار الليبراليين في كل مكان.

وفي مقابل ذلك، فإن الثورة الفرنسية بين الأعوام 1789 ـ 94 حرَّضت على الديمقراطية والدكتاتورية معاً، وجلبت معها تراثاً باقياً، لا تراث «الحرية، والمساواة، والأخوة» وحسب، بل تراث رعب الدولة أيضاً، وانعكس التراث السابق في القانون المدني لنابليون في انتصار الملكية الدستورية بعد الثورة الفرنسية للعام 1830، وفي الجمهورية الفرنسية الثالثة من العام 1871، فتوريث رعب الدولة ازدهر في ثورات مناوئة لليبرالية في القرن العشرين في روسيا، وألمانيا، والصين، وفي أماكن أخرى عديدة.

تهديدات القرن العشرين لليبرالية

منذ العام 1900 واجهت الليبرالية والمجتمع الغربي الليبرالي ثلاث مجموعات خطيرة من التحديات:

1- التهديد القادم من الإيديولوجيات المنافسة التي كان لديها في بعض الأوقات دعم شعبي ضخم داخل الغرب.

2- التهديد القادم من الأعداء الخارجيين المرتبطين بإيديولوجيات لها دعم غربي تافه.

3- التهديدات القادمة من داخل المجتمع الليبرالي نفسه.

الإيديولوجيات المنافسة

ثلاث إيديولوجيات هي القومية ، والشيوعية، والفاشية تنافست مع الليبرالية من أجل القوة في القرن العشرين(1).

من القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر، جرى احتضان القومية في الغرب احتضاناً بطيئاً، فبعد العام 1871، ولأول مرة، صارت حدود معظم الدول الأوروبية الغربية محددة بالجنسية الوطنية، ونمت القومية الشعبية بسرعة، وأثارها مؤلفون شعبيون، والصحافة، والسياسيون. وقدمت الحماسة القومية والعنصرية العرقية الوقود «لتوسع أوروبة» «العصر المجنون للاستعمار» الإمبراطوري بين

(1) حين نتحدث على نحو صارم، فإن الفاشية التي هي من اختراع موسوليني وكانت الإيديولوجية التي حكمت إيطاليا من العام 1922 إلى العام 1945، يجب تمييزها عن النازية، لأن النازية قوة أكثر خبثاً ساماً وعنصرية عرقية سيطرت على ألمانيا من العامة 1933 إلى العام 1945. ولكن النازية في الاستخدام الشائع، مع ذلك، اندمجت مع الفاشية وانضوت تحتها، وهذا جيد بما فيه الكفاءة لأغراضنا هنا. فهتلر أصر على إنقاذ حكم موسوليني حين انهار تقريباً. وقال هتلر: «فبعد كل شيء، لقد كان الدوتشي هو الذي أرانا أن كل شيء كان ممكنا». وكما يلاحظ المؤرخ نورمان ديفيز، أن ما أراهم موسوليني أنه كان ممكناً هو هدم الديمقراطية الليبرالية التي لم تعمل في العام 1922 أي محاولة قطعياً لمقاومة الفاشيين.

العام 1870 والعام 1914، حين تم الاستيلاء على معظم إفريقية بأيدي القوى الأوروبية، وتبع ذلك سباق أسلحة أوروبي مسعور متزايد، بلغ ذروته في الحرب العظمى بين الأعوام 1914 ـ 1918، وأدت الحرب إلى مجزرة غير متوقعة وغير مسبوقة، وسحقت ثقافة الغرب المشتركة الواثقة، فالقومية الخبيثة السامة كانت هي السبب الرئيس لصعود هتلر إلى السلطة، ولتدميره شبه الكامل للحضارة الغربية.

بعد العام 1945، تم استئصال القومية العنيفة في أوروبة، وكان ذلك في جزء منه تحت رعاية أمريكية، عن طريق بناء الاقتصاد الأوروبي والمؤسسات السياسية، وعودة الازدهار، وعزمت القوى الأوروبية على ألا يحمل بعضها السلاح، مرة ثانية مطلقاً، ضد بعض، وقد حقق الاتحاد الأوروبي إلى حد كبير هذا الطموح[1] وإن القومية، وهي اختراع أوروبي، مازالت خطرة خطراً متطرفاً خارج الغرب، ولكن القومية لم تبق بعد الآن قادرة على تهديد سلام الغرب ووحدته أو مؤسساته الليبرالية، وهذا تقدم بارز على الموقف في العام 1900.

ومثل القومية كادت الشيوعية والفاشية أن تدمرا تقريباً المجتمع الغربي الليبرالي في أثناء القرن العشرين، وكان هذان سرطانين داخليين، جرى احتضانهما في الغرب، ففي العام 1941، مسحت الشيوعية والفاشية عملياً الليبرالية عن وجه أوروبة القارية، وكانت

(1) إن القومية الخبيثة السامة لم تستأصل كاملة من أوروبة، كما تظهر الحالة في البوسنة، ومع ذلك، فإن القومية الأوروبية الضارة خُفضت إلى مستويات كانت تبدو متفائلة تفاؤلاً جامحاً في العام 1945.

أمريكا الشمالية، وأسترالآسيا، ولمدة غير محققة كانت بريطانيا العظمى، هي تقريباً البقايا الوحيدة من الحضارة الغربية.

وهذا ما أوضح النقطة المنخفضة في المصائر الليبرالية، وبعد العام 1945، اختفت الفاشية بوصفها قوة سياسية جماهيرية في الغرب، وتم فرض الشيوعية على ألمانيا الشرقية، وعلى معظم أوروبة الوسطى والشرقية، ولكن الشيوعيين بعد العام 1945، لم يربحوا الانتخابات الوطنية قطعياً في أي بلد غربي، وبعد سقوط جدار برلين في العام 1989، لم تشكل الشيوعية أي تهديد مطلقاً لليبرالية الغربية.

التهديد من الأعداء الخارجيين

في بعض الأحيان، كانت القومية، والشيوعية، والفاشية قد حازت على الدعم الجماهيري الغربي، وفي مقابل ذلك، فإن أهم التهديدات الخارجية ذات المغزى للغرب اليوم لا تمتلك إلا القليل جداً من الجاذبية الشعبية في الغرب، والمخاطر الحالية، طبعاً، هي الأشكال المختلفة من الإرهاب، والمناوأة الإسلامية لليبرالية، وعلى وجه الخصوص «الإسلامية».

كيف نقدر التهديد الموجه إلى الغرب من القاعدة، ومن الثوريين الإسلاميين الآخرين؟ إن الحركة الثورية الإسلامية قليلة جداً، ولا تمثل الغالبية الكبيرة من المسلحين المتدينين، ويكمن التهديد، لا في أعداد المتطرفين، بل في شدة آرائهم، وفي دعمهم، في أوقات مختلفة، من أنظمة الحكم في إيران، والعراق، وليبيا، وأفغانستان، والسودان،

وسورية، وكوريا الشمالية، لا بل من بعض البلدان الغربية من حين إلى آخر كذلك، وتَردُّد الغرب في دعم القضية الفلسطينية يزيد الدعم الشعبي للمتعصبين، الذين ينظرون إلى الحضارة الغربية بوصفها شكلاً من أشكال البربرية الوثنية، لا تعبد الله بل تعبد المال[1]، وعلى كل حال، فإن هجمات ابن لادن على الغرب ليست مصممة لقلب الحضارة الغربية، بل هي بالأحرى مصممة لتشجيع الغرب على وقف دعم أنظمة الحكم «الوثنية» وعلى أن ينسحب من الشرق الأوسط، وعلى أن يحرض المسلمين على قلب أنظمة الحكم تلك.

والتهديد الموجه من الجماعات الإرهابية ليس جديداً، ولكن الدعاية المرتبطة بها، وليس فقط مع أحداث 11/9، تستطيع بسهولة أن تجعل أبداننا تقشعر، ففي العام 1995، قامت الطائفة اليابانية أوم شينريكيو - وهي خليط منحرف من الهندوسية والبوذية تخيلت وجود مؤامرة كونية رأسمالية من اليهود، ومن الماسونيين الأحرار، ومن الأمريكيين - بقتل 12 شخصاً، ودمرت حياة الآلاف الآخرين عن طريق إطلاق غاز الأعصاب في أنفاق طرق طوكيو، وروت مجلة الإيكونومست في تقاريرها أن هذه الطائفة كانت تمتلك بلايين الدولارات، وكانت قد اشترت طائرة عمودية روسية متطورة جاهزة لرش الكيماويات القاتلة، ومع ذلك، ومع إدخال حوادث ابن لادن في

(1) انظر:
Ian Buruma and Avishai Margalit (2004) Occidentalism: A Short History of Anti-Westernism, Atlantic Books, London.

الحساب، فإن عدد الهجمات الإرهابية الدولية وعدد إصاباتها قد تراجعت تراجعاً مهماً منذ أواسط الثمانينيات من 1980[1].

التهديد الإرهابي تهديد حقيقي واضح، ويجب ألا نقلل من قيمته، وإن الغرب محق في أن يكون يقظاً، ومن المستحيل أن نستبعد اعتداء إرهابياً كارثياً فعلاً، ومع ذلك، فلو قسنا التهديدات الخارجية المعاصرة الموجهة إلى الليبرالية، مقابل عشرات الملايين الذين قتلوا أو استعبدوا في القرن الماضي نتيجة للقومية، والعنصرية العرقية والدول الشمولية «وهي أورام نشأت من داخل الغرب، وكادت تقريباً تدمر الحضارة الغربية الليبرالية، لكنها الآن اختفت عملياً من الغرب» لوجدنا أن هذه التهديدات الخارجية المعاصرة الموجهة إلى الليبرالية تبدو تهديدات تافهة.

ومع ذلك، فالأطروحة التي ناقشها عالم العلوم السياسية فرانسيس فوكوياما، التي ترى أن الليبرالية الغربية قد انتصرت مرة، وإلى الأبد[2]، هي أطروحة غير صحيحة لا تصمد للاختبار، فالليبرالية اليوم أقل تجذراً قوياً في المعتقدات الغربية، والمواقف الغربية مما كانت عليه في العام 1950 أو العام 1900.

(1) انظر البيانات في فيرغسون (2004)، اللوحة في ص 125.

2. Francis Fukuyama (1992) The End of History and the Last Man, The Free Press, New York.

خمسة تهديدات لليبرالية أنزلتها هي نفسها بنفسها

أوضح خطر هو دائرة من الإرهاب والاستبداد المحلي يعزز أحدهما الآخر بشكل متبادل، فالحرب عدو القيم الليبرالية، فإذا كانت الحرب المستمرة والشديدة ضرورية لهزيمة الإرهاب والتهديدات الخارجية الموجهة للغرب، فإن القيم الليبرالية سوف تخفق، فلقد أدخلت إدارة حزب العمال البريطاني قانوناً لمكافحة الإرهاب يعطيها السلطة لسجن المواطنين إلى أجل غير محدد من دون توجيه تهمة أو محاكمة، وعلق اللورد وزير العدل هوفمان بالقول: «إن التهديد الحقيقي لحياة الأمة، بمعنى الشعب الذي يعيش وفقاً لقوانينه التقليدية وقيمه السياسية، يأتي لا من الإرهاب، بل من قوانين من أمثال هذه» ولقد كان محقاً في أن يقول ذلك، إذ إن الإرهابيين يربحون، حين نتخلى نحن عن مبادئ العدل والديمقراطية نفسها التي نسعى إلى الدفاع عنها.

والإرهابيون يعرفون أن الأفكار غير الليبرالية يتغذى بعضها على بعض، وهذا هو السبب الذي يحاول الثوريون من أجله أن يسخروا بطريقة مهينة من ردود الفعل المتطرفة، وأن يشجعوا على المزيد منها باستمرار، فهل سيحافظ الغرب على حس من الانسجام، ويستمر بالالتزام بالقيم الليبرالية، ولو كان ذلك تحت الاستفزاز الشديد؟

ويأتي خطر، له علاقة بما تقدم، في المظهر الجديد لما يسمى «الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي» وهو فرض الديمقراطية بالقوة،

ويحاجّ المحافظون الجدد من أمثال المؤرخ البريطاني نيال فيرغسون في أن العديد من البلدان سوف تنتفع من فرض حقبة من الحكم الغربي؛ لكي تخلق مجتمعاً حراً وديمقراطياً، وهذا المجتمع الحر الديمقراطي، حسب كلمات فيرغسون: لا يضمن التبادل الدولي الحر للسلع، ولليد العاملة ولرأس المال فقط، بل يخلق كذلك، ويحفظ الظروف التي لا تستطيع الأسواق من دونها أن تعمل «أي السلام والنظام، وحكم القانون، والإدارة غير الفاسدة، والسياسات المالية والنقدية المستقرة» ويوفر كذلك السلع العامة، مثل البنية التحتية للنقل، والمستشفيات والملابس[1].

ومن دون انتشار الحضارة الليبرالية العميقة انتشاراً حقيقياً، كما يقول، فإن الغرب لن يستمتع بالأمن، ويشير فيرغسون إلى الفرض الناجح للديمقراطية على ألمانيا الغربية واليابان بعد العام 1945 ومن ذا الذي يستطيع أن ينازع في أنه عزز السلام والازدهار والسعادة تعزيزاً عظيماً في ألمانيا، واليابان، وفي كل أنحاء العالم؟

إنها مناقشة مغرية، ولكنها ليست مقنعة، فدع جانباً غرابة تقديم الديمقراطية بفضل قوة خارجية، فإن إعادة بناء بلاد كانت قد سويت بالأرض بشكل كامل بفعل الحرب، مثلما حدث في ألمانيا واليابان في العام 1945، في بلاد لم يكن فيها سلطة، ولا مجتمع يعمل، والقليل جداً من الطعام، ولا يوجد فيها مقاومة، ليس بناء مشابهاً لشن حرب ضد نظام حكم يعمل، فهل يمكن للحرب التي يشنها الغرب في أي

(1) نيال فيرغسون (2004).

وقت من الأوقات أن تُشن بطريقة ليبرالية؟ السوابق «ابتداء من حرب البوير، إلى عواصف النار التي أطلقت ضد دريسدن من القوات الجوية الملكية، ومن القوات الجوية الأمريكية في العام 1945، وإلى هيروشيما، وإلى فيتنام، وإلى أبو غريب، وإلى خليج غوانتانامو» كلها سوابق لا تبشر بالخير(1).

باستثناء الاعتراضات الأخلاقية والتاريخية ضد الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، هناك سببان قويان يعللان لماذا لن يعمل الاستعمار، وكما يقول نيال فيرغسون نفسه، فإن إمبراطورية أمريكية ليبرالية تحتاج إلى التزام طويل الأمد، يجب أن يقاس بالعقود أكثر منه بالسنين، وهو التزام من غير المرجح جداً أن تلتزم به أمريكا، ويقول فيرغسون: على الرغم من ضخامة ثروة بلادهم وسلاحهم القاتل، فإن الأمريكيين لا يمتلكون إلا القليل من الاهتمام بالنشاط الأساسي الأوحد الذي من دونه لن يكون من المستطاع تأسيس إمبراطورية حقيقية دائمة، وإنهم مترددون في أن «يذهبوا هناك»، وهم حين يذهبون، لا يستطيعون الانتظار ليغادروا وليعودوا إلى أمريكا، والاستعماريون الإمبراطوريون البريطانيون كانوا منهمكين فعلاً في مهمتهم في نشر التجارة، والمسيحية، والحضارة، ويتابع

---

(1) قصفات الرعب في دريسدن، في ليلة 13 شباط/ فبراير، وصباح 14 شباط/ فبراير من العام 1945 قتلت على الأقل 120.000 مدني ولاجئ غير مسلحين، وربما قتلت أكثر بكثير، ودمرت كل القلب القديم للمدينة، ولم يكن لذلك تقريباً أي أثر عسكري، وكما قال الرئيس الألماني هيرزوغ في العام 1995م: لقد كانت «مثالاً لتحويل الإنسان إلى وحش في الحرب».

فيرغسون: «والتناقض مع الأمريكيين اليوم نادراً ما يمكن أن يكون أكثر بروزاً»، فالولايات المتحدة تستورد الموهبة، ولا تصدرها، ويختم بالقول: إن الإمبراطورية الأمريكية «ليست إمبراطورية من دون مستوطنين وحسب، ولكنها أيضاً إمبراطورية من دون مديرين».

ويقول فيرغسون: إن أمريكا «إمبراطورية في إنكار»، وهي «تميل إلى ارتكاب غلطتين، (الأولى):... تخصص موارد غير كافية للنواحي غير العسكرية للمشروع، والثانية: وهي غلطة أخطر، هي أن أمريكا تحاول إحداث التحول الاقتصادي والسياسي في إطار زمني قصير قصراً غير واقعي».

إنها أسوأ مما يقر فيرغسون، فالاستعمار الإمبراطوري الليبرالي قد آذى سمعة أمريكا الليبرالية أذى ضخماً، وصورة الولايات المتحدة في خارج أمريكا «بوصفها التجسيد العظيم للحرية والأمل للإنسانية» كانت دائماً قوة من قواها العظيمة، ومصدراً من مصادر «القوة الناعمة» للدبلوماسية الأمريكية وللأعمال التجارية والصناعة على حد سواء، وأمريكا، بوصفها «علامة» تعني الحرية، و«شعارها» هو تمثال الحرية، ويقول سايمون آنهولت، وهو خبير تسويق، ووضع علامات تجارية، «أما اليوم» فإن غير الأمريكيين يفكرون بشكل متزايد في أن «أمريكا ترمي وزنها في جميع الاتجاهات، ثقافياً، وسياسياً، واقتصادياً، وعسكرياً، والمشكلة هنا هي أنه بعد بدء استخدام القهر، يتوقف الاقتناع عن العمل»[1]، والثمن لدفع الليبرالية دفعاً قوياً هو أنه

1. Simon Anholt (2004) 'Brand America at the Crossroads' in critical Eye, December 2004 - February 2005, London.

يدمر النفوذ الساحب القوي للّيبرالية، ويدمر جاذبية الرؤية الليبرالية، بالنسبة إلى أولئك الذين هم حالياً خارج مجال الليبرالية. وإن أي مسوق ماهر يعرف أن النفوذ الساحب يعمل في نهاية الأمر عملاً أفضل من النفوذ الدافع.

إذا كان التهديدان الأوليان لليبرالية، من الناحية الجوهرية وفق حصافة الغرب، هما معاداة الإرهاب والاستعمار الإمبراطوري «الليبرالي»، فإن التهديد الثالث أصعب تجنباً أو مكافحة، إذ إنه يكمن في تشظي العملية السياسية وتخفيض قيمتها، وإن اختراع علم السياسة الحديث، مع برلماناته، وأحزابه، والانغماس الجماهيري للمواطنين في السياسات، كان خطوة جوهرية في بناء الحضارة الليبرالية، والآن، فإن التعزيزات السياسية لليبرالية يجري قضمها قليلاً قليلاً، وإن الديمقراطية الليبرالية تحتاج إلى مسرح سياسي مهم، وإلى جمهور واسع ومقدِّر لها، جمهور يسهم بالسياسة إسهاماً حماسية.

ولكن الاتجاه في المجتمع هو إعادة موضعة المسرح، ونقل بقعة الضوء من الغرفة المنتخبة إلى ستوديو التلفاز، ومن القضايا الجادة الخطيرة عن السياسية والحكومة إلى الأمور التافهة عن الشخصيات وعن الفضائح، وإن الاتصال السياسي الآن ينتمي إلى وسائل الإعلام، وهو فضاء حرمت منه الحكومات والمعارضات بشكل لا رجعة عنه، وهم حين يحاولون أن يواجهوا تلفيقاً بتلفيق، فإنهم يبدون حتماً صغار القيمة وتافهين، والآن بعد أن صارت الطبقات

الاجتماعية والاقتصادية أكثر تنوعاً وأقل أهمية، فإن نظام الحزب في خطر من فقدان جاذبيته ورنينه، وقد تناقصت جاذبية الأحزاب التقليدية المستندة إلى الطبقة استناداً غريزياً، وحيثما يوجد الاهتمام العاطفي في الأفكار السياسية «مثلما هو مع الكثير من اهتمامات الشباب بشأن العولمة، والضرر البيئي، والتجارة المنصفة ودين البلد المتطور» فإنه عادة يفشل في أن ينعكس في أولويات سياسات التيار الفكري السائد.

وحين يصير المجتمع أكثر تعددية، وتعزز ادعاءات التواصل الكوني والهوية المحلية بعضها بعضاً، فإن السلطة تستقر بشكل متزايد في كل مكان، وليس في أي مكان، وقد تآكلت قوة الدولة القومية والبيروقراطية القومية، والإثارة السياسية تنتمي إلى المنشقين عن الجماعة وإلى «شخصيات» ، ونجوم جدد تفرح وسائل الإعلام في قذفهم إلى شهرة مختصرة، ثم بعدئذ ينطفئون، فليس مثيراً للدهشة أن أعمال التصويت في كل مكان في الغرب تُظهر أن الاحترام العام للسياسيين والثقة في الحكومة قد تدهورا تدهوراً كبيراً منذ الستينيات من 1960.

والمشكلة الرابعة لليبرالية: هي تزايد انفصالها الكامل عن قاعدتها الأخلاقية، والالتزام الذي يزداد ضعفاً نحو الجماعة، وفقدان العاطفة الحقيقية من ناحية الليبراليين، ولقد كانت الليبرالية فرعاً من المعتقدات اليهودية والنصرانية، وأنجح المجتمعات، وأنجح العناصر في المجتمع هم أولئك الذين يجمعون الليبرالية مع الاعتقاد بأن هدف

الإنسانية يوجد فيما وراء الرضا المادي، والناس والمجتمعات تزدهر، حين تعتقد بقضية ما فيما وراء التقدم الذاتي، ومؤسسات الأعمال التجارية والصناعية نفسها تحتاج إلى قضية خارج نفسها من أجل أن تزدهر.

وفي البداية، وجد الليبراليون قضية مثيرة في الليبرالية نفسها في حملات من أجل إلغاء الرق، ومن أجل توسيع التصويت نزولاً في السلم الاجتماعي، ثم من أجل حق الاقتراع الشامل للذكور، وأخيراً من أجل التصويت لصالح جميع النساء، ومن أجل إنهاء التمييز ضد الكاثوليك، واليهود، والسود، واللوطيين، ومن أجل إلغاء العقوبة البدنية، وعقوبة الإعدام، ومن أجل إصلاح قانون العقوبات، ومن أجل حماية العمال واتحاداتهم العمالية، ومن أجل العمل على تلطيف كوارث الجوع والبطالة، أو إزالتها إزالة جوهرية، ومن أجل التعليم الشامل، ومن أجل توفير التأمين الصحي أو التطبيب الحكومي الاجتماعي، ومن أجل حق النساء في السيطرة على أجسادهن، ومن أجل إعادة توزيع الدخل.

في هذا الضوء، كان الليبراليون فعالين في القرن العشرين، مثلما كانوا في القرن التاسع عشر، ولم تكن كل القضايا الليبرالية ناجحة نجاحاً كاملاً، ولكن القتال في المعارك الكبرى كان قد انتهى منذ وقت طويل، وكسبت المعارك في معظم البلدان الغربية، ومع ذلك، فإن النصر الأساسي لليبرالية قد ضيق جاذبية الليبرالية، وأخمد نارها، وهناك بعدئذ تأثير الاقتصاد الجديد المشخصن، وهناك الآن القليل

لتفريق السياسات الاقتصادية للاشتراكيين الليبراليين (خارج فرنسا، وألمانيا، على الأقل) عن المحافظين، نظراً إلى أن الاشتراكيين الليبراليين قد احتضنوا قوى السوق، وأقروا بالفعالية المحدودة لفرض الضرائب العالية، ومعظم الليبراليين قد تخلوا عن هذه الأرض من أجل أسباب اقتصادية وانتخابية جيدة جداً، ولكنهم بفعلهم هذا قد خسروا جزءاً من الجاذبية العاطفية لليبرالية ابتداء من بنجامين فرانكلين إلى جيه. كي. غالبريث، وهو الالتزام العميق بحماية أكثر قطاعات المجتمع فقراً، وبمساعدتها.

وعلى كل حال، فإن أبرز ما يلاحظ، هو الفراغ الأخلاقي المتزايد لليبرالية، وفقدانها للمثل العليا السامية والخواء العاطفي في قلبها، وإن بذور سقوط الليبرالية تكمن في نجاحها، فقد كان على الليبرالية لكي تصل إلى الإثمار الكامل أن تخلق مجتمعاً ثرياً، ومعقداً واجتماعياً إلى درجة ملحوظة، وإن الليبرالية هي أكثر من الاستقلال الذاتي الوطني، وأكثر من الديمقراطية، وأكثر من مجموعة أفكار سياسية مزدهرة، ومؤسسات، وأحزاب، وأكثر من حكم القانون، وأكثر من عادات الأمانة في الأعمال، وفي الإدارة، فجميع هذه الصفات جوهرية من أجل ليبرالية نابضة بالحيوية، ولكن المجتمع الليبرالي، وهو في ذروته، يعتمد أيضاً على روح الجماعة، وعلى مجموعة من الافتراضات المشتركة عن فضائل طريقة الحياة المتسامحة والإنسانية الرحيمة، وعلى هوية مشتركة ومساواة في المكانة لجميع المواطنين، وعلى قيمة المعرفة والعقل، وعلى أهمية الإنصاف، وعلى ميزات الثقافة التعددية، والمتنوعة، واللامركزية.

المجتمعات ذات الحكم الذاتي تحتاج إلى روابط قوية من الثقة والاحترام بين مواطن ومواطن، وبين المواطن والمؤسسات العامة، وبين المواطنين العاديين والنخب من كل الأنواع، وبين النخب المتنوعة، والعناصر المختلفة من المجتمع، والبلدان الغربية المختلفة، لن تفكر تفكيراً متشابهاً ـ ويجب ألا تفكر تفكيراً متشابهاً ـ، ولكن إذا كان يجب على الحضارة الليبرالية أن تعمل على الوجه الصحيح، فعليها أن يكون هناك احترام متبادل وإحساس داعم من الهوية المشتركة، والهدف المشترك، ففي عالم لامركزي، لا تقدم المصلحةُ الذاتية المتنورة هذا الرابطَ، ويغدو الإيمان الشديد بفضائل الليبرالية أكثر صعوبة في الوقت الذي تنضج فيه المجتمعات الليبرالية، وتنمو؛ لتكون أكثر تعقيداً وازدهاراً، وفي الوقت الذي ينسى فيه المواطنون ما تطلَّبه بناء مثل هذه الثقافات في المقام الأول، ويتلاشى الإحساس بالارتباط المشترك، وإن أثرى المجتمعات وأكثرها تعددية هي تلك التي تقع أكثر من غيرها فريسة للاستهلاكية الفارغة، وللارتياب الساخر بشأن الخير المشترك، وفي بعض المجتمعات الليبرالية التي تعتبر أكثر المجتمعات تقدماً، وأبرزها طبعاً في أمريكا، تتعقد المشكلة، حين يُستخدم القانون، وهو حتى الآن ضمان للإنصاف، وللمساواة بين المواطنين، لابتزاز المال من الرفاق المواطنين.

وأخيراً، هناك دافع قوي داخلي لليبرالية نحو تدمير الذات، وإذا ما أخذ ذلك الدافع إلى الطرف غير المنطقي، ولكنه المُرْضي عاطفياً، فإن الليبرالية تنكر تفوقها الخاص، وإن السعي نحو المساواة الدقيقة في

النتيجة الحاصلة يستطيع أن يدمر المساواة في الفرص، ففي الوقت الذي تبقى فيه المعركة ضد عدم المساواة قضية رئيسة لمعظم الليبراليين، فإنها تستطيع أن تنزلق بسهولة إلى قمع الفردية، وإن الاعتقاد الخاطئ بما هو ـ صحيح سياسياً ـ يميل إلى إهمال النتائج غير المريحة للبحث العلمي، وخصوصاً في علم النفس، وفي علم الحياة.

وأكثر أهمية من ذلك، أن إنكار السلطة يستطيع أن يولد العقم الذاتي الذي تبدو فيه أي وجهة نظر على نفس الدرجة من الجودة مثل غيرها، وفلاسفة ما بعد الحداثة يشددون على أن كل شيء نسبي، فالحقيقة قد صارت «مخصصة»، وهي مسألة رأي شخصي أكثر مما هي مسألة ذات أهمية تم الوصول إليها بالبحث العلمي والحوار العام، وبذلك يصل الأمر بنا إلى أن نرى أنه لا شيء أفضل من أي شيء آخر غيره، وليس هذا وحسب، بل إننا لا نستطيع أبداً أن نعرف طبيعة الحقيقة أيضاً[1]، وهذه الفلسفة الملتبسة قد استعملت لتبرير الجهل ولرفع العاطفة، والرأي فوق العقل والعلم.

إن النسبية تؤدي إلى تآكل الإحساس بالمسؤولية الذي من دونه لا يستطيع المجتمع الليبرالي أن يعمل، وإن الحوار العقلي المعلل لا

(1) من أجل فحص للنسبية من عقل منصف، انظر:

Simon Blackburn (2005) Truth: A Guide for the Perplexed, Penguin, London.

وكما يقول ـ إن هذه الخصوصية للاعتقاد هي التي تقود إلى النسبية: اعتقادي يتوقف عن الوجود في الفضاء العام، وهو معروض للقبول أو للرفض من كل الذين يعيرونه انتباهاً، ويبدأ الأمر على أنه مسألة «حقيقتي» أو «حقيقتك»... وهذه ليست هي الكيفية التي نحتاج إليها لنفكر في المعتقدات ص (9).

يستطيع إلا أن يفرض الالتزامات على أعضاء المجتمع إذا هم أقروا بأن هناك شيئاً من مثل ـ الخير العام ـ وأن بعض السياسات، وبعض أشكال السلوك الأخرى تكون أفضل من غيرها.

وكذلك، يجري الآن تقويض الإحساس بالمسؤولية من جراء تطور آخر، فقد صارت الأضرار الشخصية، أو عيوب المجتمع، تعتبر بشكل متزايد عذراً للسلوك غير الاجتماعي، وتوصلت قطاعات كاملة من المجتمع الغربي إلى النظر إلى نفسها بصفتها ـ ضحايا ـ وهم لذلك غير مسؤولين قانونياً عن نتائج أعمالهم، والصناعة الكبيرة بالجملة «للضحايا» قد أوقعت ضرراً لا يحصى في كل من الضحايا، وفي إحساس المواطنين بالمسؤولية المشتركة التي تحتاج إليها المجتمعات الليبرالية، ويزودنا التاريخ بأمثلة لا تحصى عن المواقع التي استطاعت فيها الروح الإنسانية أن تقهر الحرب، والعجز، والطاعون، والاضطهاد، والمجاعة، والفيضان، والفقر، والتمييز الاجتماعي، ومعسكرات الاعتقال والسخرة كذلك، وإن من المهين أن نفترض أن الناس المتضررين شخصياً لا يستطيعون الارتفاع فوق محنهم، وإن معاناة كل الحياة البشرية وصعوباتها تبرر نوعاً ما النشاط المعادي للمجتمع، أو النشاط الإجرامي، وإن الحضارة الليبرالية ـ في كلا مظهريها الأنجلوساكسوني والديمقراطي الاشتراكي ـ تستقر فوق التغلب على المشكلات، وعلى السلوك السيئ، لا على مضاعفة هذه المشكلات والسلوكيات السيئة، وعلى تولي المسؤولية، لا على إنكاره[1].

(1) انظر:

Yvonne McEwan, 'Manufacturing Victims', LM, March 1999, pp.18-19.

إن الاحترام من دون تمييز لكل الثقافات، ولكل الناس، ولكل وجهات النظر يتدرج بظلاله نحو قبول معاداة التفكيرية ومعاداة الليبرالية، فلو كان كل شيء نسبياً، لكنا نستطيع آنئذ أن نبرر أي شيء ـ مثل أكل لحوم البشر، والإبادة العرقية، ويمكن أن يكون الليبراليون ممن يسهل إقناعهم واستغلالهم، وإن محاولة رؤية كل وجهات النظر، وقد صُفِّيت من خلال العقل الليبرالي، يمكن أن تقود إلى الاعتقاد بأن المتعصبين من أمثال الانتحاريين المتفجرين إذا كانوا يكرهوننا، فلابد آنئذ أننا قد عملنا شيئاً مزعجاً ليولد هذه الكراهية، وفي تلك الطريق يكمن انتحارنا الخاص ـ إذا كنا لا نستطيع أن نعرف الأعداء الفاشيين، وإذا كان الليبراليون لن يقاتلوا من أجل القيم الليبرالية، فإن البرابرة آنئذ سيربحون، وإن ليبراليين غربيين كثيرين غير راغبين على نحو معاكس في الاعتراف بالقيم غير المسبوقة للمجتمع الليبرالي الغربي، وهي شيء لم تكن المجتمعات الأخرى قادرة على إنتاجه، شيء يستحق الدفاع عنه، والقيام بتوسيعه، عن طريق الموافقة المتبادلة المشتركة، وعلى نحو معاكس، فإن أخطر عدو لليبرالية هو الليبرالية.

خاتمة

على الرغم من أن الغربيين نادراً ما يقرون بذلك، فإن الحضارة الغربية الليبرالية توفر لمواطنيها منافع أكبر بكثير إلى حد بعيد مما توفره الحضارات الأخرى، والمجتمع الليبرالي، هو أنجح صيغة تم

ابتداعها حتى الآن، ويحتمل أن يمكن ابتداعها في أي وقت، من أجل مزجها لاقتصاد نابض بالحيوية والحراك مع مجتمع يتحلى بأعلى المثل العليا للكرامة الإنسانية وللاستقلال الذاتي.

إن الغرب فريد في امتلاكه، في كل بلدانه، مع انقساماتها السياسية المختلفة والمتغيرة دائماً، ثقافة مشتركة سياسياً واجتماعياً، وهي الحضارة الليبرالية، وفي الوقت الذي توجد فيه مجتمعات ليبرالية خارج الغرب، فإن المثال النموذجي هو دول شبه ليبرالية، أو دول ضعيفة أو استبدادية.

إن الليبرالية هي نظرية الحرية وممارستها، ولقد ظهرت الحرية نتيجة لتطورات تاريخية أوروبية وأمريكية فريدة، وبشكل ملحوظ نتيجة تأثير المسيحية، وتأثير الأفكار الراديكالية، وأفكار المساواة، والكفاح من أجل الحقوق السياسية التي قام بها الأفراد الواثقون بأنفسهم، والمهمون اقتصادياً، والمجموعات الواثقة بنفسها، والمهمة اقتصادياً، وتطور عادات التعاون عبر المجموعات والطبقات، التي زودتها الثروة بالطاقة المتزايدة.

يصعب كثيراً على البلدان الواقعة خارج الغرب أن تطور حضارة ليبرالية، وذلك ببساطة؛ لأن تاريخها مختلف عن تاريخ الأوروبيين والأمريكيين، وإن البلدان الأخرى تحتاج إلى المسير عبر مدة طويلة من الصراع والنزاع البناء، ومن ضمنها تطور التعاون وارتقاؤه بين المجموعات الاجتماعية المختلفة، إذا كانت الديمقراطية والحرية يجب أن تعنيا أي شيء، حين تصلان وتتحققان، ومن الممكن أن ضغوط

العولمة والوصول الفوري للأعراف الغربية المسبقة التغليف قد تحرم الكثير من البلدان غير الغربية من الوقت والعزلة اللازمين لتطوير مجتمعاتها الليبرالية الخاصة بها والقابلة للحياة، وطبعاً، إن أولئك الموجودين خارج الغرب قد يطورون كيانات سياسية ومجتمعات أفضل كذلك، ويبنون على النماذج الغربية أو مستقلين عنها، ولكن الإشارات الأولى غير مبشرة بالنجاح، وإذا لم تطور نماذج أفضل، فإن أفضل ما يمكن أن يؤمل فيه هو نوع ما من أعمال التقليد غير الأصلية لليبرالية الغربية التي تعمل على الرغم من ذلك بطريقة جيدة يمكن احتمالها.

في القرن العشرين، كانت الليبرالية الغربية قد ماتت تقريباً بفعل التحديات التي جاءت من ثلاث إيديولوجيات غربية متنافسة - وهي، القومية، والفاشية، والشيوعية - أما التهديدات الحالية الموجهة إلى الليبرالية، فهي الإسلام الثوري، والعديد من سلالات الإرهاب الأخرى التي لا تملك إلا القليل من الجاذبية في الغرب، وهي ضعيفة من الناحية العسكرية.

وعلى الرغم من نجاح الحضارة الليبرالية، وضعف أعدائها الخارجيين، فإن هذه الحضارة واقعة تحت تهديد رهيب، وأكثر هذه الأخطار جدية، كلها أخطار أوقعتها على نفسها بنفسها، ورغم أن جدول الأعمال الليبرالي في القرن الماضي كان جدولاً فعالاً على نحو يثير الإعجاب في زيادة الأمن، والرفاهية، وحرية الغربيين العاديين، فإن الليبرالية تقدر اليوم أقل بكثير من التقدير الذي كانت تحظى به

في العادة سابقاً، ولقد ظهرت الليبرالية بسبب تاريخ الغرب، ولكن التاريخ وحده لا يستطيع أن يديم الليبرالية، فهي تحتاج إلى الممارسة المستمرة والتجديد.

إن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي قد لطخ الصورة الكونية لأمريكا، بوصفها وطن الحرية، وقد اغتصبت وسائل الإعلام المسرح السياسي وقلصته وجعلته ضئيلاً، وصارت السياسة متفَّهة الأهمية وقليلة القيمة، وقد فقد الليبراليون الثقة بالنفس وفقدوا العاطفة، والزخم المندفع قدماً، وأشد الأمور أذى، أن عقيدة النسبية قد صنعت الملايين من الضحايا المعادين للمجتمع، وأزالت الإحساس بالمسؤولية المدنية التي لا تستطيع الجماعات الليبرالية من دونها أن تزدهر، وإن تقليل قيمة الحقيقة وخصخصتها عملية خطيرة بشكل عميق؛ لأن الحضارة في نهاية الأمر تحتاج إلى مجموعة من المعتقدات المشتركة التي تدعم الأساس الذي يقوم عليه العمل الواثق والمتعاون.

وما لم يقف الليبراليون المتحمسون ـ من كل الأحزاب السياسية، ومن كل المذاهب ـ للدفاع عن الحرية التعاونية ولإعادة إشعال الحماسة لها، فإن من المحتمل أن ينتقل الغرب إلى حضارة أقل إمتاعاً، وتتلاشى فيها الحرية والجماعة، بسبب عدم وجود قضية ملهمة لترفع المواطنين فوق مستوى الانشغال في مطاردة المصلحة الذاتية مطاردة لا تفتر.

الفصل السابع

الفردية

إذا كانت هناك صفة واحدة محدِّدة تعرِّف الغرب، ويتفق مساندو الغرب ومناوئوه على أنها صفة مركزية لشخصيته، فهي الفردية، فالصعود ثم الصعود الذي كان للفردية هو الموضوع المهيمن الذي يسري عبر التاريخ الغربي، من المسيحية، إلى عصر النهضة، وإلى الإصلاح، وإلى نمو الاقتصاد الحديث، والمجتمع الحديث، وليس للفردية الغربية أي جذور مثيلة في أي حضارة أخرى، فجميع الثقافات حتى المشبعة منها بالأفكار الغربية والممارسة الغربية في أعمال التجارة والصناعة، من أمثال ثقافات اليابان، وكوريا، وسنغافورة، وهونغ كونغ لم تصبح فردية وفق الطريقة الغربية، وجميع أعداء الحضارة الأمريكية الأوروبية في القرن العشرين ـ الشيوعيون، والنازيون، واليابان الإمبراطورية، والجماعات الإسلامية المتطرفة ـ كانوا قد كرهوا الفردية الغربية بعاطفة وقناعة مطلقتين، وسعوا إلى توفير قواعد بديلة للهوية والالتزام، وأولئك الذين لديهم شكوك حول ثقافتهم الخاصة، وهم من داخل الغرب يفردون الفردية عادة ـ مع مرافقيها من الأنانية، والاغتراب، والتفريق ـ بوصفها السبب الجذري للمشكلة.

لا أحد يعتقد أن الفردية الغربية ضعيفة أو في خطر، وهناك بالأحرى مسألتان: نوع الفردية التي تهيمن، والطبيعة الأخلاقية لها، وهل هي مؤذية أم مفيدة؟

أصول الفردية

يحتمل أن يكون الإغريق القدماء قد اخترعوا الفردية، فقبل المسيح بتسعة قرون أو بثمانية قرون، تصف الأوديسا والإلياذه آلهة وبشراً امتلكوا بوضوح خصائص فردية، ولكن العبرانيين كانوا هم الذين جعلوا الفردية هي الحق والمسؤولية، لا للأبطال فقط وللآلهة، بل للناس العاديين أيضاً.

فأنبياء اليهود، في مدة 500 سنة قبل المسيح، فرّدوا الأخلاق، ولم يقدموا المواعظ للقادة العبرانيين فقط، بل للناس العاديين كذلك، وناشدوا الإحساس بالضمير وبالرحمة، الإحساس الذي كان يستطيع أن يعيش في داخل كل إنسان، كما شعروا.

والكلمات المنسوبة إلى المسيح من كتَّاب الإنجيل، والرسالة التي طبعها القديس بطرس على المسيحية بشكل لا يمحى، لم تترك أي شك حول قيمة كل إنسان في نظر الله، وحول مسؤولية كل إنسان عن تحسين نفسه ذكراً كان، أو أنثى.

في المسيح، كما زعم بطرس، كان «آدم الجديد»، وهو نموذج إنساني جديد محسَّن، يستطيع أن يزدهر ـ أن يزكي نَفْساً أعلى، لم أبق أنا الآن، ولكن المسيح فِيَّ ـ، وقد وصف بطرس عذابه العقلي الخاص، وصف القتال بين المسيح وبين الشيطان، داخل أعماقه الخاصة، وعلى مر القرون القليلة الآتية، وافق اللاهوتيون المسيحيون على أن كل إنسان امتلك روحاً خالدة وقيِّمة قيمة لا نهاية لها

وفكرة أن كل فرد يمتلك شخصية، وأعماقاً داخلية، و«نفساً» مغروزة بشكل مأمون في داخل العالم هي فكرة أساسية للغاية بالنسبة إلى الهوية الغربية إلى درجة أنها تبدو واضحة، ومع ذلك، فإن وعي النفس هذا لم يوجد قبل المسيحية، وصار متطوراً تطوراً كاملاً في السنوات الألف الأخيرة فقط، وكما يقول الفيلسوف الكندي تشارلز تايلور: نحن توصلنا بشكل طبيعيّ إلى التفكير في أننا نمتلك أنفساً بالطريقة التي نمتلك فيها رؤوساً أو أذرعة، وأننا نمتلك الأعماق الداخلية بالطريقة التي نمتلك فيها القلوب والأكباد، ولكن الإنسانية السابقة للمسيح لم تمتلك هذا الحس أبداً[1].

لقد كان أصل الفردية دينياً، وكان مسيحياً بشكل محدد يستند إلى فكرة أن الله يستطيع أن يعيش داخل الأفراد، وأن يهب أفعالهم مغزى مقدساً، وقد قال القديس أوغسطين: الله نور قلبي، والخبز الذي يغذي روحي، والقوة التي تقرن عقلي إلى أعمق أفكاري الجوَّانية.

يضع المؤرخون عموماً النمو الكامل لفكرة الشخصية في المدة التي تقع بين العام 1000 والعام 1500، وفي العام 1918، لفت أوزولد إشبنغلر الانتباه إلى العبادة الأوروبية الفريدة للشخصية ولجذورها الدينية القروسطية: إن مجيء هذه «الأنا» المحددة هو أول بزوغٍ لفجر فكرة الشخصية، تلك التي كانت بعد مدة لاحقة كثيرة جداً ستخلق

1. Charles Taylor (1989) Sources of the Self: The Making of the Modern Identity, Cambridge University Press, Cambridge.

منسك التوبة المقدس والغفران الشخصي... الإنسان الغربي يعيش في وعي صيرورته، وعيناه باستمرار على الماضي والمستقبل ... ما من إغريقي [قديم] كان يمكن أن يكون قادراً على النقد الذاتي الأصيل ... ليس هناك أي شيء غير شخصي جداً، مثل الفن الإغريقي...

إن الفرضية الأساسية في أنظمتنا الأخلاقية... هي أن الإنسان يمتلك طبعاً، يملك الشخصية، وعلاقة العيش مع الفعل ... إن مفهوم الإنسانية، بوصفها كلاً نشيطاً، ومقاتلاً، ومتقدماً هو فكرة ... ضرورية جداً لنا إلى درجة أننا نجد معها من الصعب في الحقيقة أن ندرك أنها فرضية غريبة على وجه الحصر، وهي حية وصحيحة لموسم فقط...[1]

كانت الشخصية ضمنية في التعاليم المسيحية الأولى، ولكنها أُحضِرت إلى البروز الأشد حدة بين العام 1050 والعام 1200، ويعطي بيتر واطسون ثلاثة أسباب محتملة للنمو في الفردية.

1- نمو المدن والمهن العلمانية من أمثال القانون، والأعمال، والتعليم.

2- نمو حق الولد البكر في الإرث، وهو ما أعطى الأرض إلى المولود الأول، وطالب الأولاد الأصغرين أن يسعوا إلى ثروتهم في أشغال مفردة.

(1) إشبنغلر (1991): ما حدث لأوديب ـ على خلاف مصير لير ـ يكون قد حدث كذلك لأي شخص آخر. هذا هو «المصير» الكلاسيكي [الإغريقي القديم] هو القَدَر المشترك لجميع بني البشر، والذي ...لا يعتمد بوجه من الوجوه على حوادث الشخصية.

3- إعادة اكتشاف أهل الأزمنة القديمة الكلاسيكية، التي أظهرت السلطات القديمة، وهي تختلف فيما بينها، وتتخذ خطاً مختلفاً عن خط الكنيسة[1].

وعلى الأرجح، فإن أهم فكرة كانت هي فكرة الإيمان الفردي: اعرف نفسك طريقا إلى الله[2] ومن القرن الثاني عشر والثالث عشر، أخذت المعركة بين الله والشيطان بروزاً جديداً، وأدت إلى «حرب ألغام لا تتوقف داخل النفس»[3]، وقبل العام 1200، كانت ممارسة الاعتراف نادرة، ولكن في العام 1215 طلب مجلس لاتران الرابع من كل شخص أن يعترف مرة في السنة على الأقل، ويفضل بعدد من المرات أكثر بكثير، وإن التوبة والندم شيء ينجزه الفرد وحده، وجاء اختراع الطباعة التجارية في العام 1457، وما تبعه من انتشار القراءة الصامتة، فعزز عملية الاستبطان، والإحساس بالفردية الداخلية[4].

وهكذا، فعصر النهضة لم يكتشف الشخصية، ولكنه عرضها إلى سطح المجتمع، وهناك صارت مرئية لكل شخص، وفي الفن على وجه الخصوص، كان هناك اعتراف صريح بالمخلوقات البشرية، بوصفها

---

(1) واطسون (2005).

2. Robert Benson and Giles Constable (eds) Renaissance and Renewal in the Twelfth Century (1991) Oxford University Press, Oxford.

(3) إشبنغلر (1991).

(4) إن أول كتاب مطبوع باستخدام حرف متحرك يمكن تأريخه كان هو كتاب مينز بسولتر بتاريخ 14 تشرين أول/أكتوبر 1457، والناشرون (الطابعون) كانوا منحازين بشكل خاص إلى نشر الهرطقة، وذلك، آنئذ والآن؛ لأن الفضيحة خلقت الشيوع وأفضل المبيعات.

أناساً وأفراداً لا مجرد أرقام أو رموز، ولقد كانت هي اللحظة في التاريخ الثقافي والعقلي التي تم فيها احتضان «إنسانية» الإنسان لأول مرة احتضاناً كاملاً.

والشخصيات الثلاث العظيمة من عصر النهضة، وهم ليوناردو، ورافائيل، ومايكل أنجلو، لم يكونوا فنانين وحسب، بل كانوا مفكرين وعلماء، وقلقين متعددي جوانب الثقافة، يجربون كل وسيلة متوافرة للتعبير عن الذات ولاكتشاف الذات، كانوا رجالاً بطموحات عالية علواً مستحيلاً، ويحاولون إلى الأبد أن يحرروا الإنسانية من قيودها الأرضية، ولم تكن مصادفة أن ليوناردو حاول أن يخترع آلات طائرة وصوراً كذلك للملائكة والقديسين يحلِّقون بشكل مترف الزخرفة في الفضاء، متحررين من العنايات الأرضية[1]، لقد حل الخيال، والطموح، والإنجاز محل الدم النبيل، بوصفه مركز الإعجاب الاجتماعي، وفي الأغلب جداً، الطريق نحو الثروة الطائلة، والعملية الطويلة التي وصلت بها الفردية إلى التفوق على الإرستقراطية بدأت تكتسب زخماً.

الإصلاح عزز الفردية بطرق عديدة عميقة وغير مقصودة: عززها في الجسارة المحضة لشخص واحد تحدى مؤسسة المسيحية صاحبة

(1) هذه النقطة طرحها إشبنغلر طرحاً جيداً (1991): «أن يطير المرء، وأن يحرر نفسه من الأرض، وأن يفقد المرء نفسه في اتساع الكون»، أليس هذا فاوستياً إلى أعلى درجة؟ أليس هو في الحقيقة تحقيقاً لأحلامنا؟.. التشديد المصر على الانعتاق من ثقل الأرض، هو رموز لطيران الروح، وهو خاصة مميزة للفن الفاوستي، البعيد للغاية عن فن بيزنطة.

أعلى مكانة وقداسة، وعززها في توكيد مطالب الضمير الفردي ضد السلطة، وفي ادعاء الكهانة لكل المؤمنين، وفي إمكانية كل فرد أن يؤسس علاقة حميمة مع الله، مخرجاً بذلك الكنيسة، وكاسراً احتكارها لله وللاهوت، ومستأصلاً التمييز الترابي الهرمي بين رجال الدين والناس العاديين، وعززها في إقامة كنائس منافسة والسماح للحكام وللمحكومين أن يختاروا بينها، وبهذا التعزيز للفردية مهد الإصلاح الطريق نحو التعددية الدينية، ومهدها في نهاية المطاف للتشكيك بالدين وللإلحاد، ومن المؤكد، أن اللوثرية والكالفينية، وهما في عنفوان شدتهما كانتا عقيدتين غير متسامحتين، وارتدتا إلى المسيحية اليهودية، البدائية، المستندة إلى الخوف أكثر من استنادها إلى الحب، ولكنهما مثلهما مثل الأصوليين المسيحيين في وقتنا الحاضر،لم تكن محاولتهما لضبط الأفراد، وتقييدهم ممكنة التصور من دون التقدم السابق للفردية، وهو التقدم الذي أقدر لوثر، وكالفن، وجون كنوكس والإنجيليين الآخرين على الثورة ضد السلطة الراسخة، وعلى توكيد رؤاهم الفردية.

وكما كتب ماكس ويبر منذ 100 عام، فإن لوثر اخترع فكرة «دعوة»، «تقييم إنجاز الواجب في شؤون العالم، بوصفه أعلى شكل يستطيع النشاط الأخلاقي للفرد أن يتولاه»[1]، وأضاف كالفن إلى هذا «فكرة ضرورة أن يقوم المرء بالبرهان على قيمته في النشاط الدنيوي»، وذلك إشارة إلى أن المرء ينتمي إلى المختارين، لا إلى الملعونين.

---

(1) ويبر (1985).

ولذلك، فمع الدين البروتستانتي، لم يكن الفرد قد أمسك فقط بالاستقلال الذاتي، وبمعنى متناقض ظاهرياً، ولكنه مهم جداً، إن الاستقلال الذاتي مفروض على الفرد، وزعم ويبر أن مماهاة المسؤولية الشخصية بكسب المال بشكل دؤوب تركت علامة لا تمحى على الحضارة الغربية، وعجلت بانتشار الرأسمالية، عن طريق تشجيع الاقتصاد في النفقة، والتوفير والكفاح الشخصي في الأعمال التجارية والصناعية، وأطروحة ويبر مازالت موضع الجدل، ولكن ما هو الواضح وضوحاً مطلقاً هو أن لوثر وكالفن بشَّرا بمعنى جديد من المسؤولية الشخصية في القضايا اليومية للأعمال التجارية والصناعية، وأن هذا المعنى الجديد أثر في ملايين الأفراد، وانتقل في نهاية المطاف إلى أخلاق الأعمال المسيطرة الخاصة بأمريكا، وبكثير من أوروبة، وهي أخلاق اشتقت بوضوح من الدوافع الدينية، ولكن الأخلاق كانت مع حلول وقت الثورة الأمريكية، قد صارت مستقلة عن تلك الدوافع(1).

(1) يجد ويبر متعة عظيمة في الاقتباس من كتاب فرانكلين: نصيحة إلى تاجر شاب (1784)، وهو الكتاب الذي ربما كان أول كتاب حديث من نوع ساعد نفسك، ويحتوي على درر من الأقوال من أمثال: تذكر أن الوقت مال... تذكر أن الثقة مال.. المال يستطيع أن يلد المال، وتستطيع ذريته أن تلد المزيد، وهكذا... وإن الذي يقتل قطعة نقد تساوي الكراون [خمسة شلنات، ربع جنيه إسترليني]، يدمر كل ما ينتجه هذا الكراون، بل يدمر أعداداً كبيرة من الجنيهات... صوت مطرقتك في الساعة الخامسة في الصباح، أو في الثامنة في الليل، وقد سمعه دائن، يجعله مرتاحاً لمدة ستة أشهر أخرى، ولكنه إذا رآك عند طاولة بلياردو، أو سمع صوتك في حانة، حين يجب أن تكون في العمل، فإنه يرسل بطلب نقوده في اليوم الآتي... .، وكما يلاحظ ويبر، فإن=

ما لم يلاحظه ويبر هو أن ـ روح الرأسمالية ـ التي رآها كانت قد ظهرت بالفعل لا قبل تاريخ ظهور الرأسمالية الصناعية فقط، بل قبل تاريخ الإصلاح أيضاً، بعدة قرون، وكما ظهر سابقاً، فإن أوروبا القروسطية، من مطالع القرن الحادي عشر، كانت فريدة في تطوير الدول المدن المستقلة التي رعت طبقة جديدة من الناس الأحرار المستقلين من الوكلاء التجاريين، والتجار، والحرفيين، والعمال المهرة، وهم في الغالب يكتسبون قوة من التنظيم في طوائف مهنية، وهيئات جماعية من الأفراد، وكانت أوروبة كذلك أول منطقة من العالم ترخي القيود التي كانت تربط الفلاحين بالأرض، وفي بعض البلدان ـ وخصوصاً في هولندا وإنجلترا كان الكثيرون من الفلاحين قادرين على أن يصيروا ملاكاً صغاراً للأرض، مسؤولين عن معيشتهم الخاصة بدل أن يكونوا عبيداً في أملاك سيدهم اللورد.

البديل الأكثر قبولاً لأطروحة ويبر القائلة: إن البروتستانتية أدت إلى الرأسمالية، هو أن الرأسمالية «إذا كنا نعني بها نشاط السوق الحر» هي التي أدت إلى البروتستانتية، ومحاريب السوق الحرة في أوروبة، التي سكنها أفراد جادون، ومستقلون، وموظفون لأنفسهم، قدمت جمهوراً مستقبلاً لرسالة لوثر، وكالفن.

= هذه إيديولوجية دينية تجردت الآن من الدافع الديني، وانغرست في الذهن من أجل قيمتها الخاصة: كل مواقف فرانكلين الأخلاقية ملونة بمذهب المنفعة، فالأمانة مفيدة؛ لأنها تضمن الثقة، ومثلها دقة التقيد بالمواعيد، والاجتهاد، والاقتصاد في النفقة...

ومهما قد يكون هذا، فإن أوروبة، وأمريكا بعد ذلك، كانتا بلا أدنى شك هما أول مكانين على الأرض يصيران وطناً لمئات الآلاف، وبعدئذ للملايين من الناس، ولنسبة مهمة من السكان، الذين كانوا، عن وعي كامل، مستقلين اقتصادياً، ومهتمين في التقدم بحريتهم السياسية، وموهوبين بإحساس قوي من المسؤولية الشخصية والكفاح الشخصي، والكثيرون منهم جعلوا الاختيار الواعي لدينهم الخاص مسألة جوهرية، وكان الاستقلال الذاتي الاقتصادي، والسياسي، والديني، والفكري قد تم اكتسابه بشكل مؤلم، وكانت أجيال من هؤلاء الناس تقدره تقديراً عظيماً.

وروح الفردية التي جاءت إلى الوجود من البيئة الاقتصادية، والدينية، والسياسية، لأوروبا وأمريكا، ومن تاريخ أوروبة وأمريكا، هي بشكل طبعيّ ومحتوم تماماً، روح أعمق، وأكثر رسوخاً، وأكثر تغلغلاً، من تلك الروح الفردية التي شعرت بها أو خَبِرتها أي حضارة أخرى.

وإذا كنا قد فقدنا الإبصار بهذه الحقيقة الواضحة إلى حد كبير، فذلك لأن هناك ميلاً إلى الاعتقاد بأن الفردية منتج من القرن الماضي، أو من الإيديولوجية المحافظة الجديدة، أو من المجتمع المستهلك، ولقد تطورت الفردية فعلاً تطوراً بطيئاً طوال أكثر من 2000 عام، وهي المنتج المعقد لتطورات فريدة في الفكر، وفي التاريخ الأوروبيين والأمريكيين.

ونستطيع أن نتعقب إحساس الكشف عن الإمكان الداخلي في أفكار طورها مايكل دو مونتين (1533 - 92) ورينيه ديكارت(1596 - 1650)، ففي

مقالة نشرت في العام 1580، قدم مونتين تبريراً حديثاً مدهشاً للفردية: أعظم شيء على الأرض هو أن تعرف كيف تنتمي إلى نفسك، فكل إنسان ينظر أمامه، ولكنني أنظر في داخل نفسي، إذ ليس لدي اهتمام بغير اهتمامات نفسي، وأنا أتأمل نفسي باستمرار، وأنا أضبط نفسي، وأنا أتذوق نفسي... نحن مدينون ببعض الأشياء للمجتمع، ولكن القسم الأكبر لأنفسنا، ومن الضروري أن يعير المرء نفسه لآخرين، ولكن من الضروري ألا يهب المرء نفسه إلا لنفسه[1].

وأما ديكارت فقد وضع السلطة الأخلاقية والاكتفاء الذاتي وضعاً حازماً داخل الفرد. وقد قال للملكة كريستينا ملكة السويد: «إن الإرادة الحرة هي أنبل شيء نستطيع أن نملكه، وذلك لأنها تجعلنا في أسلوب معين مساوين لله وتستثنينا من كوننا رعاياه». ولأول مرة يُطلب من الفرد أن يخلق فلسفته الخاصة في الحياة ويؤصل هذه الفلسفة ذكراً كان أو أنثى. وملاحظة ديكارت المشهورة ـ أنا أفكر، ولذلك فأنا موجود ـ تتضمن «النفس المفكرة»، والفرد العقلاني.

إن التطور الفكري الأخير للفردية معروف معرفة جيدة، وقد قال جون لوك في القرن السابع عشر: إن العقل الإنساني كان هو الطريق الوحيد لمعرفة الواقع الحقيقي وتقديره، فكلتا الثورتين الإنجليزيتين في العام 1640، والعام 1688 كانت النتيجة، والسبب لموجة من التنظير السياسي الجذري (الراديكالي)، وإلى درجة عالية لرفض السلطة

1. Michel de Montaigne (1580) Essais, Quoted by Norman Davies (1996) Europe: A History, Oxford University Press, Oxford, p. 483.

الملكيـة المسـتبـدة وحـقـوق المواطنـين، والثناء على «الاسـتـقـلال الصلب» وتعزيـزه وكرامة النـاس العاديين (صـغار الفلاحـين). وتابع ذلك فلاسفة التنوير، بنظريات عن «العـقـد الاجـتمـاعـي»، و«حـرية الـفـرد»، و«حـقـوق الإنسـان»، جـاعلين الـفـرد مـصـدر كل السلطة الشـرعـيـة، والسـعـادة الإنسانية مقياس السياسة العامة، وطور عمانويل كانط (1724 - 1804) نظرية الأخلاق العلمانية، التي يمتلك فيها المواطنون حقوقاً والتزامات متبادلة، وتجد فيها الروح الداخلية للفرد، مع هويتها الخاصة المميزة، التعبير الكامل عنها في علاقاتها مع الأفراد الآخرين.

ويصف تشـارلز تايلور من هذا الوقت كيف «أن ثقـافـة أخـلاقـيـة جـديدة تشع باتجاه الخـارج، وإلى الأسـفل من الطبقـات الوسطى العليا من إنجلترا، وأمـريكا، و(لبـعض النواحي) فـرنسـا... وهـي ثقـافـة فـردية في ثلاثة معان: فهي تعطي قيمة عالية للاستقلال الذاتي، وهـي تعطي مكاناً مـهـمـاً لاسـتـكـشـاف الـذات، وعلى وجـه الخـصـوص اسـتـكـشـاف الشعور، ورؤيتها للحياة الخيرة عموماً تشتمل على الالتـزام الشخصـي» بالأسباب، وبالناس الآخرين.

وأعطى الكتـاب الرومـانسـيـون انـعطافـة مميـزة ـ وبشكل بـارز جـان جاك روسو (78-1712)، وجوهـان غـوتفريد فـون هيردر (1744 - 1803) وجوهـان وولفغـانغ فون غـوته (1749 - 1832)، في مطلع مسـيـرة حيـاته، فقـد صـور الرومـانسـيـون الطبـيـعـة بوصـفـهـا لطيـفـة، تغـذي عـلاقـة مع الإنسـانية، ويسـتطيع الأفـراد أن يغـمروا أنـفسـهم في الطبـيـعـة؛ ليـصـلوا إلى أعـمـاق جـديدة من الشـعـور، ومن الـتـعـبـيـر عن الذات، وأضـافت

الرومانسية إلى الفردية فكرة الأصالة ـ فكل شخص فرد حي يمتلك تعبيراً عن الحياة غير قابل للمقارنة، وغير قابل للتقليد، وغير قابل للتكرار، ويكمن القدر الإنساني في تحقيق أصالتنا، وكان الرومانسيون مسؤولين عن الرأي الفريد المتعالي الذي تعطيه الحضارة الغربية للفنانين، وللخيال الخلاق.

وإلى جانب الليبرالية والقومية، صارت الفردية إيديولوجية مهيمنة في القرن التاسع عشر، وكانت الفردية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع الليبرالية، ومع الحملات العظيمة للإحسان الإنساني، والعدالة الشاملة في إنجلترا، على سبيل المثال، ومع الحملة الناجحة في إلغاء تجارة الرقيق في العام 1807 وإلغاء الرق نفسه في العام 1833، وفي القرن العشرين كوّنت كل المثل العليا التي ترتقي بالكرامة الإنسانية، وتخفف المعاناة وتضائل التراتبيات الهرمية والتمييزيات المصطنعة بين الناس، ذروة الفردية، والاعتقاد بالطبيعة المقدسة لكل مخلوق إنساني، وبحقوقه الإنسانية.

وفي السنوات التي تمتد من نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، برزت فلسفة جديدة للمجتمع وللحكومة، وهي فلسفة الاشتراكية الديمقراطية، وكانت مستندة إلى الاستبصار في أن رفاهية المجتمع وأداء كل فرد داخل المجتمع هما أمران يعتمد أحدهما على الآخر، ورأت الاشتراكية الديمقراطية أن الأفراد انتفعوا من تجميع بعض حريتهم ومواردهم؛ ليكون ذلك جزءاً من مسعى مشترك للرقي بالكرامة، وبالمساواة الإنسانيتين، واستمدت الكثير من قوتها

ومن حيويتها من تطور اتحادات العمال، والتعاونيات، و «الجمعيات الصديقة»، التي ينضم فيها الأفراد معاً لتحقيق تقدم في غاياتهم الفردية يكون أكبر مما يستطيعون تحقيقه في التصرف فرادى، من دون القيام، بأي شكل من الأشكال، بالتضحية بهويتهم الشخصية وبالإحساس بالقيمة الذاتية، وعلى مدى السنوات المئة الماضية،كان هذا المزيج من الديمقراطية، والاشتراكية، والفردية هو المزيج المؤثر أكبر التأثير في أوروبة الغربية، وعلى العموم، فإن الاشتراكية الديمقراطية عملت عملاً جيداً على نحو يلفت النظر في حماية النسيج الاجتماعي، وفي صون الاستقرار الاجتماعي، في الوقت الذي كانت تعزز فيه الحرية الفردية بطريقة لم تحاول سلوكها الدولة الاشتراكية، والمجتمعات المركزية الأخرى أبداً.

وفي مطالع القرن العشرين، تنبأ كثير من المراقبين، عبر كل الطيف السياسي تماماً، أن الفلسفات الجماعية سوف تحل محل الفردية على نحو كامل، ورأى أوزولد إشبنغلر السلطة التنفيذية، وهي تنتقل إلى «قوى جديدة» قادة الأحزاب، والحكام الديكتاتوريين، والرؤساء، والمتنبئين وأتباعهم «وهي قوى يستمر جموع الناس بأن يكونوا نحوها هم الموضوع السلبي بشكل غير مشروط»، ورأى الحكام الديكتاتوريين يتبخترون على المسرح، كما هو متوقع، ومع ذلك، وحين مر القرن العشرون، صارت الفردية متجذرة بعمق في أوروبة وفي أمريكا أكثر من أي وقت مضى، واكتسبت أحياناً جذرية (راديكالية) وصِفةً موجهةً نحو الشباب، وانتقلت كثيراً إلى ما بعد القيم «البورجوازية» التقليدية، وإن الوفرة المادية،

والزيادة الضخمة في عدد الطلاب، واسترخاء قيود السلطة على الأفراد أطلقت الزناد لظاهرة جديدة من النوادي الليلية، ونجوم السينما، والجاز، والإيقاع والنغمات الزرقاء، وتحت العشرين، وموسيقا البوب، ونجوم البوب المراهقين المليونيرات، وثائر بلا قضية، والبيتنك (أتباع حركة الجيل المنهوك) والمود [المتغندرين على الموضة]، والروكر [جماعة روك أند رول] يلبسون جاكيت جلد، ويركبون دراجات، والهيبيين، وعقاقير الهلوسة، وثورات الطلاب بين العامين 1968 - 1969مع ما رافقها من تيار قوي باطن من التحرر الجنسي، والحركة النسوية الضخمة، وحرية اللواط والسحاق، وموسيقا الروك، ودعاة البيئة المتطرفين (الراديكاليين)، ورجل الأعمال الشعبي البليونير، ونجوم الرياضة، وموسيقا البنك والموضة، ومخدرات مصممة للهلوسة، وموسيقا البيت، ومِشّكال (كلايدوسكوب) للأزياء والهويات الكونية الأخرى، وكانت كلها تقريباً تؤمن بالإرادة الحرة التي تضخم حقوق الفرد وتقلل دور الدولة، وظهرت في الأصل في أمريكا، أو في أوروبة قبل أن تنتشر حول العالم، ولم يسبق في التاريخ الإنساني أن كان من الأسهل على المرء «وفي الحقيقة إلزامياً» أن يفعل ما يخصه من الأشياء.

بعض هذه الظواهر الطريفة كانت عابرة، بل هاربة، وأخرى، مع ذلك، مكثت في المجرى وغيرت المجتمع، وما يجعل التزايد المستمر في الفردية أمراً محتوماً تقريباً في الغرب هو ترجمة الثورة الخلاقة القادمة من حرم جامعات أمريكا وأوروبة إلى حلبة التنافس في الأعمال التجارية والصناعية، فنحن نجد هناك صناعات خلاقة

جديدة تنمو نمواً سريعاً ـ في الفن ، والتصميم، والاستشارات، والاتصالات، والأفلام السينمائية، والموسيقا، والبرمجيات، والتقانة الحيوية، وكثير غيرها ـ وفي هذه الصناعات يخلق الخيال الإنساني الثروة، وأهم اتجاه اقتصادي، يتسارع منذ العام 1950 كان اختراع تقانة المعلومات، وجعلها لا مركزية، مع موجة جديدة ضخمة من نشاط مشروعات الأعمال التي بنيت حول المجددين الفرديين ومنفعتهم.

التفكير المغاير للمألوف، واندفاع قوي لثورة تحطم الأفكار والمؤسسات الشائعة التقليدية، والخيال الذي لا حدود له، هي دوافع نجاح الأعمال التجارية والصناعية، والتفكير المغاير للمألوف ينتج أنواعاً من المنتجات المخالفة للمألوف، والعلامات التجارية المخالفة للمألوف، والطرق المخالفة للمألوف في تشغيل الأعمال التجارية والصناعية، والنجاح الشخصي الضخم للمخترعين، ويكون الترانزستور، والشريحة الدقيقة جداً (مايكروتشيب)، والمعالجة الدقيقة جداً (مايكروبروسيسر)، والحاسوب الشخصي، والبرمجيات المبدعة، والشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت)، والوسائل المشخصنة من كل الأنواع، والمتابعة التي لا تهدأ للاختراقات التقنية، وغير التقانية، تكون كلها تجليات لروح ثورة، ولعالم جديد مفرَّد، يقوم فيه توسع العقل الإنساني، لا بدفع الإنجاز الشخصي فقط، بل بدفع صناعات جديدة أيضاً، وطرق جديدة للقيام بالأعمال التجارية والصناعية، وإثراء شخصي باهر، وإذا كان هناك اتجاه واحد مفرَد، أكثر قوة من أي وقت مضى، يدفع الفردية في الغرب، فهو الاتجاه إلى

شخصنة الأعمال التجارية والصناعية ونجاح تلك الأعمال، ومن خلال مزيج من القوى الثقافية والاقتصادية، أخذت الفردية الغرب إلى خبرة جديدة بشكل كامل، وهي المجتمع المشخصن.

الغرب مختلف

يشرح عالم الأناسة (الأنثروبولوجيا) ريتشارد شويدر، الذي درس نواحي تعاليم الأخلاق عبر كل الثقافات، الاختلاف، فيقول: إن هناك اختلافاً أساسياً بين المفاهيم الأخلاقية الأساسية الغربية، وغير الغربية، ويقول: إن التقاليد غير الغربية تمتلك نظريات ثرية من النواحي الأخلاقية، ولكنها تستند، إما إلى أخلاق الجماعة «أي، معايير المجموعة الاجتماعية، المحملة بقيم مثل الواجب، والاحترام، والتوقير الواجب للآخرين، والالتزام بالعرف» وإما إلى أخلاق اللاهوت الإلهية، على الطهارة والقداسة التي يطلبها الله، وفي مقابل ذلك، يقول شويدر: يميل الغربيون إلى تأطير الأحكام الأخلاقية بالإحالة إلى الاستقلال الذاتي، الذي يعرفه شويدر بأنه حقوق الفرد ومصالحه، ففي الغرب يكون الإنصاف لكل فرد هو الفضيلة الجوهرية[1].

(1) آر. إي. شويدر، و إن. سي. متش، و إم. ماهاباترا، وال. بارك: «الثلاثة الكبار» من الأخلاق، و«الثلاثة الكبار»، من المعاناة، في

A. Brandt and P. Rozin (eds), Trends in Cognitive Science (1997) Nova Science Publishers, St. Louis, Mo., pp. 296-301.

وليس كل المفكرين الغربيين، طبعاً، يرفعون الإنصاف الفردي إلى مثل هذا الارتفاع. وعلى سبيل المثال، فإن جيرمي بنتهام دعا إلى «أعظم سعادة لأعظم عدد» ووضع كانط الواجب فوق الإنصاف.

إن عالم الاجتماع الهولندي غيرت هوفستيد هو واحد من أعمق العلماء فكراً، وقد كرس حياته لدراسة القيم في مختلف البلدان، وتحدد دراسته الجليلة القيِّمة للاتجاهات الثقافية في صفوف موظفي شركة آلات الأعمال الدولية (آي. بي. إم) في 53 بلداً، أربعَ خواص تختلف اختلافاً متميزاً، وفقاً للجنسية:

1- مسافة السلطة (تصور المساواة، أو عدم المساواة للمكانة الشخصية).

2- تجنب الارتياب.

3- الذكورة في مقابل الأنوثة.

4- الفردية في مقابل الجماعية.

البلدان الغربية هي أوضح ما يكون في الاختلاف عن البلدان غير الغربية في بعد الفردية، وأكثر البلدان فردية هي الولايات المتحدة، وأستراليا، وبريطانيا العظمى، مع مجيء كندا، والبلدان المنخفضة ونيوزيلندا في ترتيب ليس بعيداً خلف المجموعة الأولى، والبلدان الغربية تشغل أعلى 20 مرتبة في درجة الفردية، ويصل متوسط العلامة بين كل البلدان الغربية إلى66.7[1]، وفي المقابل فإن متوسط علاقة كل البلدان غير الغربية هو 25.7 فقط[2]

(1) أخفض علامات للبلدان الغربية كانت في تركيا (37)، واليونان (35)، والبرتغال (27). وباستبعاد هذه العلامات كان المتوسط الغربي للعلامات هو 71.8، وأعلى خمسة بلدان كانت الولايات المتحدة (91)، وأستراليا (90)، وبريطانيا العظمى (89)، وكندا (80)، والبلاد المنخفضة (80).

(2) هوفستيد (2001).

ووفقاً لما يراه هوفستيد، فإن المأزق بالنسبة إلى البلدان غير الغربية واضح، إذ يجب عليهم إما أن يغيروا افتراضاتهم الثقافية ـ وهو كما يقول، صعب، إن لم يكن مستحيلاً ـ أو أن تأتي في الخلف في الرفاهية النسبية: أظهر الدليل أنه لم يكن هناك تلاق دولي للقيم الثقافية على مرور الزمن، باستثناء التلاقي نحو الفردية المتزايدة بالنسبة إلى البلدان التي صارت أغنى[1]، واختلافات القيم بين الأمم التي وُصفت منذ قرون مازالت حاضرة اليوم، على الرغم من التواصل القريب، وطوال مئات السنوات القليلة القادمة سوف تبقى البلدان من الناحية الثقافية مختلفة جداً.

(1) يمكن، طبعاً، أن يكون هناك حوار حول ما هو سبب؟ وما هو نتيجة؟ ومن الممكن، مثلاً، أنه، حين تصير البلدان غير الغربية أثرى، فإنها سوف تصير كذلك أكثر فردية، وعلى الرغم من أن هذا لم يحدث حتى الآن إلى أي درجة مميزة، كما تشير بيانات هوفستيد، ولكنه يعلق، فيقول: ـ نحن رأينا أن لفردية كانت مرتبطة بالثروة ارتباطاً قوياً (المنتج المحلي الإجمالي للفرد في العام 1970). وعبر 50 بلداً كان معامل الارتباط لافتاً للنظر، وهو ... 84. إن الفقر يجعل الناس يعتمدون على دعم جماعتهم الخاصة، وأما حين تزيد ثروة البلاد، فإن مواطنيها يحصلون على الوصول إلى الموارد التي تسمح لهم أن «يعملوا أشياءهم الخاصة» .... ـ الحياة الجماعية تحل محلها الحياة الفردية. نحن لسنا مقتنعين، فإن الارتباط، الذي يكون في نقطة واحدة في الزمان بدل أن يكون عبر الزمان، قد يكون أحياناً ارتباطاً باطلاً، وإن بدا معقولاً، وذلك لأن أغنى البلدان كانت غربية وفردية، فنحن نحاور، في جزء على الأقل، أن البلدان الغنية تكون غنية لأنها فردية؛ (وتكون فردية؛ لأنها غربية أكثر من أنها غربية لأنها غنية)، وهو اتجاه يصير مهماً بشكل متزايد في الوقت الذي يزدهر فيه الاقتصاد المشخصن. انظر الفصل 5.

هناك شعار في الأعمال يقول: «فكر كونياً، وتصرف محلياً»، وبالنسبة إلي فإن هذا الشعار ساذج ومتبجح في آن معاً، فما من أحد، كما برهن هذا الكتاب بشكل كامل، يستطيع أن يفكر كونياً، إذ نحن جميعنا نفكر وفقاً لبرمجياتنا المحلية.

وقد درس عالم النفس ريتشارد نيسبت الأنماط الغربة والشرقية للفكر واستنتج أنها كانت، وهي باقية متميزة تميزاً أساسياً:

الشرق والغرب في العموم مختلفان، أحدهما عن الآخر تماماً بالنسبة إلى الكثير من القيم المهمة أهمية مركزية، وبالنسبة إلى الخواص الاجتماعية النفسية... الاختلافات بين الشرقيين والغربيين كانت قد وجدت في كل دراسة فعلاً سبق أن تولينا القيام بها، وهي عادة اختلافات كبيرة[1].

وهو يشير إلى أنه برغم التحديث، وبرغم تبني الأنظمة الاقتصادية الغربية «هناك إشارات لا تحصى عددياً إلى أن اليابان قد تغيرت قليلاً في الكثير من النواحي الاجتماعية، وأننا نجد اختلافات كبيرة بين الطريقة التي يتصور فيها اليابانيون والغربيون العالم».

المشكلة مع المجتمع المشخصن

المشكلة مع المجتمع المشخصن هو أنه يؤدي إلى تآكل الجماعة في الوقت الذي يزيد فيه التشديد على الأفراد، وإن المجتمعات التقليدية،

---

(1) نيسبيت (2003).

والمركزية أكثر من المجتمع المشخصن تعطي الأفراد حرية أقل، ولكنها أيضاً تطلب منهم الأقل من ناحية التفكير أو الإسهام الأصيل، وإن العالم المركزي يعمل من خلال المؤسسات، وعلاقات القوة، والأدوار المحددة تحديداً جيداً، والأشكال المختلفة من هوية الجماعة، وتأتي هوية الفرد من المشاركة في عدد من التجمعات الجماعية المتطابقة، مثل الأمة، والطبقة، والمدرسة، والمنظمة، واتحاد العمال، والمهنة، والكنيسة، والحزب السياسي، والجماعة المتطوعة، والعائلة الممتدة، والموقع المحلي، وكل شخص عليه التزامات واضحة لهذه الجماعات، التي تأخذ على نفسها عبء تحديد السلوك والتوقعات، وفي مجتمع مركزي، يفعل الفرد ما يقال له، رجلا كان أو امرأة، وعلى الرغم من أن الفرد قد لا يحب ذلك، فليس هناك غير هامش قليل للقلق، أو الشك الذاتي، أو الاكتئاب، أو السلوك المناوئ للمجتمع. وعملياً، ينسجم معظم الناس في المجتمعات المركزية مع أدوارهم بقلب راغب، إلى الحد الذي يقدمون فيه حياتهم في الحرب.

المجتمع المشخصن مختلف تماماً، وقد بين الأستاذ في هارفارد روبرت دي. بوتنام في كتابه الذي يوجب الانتباه له، وهو بعنوان البولينغ وحيداً، كيف أن «رأس المال الاجتماعي» يُدَمَّر حين يصير المجتمع أكثر فردية، وحين نصير نحن غير مرتبطين مع الأسرة، والأصدقاء، والجيران، والنوادي، والكنائس، والروابط، والجماعات

1. Robert D. Putman (2000) Bowling Alone: The Collapse and Revival of American Community, Simon & Schuster, New York.

المجتمعية، وتنهار الثقة، وهي مكون مهم للصحة النفسية والنجاح الاقتصادي، حين نصير نحن غرباء عن بعضنا[1].

ولكن تشظي المجتمع، وتدمير رأس المال الاجتماعي، وانهيار شعور الجماعة هو نصف المشكلة فقط، والنصف الآخر هو المسؤولية الشخصية، والقلق المعززان تعزيزاً مفرطاً، وتصبح الحياة أصعب.

المجتمع المشخصن يجلب الحرية، ولكنه يتطلب خيارات صعبة كانت في السابق موصوفة أو آلية، ما هو التعليم الذي نلتزم به؟ وما هي المسيرة الوظيفية التي نلتحق بها؟ وأي نوع من العلاقة الشخصية تكون لنا؟ وهل نستبقي تلك العلاقة أم نتخلى عنها؟ وأين نسكن؟ وأي الأصدقاء هم الذين ننمي العلاقة معهم؟ وأي نوع من الأشخاص يجب أن نصير؟ إن المجتمع المشخصن يجلب فرصة غير مسبوقة، ولكنه يزيد إمكانية الفشل الشخصي زيادة مفرطة، ويزيد الإحساس في كون الفرد قد ترك في الخلف ولُفِظ، والمجتمع المشخصن يجلب الثروة لكثيرين، ولكنه يحول الفجوة بين الرابحين والخاسرين إلى هاوية سحيقة، فالسماء هي الحد، ولكن ليس هناك أعذار من أجل الهبوط إلى الأرض، وكل مجتمع قد امتلك أفراداً صنعوا أنفسهم، ولكن المجتمع الغربي الحديث فقط هو الذي يمتلك جموعاً من الناس الذين دمروا أنفسهم، ففي مقابل كل رابح، على ما يبدو، يجب أن يكون هناك عدة خاسرين.

فليس من الصعب أن نفهم لماذا تكون الفردية، وهي في أعظم لحظة انتصار لها، غير شعبية، على الأقل بين معظم المفكرين

الغربيين؟ الأفراد يستمتعون بحرية شخصية أكبر من أي وقت مضى، ومع ذلك يشعرون معها بانزعاج أكبر من أي وقت مضى، وسواء من الذنب نتيجة النجاح (نسبة مذهلة من الناس - الناجحين - الآن يقولون: إنهم يشعرون أنهم غير سعداء، وغير راضين بالإنجاز، بل مخفقون)، أو من الأعذار عن الإخفاق، فنحن لا نستمتع بمسؤوليتنا الشخصية الموسعة. والبلدان الغربية مع درجة عالية من الحرية الفردية والحداثة تعرض أيضاً حوادث تحلق عالياً من عقلية الضحية، ومن الاكتئاب والانتحار، والاغتراب، والنرجسية، والأنانية، وفقدان الهدف، والحنين المرير إلى الماضي (نوستالجيا)، وتكاثر الحسد، وانهيار رأس المال الاجتماعي، والتراجع إلى الطوائف الدينية السلطوية.

وفوق كل ذلك، فإن المجتمع المشخصن مكروه بسبب التسارع في عدم المساواة، حين يكون الأفراد قادرين على خلق الثروة الكبيرة، وعلى الاحتفاظ بمعظم ما يخلقون، فيتضاعف عدم المساواة لا محالة.

هل يستطيع المجتمع المشخصن أن يعمل؟

نعم، يستطيع، وها هي فيما يأتي أربعة أسباب تعلل ذلك:

أولاً، إن المجتمع المشخصن يمثل آخر شكل متطور إلى درجة عالية من عملية كانت، ومازالت مستمرة المسير، تقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الخلف، على مدى زمن طويل جداً، وطوال السنوات الألف الأخيرة، طورت الحضارة الغربية تطوراً تقدمياً درجات أكبر، فأكبر من الحرية والاستقلال الذاتي للفرد، وفي كل مرة أرخيت فيها القيود

الاجتماعية، تعالت الصيحات بأن هذا كان كثيراً جداً، وأن النتيجة ستكون هي الفوضى، والخراب، ودمار الحضارة نفسها، وكان مسار الحرية وعراً، وكان في بعض الأوقات خطراً للغاية بالنسبة إلى المجتمع العامل المنتظم، وكل ثورات الفلاحين، وحرق عشرات آلاف الساحرات، والاضطهاد الديني، والحروب الدينية، والحروب الأهلية، والإرهاب المرعب للثورة الفرنسية، وحربان عالميتان رهيبتان، بدأتا بوصفهما حربين أهليتين أوروبيتين، بل إن أعمال الاستبداد المرعبة التي مارسها ستالين، وهتلر، وماوتسي تونغ كلها كانت مشتقة في جزء منها من السعي في سبيل الحرية ورد الفعل ضده.

ولم يكن هناك مطلقاً أي حتمية في الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية إلى المجتمع المشخصن، في النتيجة السعيدة نسبياً من مجتمع الغرب التعددي، والثري، والحر، وليس هناك أي ضمان بأن الغرب لن ينزلق إلى البربرية، أو الفاشية، أو إلى شكل آخر من الحكم التسلطي، أو أن يغلب من أعداء مصممين على الاستبداد والسيطرة الاجتماعية.

ومع كل ذلك، إذا رأينا الغرب في تاريخه الطويل، فإن التطور التقدمي وممارسة الحرية فيه قد واجهت أزمات أسوأ بكثير من أي أزمة ظاهرة اليوم، واستطاعت أن تبقى على قيد الحياة برغم تلك الأزمات، والغطاء الخليط المرقع من الهوية الحديثة، ومضاعفة مصادر القوة بين العديد من المؤسسات والأفراد، هي أعراض لا لمجتمع قد ذهب نحو الخطأ، ولكنها لمجتمع يتصالح مع حرية جديدة،

وهي الاستقلال الذاتي الأصيل للفرد، وحين ترتخي السيطرة الاجتماعية على ملايين الناس، فإنه من المؤكد أن بعضهم سوف يسيئون استخدام استقلالهم الجديد، أو أنهم سوف يضطلعون به اضطلاعاً سيئاً، ففي الأيام الماضية السيئة، كان الناس يعملون ما كان يُطلب منهم، أما الآن، فهم يستطيعون أن يسيئوا التصرف ، وكثيرون منهم يفعلون ذلك، ولكن أكثر منهم بكثير إلى حد بعيد مَن لا يسيئون، وإن الحرية عموماً تُمارس ممارسة ناضجة؛ لأن معظم الناس يدركون أن نوعية المجتمع، وأن سعادتهم الخاصة تعتمدان على التصرف تصرفاً مسؤولاً، وعلى التعاون مع أفراد أحرار آخرين، وفي نهاية المطاف، تستطيع الفردية المسؤولة أن تنتج إحساساً بالمجتمع أقوى، وأكثر أصالة من الإحساس الذي كان في السابق يفرض بالخداع من السلطة العليا، وإن جملة «ثقوا بالشعب»! أدت عملها من قبل.

ثانياً: إن المجتمع الغربي، في حالة انتقال من إحساس بالجماعة، كان قد بُنِي على أسس اجتماعية ومؤسسية آلية إلى إحساس بالجماعة، بُني على تبادلية بنيت فردياً، وعلى إحساس من الهوية المشتركة التي نسميها نحن التبادلية الافتراضية، والتبادلية تعني أنني أتصرف تصرفاً عقلانياً، وتعاونياً، وبشكل كريم؛ لأنني أعرف أن هذا هو الطريق لإغرائك في التصرف معي بالمقابل في الشروط نفسها، والتبادلية، مزيج مركب من عاطفة المحبة والحساب، وقد وقفت دائماً على جذر كل الصداقات، ومعظم العلاقات الإنسانية، ولكنها توفر، وعلى نحو متزايد الأساس اللازم لكل جماعة متمدنة، والآن بعد أن لم

تبق المنظمات قادرة على أن تنظم السلوك بالفاعلية نفسها التي كانت تفعلها في السابق، فإن على الأفراد أن ينظموا أنفسهم، ونظراً إلى أن التبادلية لا تستطيع أن تحدد علاقة المرء مع كل واحد يكون المرء في حالة اتصال به « ما لم يكن المرء عائشاً في جماعة صغيرة نسبياً ومكتفية ذاتياً، مثل قرية، أو كلية، ويقضي هذا المرء معظم وقته فيها، متفاعلاً مع أناس معروفين، فإن الغِراء الرابط الوحيد للمجتمع الأوسع هو الثقة في أن السلوك البنَّاء، والتعاوني سوف يكون، بشكل رئيس، متبادلاً، من الجميع، حتى من الغرباء.

والتبادلية الافتراضية تُعرض عرضاً طبعيا بالأفعال الصغيرة، مثل إعطاء الإكرامية في المطعم الذي لن تزوره ثانية أبداً، وبالقيام «بأعمال عشوائية من التلطّف»، أو بالتقاط النفايات والتخلص منها، ومن المستطاع أيضاً خلق التبادلية الافتراضية عن طريق الجماعات المرتبة ترتيباً ذاتياً من شخص إلى شخص، مثل موقع المزاد في المنبر الافتراضي ئي بي (eBay)، وفيه يجري الحكم على قيمة الناس الذين يبيعون السلع، ويصنَّفون من طرف المشترين منهم، وتعلن النتائج لكل إنسان ليراها، ويحرص الباعة على سمعتهم بالغيرة نفسها التي يحرصون بها على سمعتهم في قرية صغيرة، وهذا يعطي على الأقل بعض المعنى لتعبير «القرية الكونية»، وتتقوى التبادلية الافتراضية، ولو بمعنى غامض من الالتزام بالقيم الليبرالية، وبالمجتمع الذي يعيش المرء فيه.

ثالثاً، هناك المَحلَّة والتمركز في المحلة، ففي الوقت الذي تفقد فيه الهويات القومية بشكل بطيء قوتها، وتتقدم فيه التأثيرات الدولية (الكوزموبوليتانية)، فإن الهوية المحلية تصير حيوية من أجل إرساء الفرد وتثبيته، والالتزام بالهوية المحلية «سواء لمنطقة، أو لمدينة، أو لفريق رياضة محلي» يصير أقوى فأقوى، ومعظم الأخطار المتأصلة في الاتجاه نحو الشخصنة يمكن تحييدها باتجاه يتجه نحو جماعة محلية.

وتعمل التبادلية على أفضل وجه لها في المستوى المحلي، ففي هذا المستوى يكون من المستطاع، على نحو هو أسهل ما يكون، بناء شبكات كثيفة من الالتزام الشخصي، ومن الهوية وتعزيز هذه الشبكات، وهذا هو السبب الذي نجد من أجله ميلاً إلى جريمة أقل، واكتئاب أقل، وانتحار أقل، وغربة أقل في البلدات الصغيرة من الميل الموجود في كبريات البلدات، وميلاً أقل في البلدان الصغيرة من الميل الموجود في البلدان الكبرى، وفي الأماكن التي تتحلى بجماعات محلية نابضة بالحياة، وهذا هو السبب الذي نعتقد نحن من أجله أن المؤسسات الديمقراطية والقرارات الديمقراطية يجب أن تحوَّل تحويلاً متزايداً إلى المستويات المحلية.

وأخيراً، فإن الفردية والشخصنة عمليتان أخلاقيتان واجتماعيتان - وهما شيء مختلف تماماً عن التصور العام الذي يرى أن التفرد عملية لا تميز بين الحق والباطل، أو لا أخلاقية، أو لا اجتماعية، أو معادية للمجتمع، والتصور الشائع مشتق من الشكل الحديث جداً

للفـردية، وهو مـا يمكن أن يدعى، مع خطـر الوقـوع في الـكاريكاتيـر الريجانيـة أو التـاتشـرية – وإلى مـدى أبعـد من الـرؤية التـاريخيـة التي اتخـذناها في هذا الفـصل، فـإن من الـواضح أن الفـردية المتـصلة بالمحـافظة الجـديدة هي في أفـضل حـالاتهـا تزييف وفي أسـوأ حـالاتهـا كـاريكاتيـر للفـردية الأصيلة، وهـي ليست أقل من سـعي الإنسـانية إلى الحرية الشخصية، والتعبير الذاتي المسؤول.

لقـد نشـأت الفردية فـي أصلها مـن المسؤوليـة الشـخصيـة أمـام الله، وتطورت إلـى الاعـتقـاد بأن السلطـة الأخـلاقـيـة تأتي من الـداخل، من النفس المقـدسـة، وقـد أدت الفـردية دائمـاً، من النـاحيـة التـاريخيـة، إلى إلقاء مطـالب أعلى على الشخص، وبلغت ذروتها فـي الافتـراض الغربي الحديث أن كل شخص يمتلك مصيراً فريداً له؛ ليحققه.

الفـردية تعنـي حكم الـذات، وهـي تكافح، وتحـاول أن تحـقق الذي لم يتـحقق حـتى الآن، وليـست الفـردية غـيـاب الجـهـد، أو الأخـلاق، أو العناية، فـالفـردية تجعل الحـيـاة أكثـر إنجـازاً، ولكنهـا مع ذلك تجـعلها أصعب أيضاً.

وكـانت الفـردية دائمـاً مـرتبطة أيضـاً بالنشـاط الاجـتـمـاعي للناس المتشـابهين في الآراء، سواء أكانت الحركة الأصلية للمسيح، أم لنقابات طوائف الحرفيين الأحرار والصناع المهرة، أم للحكومة الذاتيـة للمواطنين في الـدول المدن الخـاصـة بهم، أم الـكنائس والطوائف التـي نبـعت من الإصـلاح، أم من العـالم المتـألق من عـصـر النهضـة، مع مـدارسـه وفنانيـه المبـدعين، أم الحـركـات الحـديثـة الديمقـراطيـة والـثـورية، أم الـروابط

الطوعية للعمال، أم من الراديكاليين في الحرم الجامعي، أم من المختصين الجامعيين، أم من الجماعات الموسيقية من كل الأنواع، أو من مجموعات المهندسين ورجال المشروعات والأعمال في وادي السيليكون.

لا يستطيع الفردانيون، المؤمنون بأن الفرد مقدم على الجماعة، أن يعبروا عن أنفسهم، إلا بالتواصل مع الفردانيين الآخرين، وذلك من خلال الكلام والكتابة، والرابطة المهنية، وأن يكونوا هناك، في المكان الذي يستحث حيويتهم الخلاقة إلى أقصى درجة، وإن الناس الملهمين انجذبوا دائماً نحو المدن ونحو المناطق المأهولة بطبقة الفرادنيين نفسها، ومازالوا يفعلون ذلك، وإن الشبكة الدولية للمعلومات (الإنترنت) تخلق جماعات افتراضية مفيدة، ولكن أي شخص مبدع سيقول لك: إن الشبكة الدولية للمعلومات ليست بديلاً، مهما تكن، لكثافة التواصل وجهاً لوجه بين الزملاء المتحمسين.

والإنجاز الخلاق من كل الأنواع هو إنجاز محلي على نحو لا يكاد يصدق، وعلى سبيل المثال، فإن الغالبية الكبيرة من التجديد التقاني في العالم بين العام 1880، والعام 1914 حدثت في ثلاث مدن فقط هي برلين، ونيويورك، وبوسطن، ومنذ العام 1970، برز نمط محلي مشابه من الإنجاز التقاني العالي، يقوم في كاليفورنيا، وسياتل، وميونخ، وباريس ـ سود، والممر الإنجليزي المحاذي لطريق السيارات م4، وكمبردج وأوكسفورد، وطوكيو ـ يوكوهاما، وقد شرحت دراسات علم الاجتماع النجاحَ فوق العادي لوادي السيليكون بوصفه عملَ بنيته

الاجتماعية الثرية والمعقدة، التي يختلط فيها يومياً المهندسون، والجامعيون، والرأسماليون المغامرون والباحثون عن موظفين من مستويات عالية، ويجتمعون جميعاً لتبادل الأفكار والقيل والقال في ميادين رياضتهم وأماكن شرابهم، وإن الوادي مغناطيس يجتذب الموهبة التقانية الشابة القادمة من كل مكان حول العالم.

الفردانيون الحقيقيون لا يهدمون الجماعات المحلية، إنهم يبنونها.

خاتمة

لقد كانت الفردية دائماً أكثر صفات الغرب أصالة على نحو يستوقف الانتباه، ومع مرور الوقت، زادت درجة الغرب من الفردية زيادة تقدمية، وبلغت ذروتها في المجتمع المشخصن اليوم، الذي لا يتقيد فيه الأفراد أو يُحمون بالتراتبية الهرمية، ولكنهم مستقلون استقلالاً ذاتياً، ويجب أن يحكموا أنفسهم.

لقد كانت الفردية، وتبقى أكثر من أي وقت مضى، حاسمة لنجاح الغرب، وهي تكمن خلف قيم الغرب الأخلاقية، والتفاؤل، والعلم، والاستقرار السياسي، والنمو الاقتصادي.

الفردية هي أصعب صفة على التقليد، أو الاستيراد، بالنسبة إلى الحضارات غير الغربية، والبلدان الحراكية (الدينامية) نفسها، ومن جملتها الكثير من البلدان في آسيا، التي استوردت بنجاح التفاؤل، والعلم، والنمو الاقتصادي، وإلى درجة معينة، الليبرالية، لم تصبح فردانية إلى أي حد يشبه مدى ما بلغه كل بلد غربي، وإن الغربيين،

من خلال تاريخهم وثقافتهم، مشبعون إشباعاً شاملاً بالفردية، وغير الغربيين ليسوا كذلك، وهذا الفرق الضخم ليس من المحتمل أن يتغير سريعاً، إن كان يتغير بأية حال.

إن المجتمع المشخصن يؤدي إلى تآكل الإحساس بالجماعة، وهو الإحساس التقليدي المورَّث فعلاً، والمجتمع المشخصن يحمّل الأفرادَ أعباء الإجهاد فعلاً.

وعلى الرغم من ذلك، فقد بولغ مبالغة كبيرة بمخاطر الفردية، ففي الانتقال من المجتمع التراتبي الهرمي إلى المجتمع المشخصن، يستطيع الفردانيون أن يبنوا، وهم يبنون فعلاً تبادلية شخصية وجماعة محلية، فالفردانيون يخلقون أكثر إلى حد بعيد مما يدمرون، ولقد كانت الفردية دائماً، وما زالت، من الناحية الأخلاقية ذات مطالب قاسية وميالة للعيش الاجتماعي، والخطر على الحضارة الغربية ليس هو الفردية الكثيرة جداً، بل القليلة جداً، وإذا كانت نهاية التراتبية الهرمية تنتج عقلية الضحية والارتياب في شأن الإنجاز الشخصي، فإن الغرب قد انتهى، ولن يكون بعد الآن هو الغرب.

والصفة الأساسية للأوروبيين وللأمريكيين هي الكفاح والطموح الشخصيين غير المحددين، فالغربيون اخترعوا المسؤولية الشخصية، ومفهوم النفس، والشخصية، والتزام التميز الذاتي، وإنهم محسِّنو العالم ومحسِّنو النفس، تدفعهم العاطفة وطاقة لا تفتر، فالأفراد والفردية في قلب فكرة الغرب، وفي قلب عيوبه، وفي قلب كل إنجازاته

التي لا مثيل لها، وبالنسبة إلى الغرب، فقد لا يكون هناك أي اختيار بين الفردية المفرطة، وبين أي طريقة أخرى للحياة، وإذا حدث في أي وقت وتعثرت سمة الغرب الفردية ذات المطالب القاسية والفريدة على نحو عال، فلن يكون هناك أي شيء قد ترك وهو جدير بالاهتمام جدارة فريدة.

* * *

لقد أنهينا الآن استعراضنا للأسباب الستة التي يكون الغرب من أجلها مختلفاً، ولماذا كان ناجحاً مثل هذا النجاح، ولماذا لا يمكن أخذ استمرار النجاح أمراً مسلماً به، فأين يترك هذا الموضوع العلاقات بين الغربيين وغير الغربيين؟ تلك هي القضية التي نعالجها فيما يأتي، قبل أن نجيب أخيراً عن أكثر الأسئلة حيوية: هل الغرب عازم على إطلاق زناد سقوطه الخاص؟



الفصل الثامن

الغرب والبقية

ما العلاقة بين الغرب والبقية؟ ما المعتقدات التي تدفع السياسة الخارجية الغربية؟ أَسَتَعْمَل تلك المعتقدات على تقدم الحضارة الغربية، أم ستعرضها للخطر؟

إن كل صانع سياسة غربي، وكل مواطن يفكر بأية حال بشأن العلاقة بين الغرب والبقية من العالم، يميل إلى العمل، ضمنياً، أو بصراحة واضحة، بواحد من ستة نماذج عقلية:

1- الشمولية الغربية، وهو الرأي الذي يرى أن الغرب يمثل الحداثة، وأن كل المناطق المهمة من العالم سوف تتحول تحولاً طبعيّاً، عاجلاً أم آجلاً، إلى الليبرالية، والرأسمالية بحسب النموذج الغربي.

2- الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، أي الاعتقاد بأن على الغرب أن يدفع بالديمقراطية، وبالرأسمالية إلى الأمام في كل أنحاء العالم، وبالقوة إذا دعت الضرورة.

3- المدخل الذي نسميه العالم ـ أمريكا، وهو الذي يرى أن العالم سيكون أسعد وآمن إذا فرضت أمريكا، وحلفاؤها سلاماً شاملاً، وسياسات اقتصادية مشتركة من دون القلق كثيراً جداً حول زخارف الديمقراطية.

4- الغرب القلعة، وفي هذا النموذج يتراجع الغرب إلى نفسه؛ ليحمي حضارته، ويتخلى تخلياً فعالاً بشأن بقية العالم.

5- الرأي الدولي (الكوزموبوليتاني) هو الذي يرى أن الغرب، والبقية سوف يلتقون لقاء طبعياً نحو قيم، ومؤسسات مشتركة.

6- إستراتيجية التعايش والجاذبية، وهذه لها أربع شعب، وهي: احترام تنوع الحضارات الأخرى، وأن تكون راغباً في التعايش معها، وإعطاء حياة جديدة للمثل العليا الغربية، واجتذاب البقية إلى الغرب.

وسوف نصف كل إستراتيجية، ونعري افتراضاتها حول الغرب والبقية، ونتفحص سجل مسارها، والأثر المحتمل على الحضارة الغربية، وعلى العالم.

الشمولية الغربية

في العام 1985، ختم المؤرخ البريطاني البارز جيه. إم. روبرتس دراسة للغرب بهذه الكلمات: ما يبدو واضحاً هو أن قصة الحضارة الغربية هي الآن قصة الإنسانية، وتأثيرها منتشر بطريقة تكون معها المعارضات والأطروحات المضادة الآن بلا معنى. «الغرب» الآن لا يكاد يكون لفظاً ذا معنى، إلا للمؤرخين[1].

بعد أربع سنوات، ذهب عالم العلوم السياسية، فرانسيس فوكوياما إلى أبعد من ذلك:

(1) روبرتس (2001).

قد نكون نحن الآن شاهدين... نهاية التاريخ في نفسها، أي نهاية التطور الإيديولوجي للإنسانية، ونشر شمولية الديمقراطية الليبرالية الغربية، بوصفها الشكل النهائي للحكومة الإنسانية(1).

والافتراضات التي يستند إليها هذا المدخل واضحة:

- لقد كان الغرب تاريخياً مختلفاً عن البقية، ولكن البقية تصير مشابهة للغرب إلى الحد الذي يجعل لفظة «الغرب» تعبيراً قديماً مهجوراً.
- إن فضائل المدخل الغربي واضحة بنفسها، وسوف يتوصل كل شخص إلى تبنيها.
- إن «تغريب» العالم سوف يحدث بشكل طبعيّ من دون أن يكون على الغرب أن يفعل أي شيء كثير.

ومع أن بعض مواطني الغرب قد يكون ما زال يؤمن بهذه القصة، فإن قلة من صناع السياسة يؤمنون بها، ونحن نستطيع أن نقلب تعليق جيه. إم. روبرتس، ونقول: إن فكرة الشمولية الغربية هي الآن غير موثوقة إلى الحد الذي صارت فيه موضع اهتمام للمؤرخين فقط، وإن أي واحد ينظر إلى ما وراء حدود الغرب يعرف أن العديد من الثقافات حول العالم « وليس الإسلام المحارب فقط» هي ثقافات مقاوِمة للتغريب إلى أقصى حد، وكون علماء العلوم الاجتماعية الجادين في الثمانينيات من 1980 ومطالع التسعينيات من 1990 قد

1. Francis Fukuyama, \'d4The End of History?\'d5, The National Interest, 16 (Summer 1989), pp. 4, 18.

استطاعوا أن يتخيلوا غير ذلك، فيبدو الآن تجلياً غير عادي للتبجح الغربي والانتصارية الغربية، ونأمل أن تكون روايتنا قد شرحت لماذا يكون الغرب مختلفاً عن البقية، وأن 2000 سنة من الحوادث التاريخية الفريدة قد شكلت مواقف الغرب، وجعلتها مختلفة على هذا النحو عن المواقف التي يتخذها أناس في أزمنة سابقة، وأناس في معظم الحضارات الأخرى اليوم. والفكرة التي ترى أن بقية العالم سوف توافق، وتلتزم برغبتها بالمناهج الغربية، هي ببساطة فكرة خيالية.

الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي

لقد تفحصنا الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي في الفصل السادس، وهدف الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي هو جعل العالم «أو أكثر ما يمكن منه» غربياً، وبالقوة إذا دعت الضرورة، وتُشجَّع الديمقراطية والرأسمالية في كل مكان، وحين يكون هناك تبرير قابل للتصديق من أجل غزو البلدان العنيدة، يجب أن تُحتل إلى أن يتم تأمين الديمقراطية، والرأسمالية.

الكثير من الغربيين يشارك في هذه الافتراضات:

- الغرب مختلف عن البقية.
- الغرب متفوق في نواح مهمة على معظم البقية.
- الغرب له عذر في فرض حضارته على البقية، لجعل العالم مكاناً أفضل، وأكثر سلماً، أو ببساطة لحماية الغرب من أنظمة الحكم المتطرفة.

- إذا أعطي الغرب أفقَ وقتٍ طويلٍ كافٍ، وأعطي السياسات الصحيحة، فإن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي يستطيع أن يعمل.

هناك ثلاث قضايا تتصل بالاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، **الأولى:** هل هو منسجم مع القيم الغربية؟ **والثانية:** هل هو عملي؟ **والثالثة:** هل يستطيع النجاح؟

هل الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي ليبرالي؟ بالتأكيد، هناك الالتزام بإدخال الديمقراطية والمؤسسات الليبرالية، ولكن مثلما تُبَيِّن روسيا وإيران عملياً، فإن من الممكن أن يكون لديهم انتخابات حرة بشكل متسامح من دون أن يكون لديهم مجتمع ليبرالي، وليس هناك شك في أن الرأسمالية يمكن أن تفرض فرضاً ناجحاً من الأعلى، ومن الممكن خلق الازدهار من دون عمل تلقائي مستند إلى المبادئ تقوم به أعداد كبيرة من الأفراد، ولكن ليس مجتمعاً ليبرالياً، فإن حضارة النموذج الغربي، أو الحرية لا يمكن أن يعاد إنتاجها إلا من خلال أعمال أفراد كثيرين نشيطين، وقادرين، وواثقين، أفراد محفوزين ومدفوعين قدُماً بطبيعة معتقداتهم، وأعلى أجزاء الحضارة الغربية قيمة «الأجزاء البارزة اليوم من جراء غيابها، كما في روسيا، أو باكستان، أو نيجيريا، أو زيمبابوي، أو العراق» لا تتعلق بالثروة أو بالديمقراطية الرسمية، ولكنها تتعلق بإحساس الأفراد بقيمتهم الخاصة ومسؤوليتهم، فمثل هذه الحضارة لا يمكن فرضها، إذ إنها تستطيع أن تتصاعد كالفقاعات من الأسفل إلى الأعلى،

مستندة إلى الثقة، والتصديق، والإيمان الشخصي العميق بالمساواة، والمبادرة، والمسؤولية.

والاستعمار الإمبراطوري الليبرالي لا يقود إلى الحرية، فهو قد يؤدي بدلاً من ذلك إلى جعل بروز المجتمع الليبرالي أبطأ، وأعسر، وأقل احتمالاً. فالمجتمع الليبرالي أكثر احتمالاً في البروز، حين تُترك البلدان وحدها لتجد خلاصها الخاص بها، من خلال الكفاح والتعاون المشترك، وإفريقية الجنوبية حالة معلِّمة هنا، ففي العام 1990، قلة جداً من الناس هم الذين تنبؤوا ببروز مجتمع ليبرالي، ومع ذلك فقد وصل، بسبب أعمال سكان إفريقية الجنوبية، فطبعاً، نجحت في كل الأحوال حتى في أحلك أيام التمييز العنصري، والعديد من العناصر من الحضارة الغربية، التي تتمثل في سياسيين منشقين، وصحافيين، ومؤلفين، وقادة أعمال تجارية وصناعية، نجحت في أن تبقى على قيد الحياة، والمؤثر، على كل حال، هو الكيفية التي صنع بها سكان إفريقية الجنوبية التحول، لا إلى الديمقراطية وحسب، بل إلى المصالحة أيضاً، وإلى المجتمع الليبرالي، ولقد فعلوها بالطريقة الوحيدة التي كان يمكن أن تثبت على الأرجح، وذلك بتولي المسؤولية عن بلدهم الخاص بهم، وعن ماضيهم ومستقبلهم.

إن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي لن يهزم قضية الحرية فقط في الأماكن التي يُفرض فيها، بل هو سيميل أيضاً إلى هدم الحرية في قاعدتها الوطنية، وإن الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي يحتاج إلى العضلات العسكرية الضخمة؛ لتنتشر في الأرض المعادية، ولذلك

ثلاث نتائج محتومة، وهي قد بدأت من قبل بالحدوث، **الأولى**: إن الحرب ستميل إلى جعل المثل العليا الليبرالية خشنة وخسيسة، داخل القوات العسكرية الأمريكية، وداخل الإدارة الأمريكية، وفي البلد بمجملها، حين تأخذ الحقوق المدنية المكان الثاني بالنسبة إلى الأمن الوطني، (الظاهرة نفسها يمكن ملاحظتها إلى درجة أقل في بريطانيا المعاصرة)، **والثانية**: هي أن أمريكا، وهي تقليدياً «وطن الأحرار» والصديق الطبيعيّ وحليف الشعب الذي يكافح في سبيل الحرية في كل مكان حول الكرة الأرضية، سوف تصير أقل فأقل شعبية، **والثالثة**: هي أن عدد الإرهابيين المعادين لأمريكا ودرجة كراهيتهم لأمريكا سوف تتضاعف. ومع زيادة الإرهاب، فإن الإجراءات اللازمة لمعالجة الإرهاب تميل إلى أن تصير غير ليبرالية أكثر فأكثر، وهذه الدائرة الشريرة تتجدد، وتشتد.

والقضية الثانية: هي أن الاستعمار الإمبراطوري يحتاج إلى مستعمرين دعاة إمبراطورية، وعلى الرغم من أن هناك مفكرين أمريكيين وبريطانيين كذلك، وقلة من صناع السياسة الأمريكية، ممن يحبذون مد الإمبراطورية الأمريكية في جميع أنحاء العالم، فإنه ما من إمبراطورية في العالم قد سبق لها أن غيرت قلوب وعقول شعوبها الخاضعة من دون استغراق عشرات، وعادة مئات من السنين لتفعل ذلك، ولم يكن ذلك من دون ملاكات (كوادر) كاملة من الاستعماريين المستوطنين المكرسين لغرس حضارتهم في أذهان الشعب الذي حكموه، وإن إقامة نظام حكم دمية أمر سهل، ولكن ليس من المستطاع فرض ديمقراطية محلية صلبة أو إقامتها، إذ يجب عليها أن تنمو نمواً

طبعيّاً، وتُشجع بالقدوة، وبالمغتربين الذين يؤمنون إيماناً أصيلاً بها، فأين هم هؤلاء الأمريكيون المغتربون، الراغبون في الخدمة طوال عقود، بعيداً عن الوطن لترقية الديمقراطية في إفريقية، أو في الشرق الأوسط أو في آسيا؟ إنهم غير موجودين، على الأقل بالأعداد الكافية، مع التكريس المطلوب على المدى الطويل.

والمشكلة الأخيرة مع الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي هي أنه ليس هناك سوق له، فلو وجد العرض من الاستعماريين دعاة الإمبراطورية، فإن الاستجابة الراغبة من السكان المحليين ستكون مطلوبة، وذلك محض خيال، إذ الاستعمار الإمبراطوري فكرة قد ولى زمانها، ففي القرن التاسع عشر نفسه، وفي مطالع القرن العشرين، حين كان هناك عشرات الآلاف من البريطانيين المكرسين للاستعمار الإمبراطوري مع آخرين من الاستعماريين الأوروبيين، فإن الاستعمار الإمبراطوري حقق درجات من الفشل أكثر إلى حد أبعد مما حقق من النجاحات، وبرغم كل القوة، وكل الحوافز المالية في العالم، فإن الثقافة الأوروبية، في كل حالة من الحالات تقريباً، لم تختلط مع من يكفي من الشعب؛ لتجعلها تدعم نفسها بنفسها بعد انسحاب الأوروبيين، وفي الوقت الذي تحركنا فيه أكثر فأكثر في العالم الذي كانت فيه نقاط ضعف الثقافة الغربية واضحة، وكانت فيه دوافع بناة الإمبراطورية الغربية موضع عدم الثقة بشكل متزايد، فلابد أن يكون واضحاً لكل واحد يملك مسكة من العقل السليم أن الشعوب خارج الغرب لن تسمح للقواعد الأخلاقية الغربية بأن تفرض عليها.

قال جورج أورويل: إن بعض الأفكار غبية إلى الحد الذي يجعل المفكرين فقط قادرين على الإيمان بها، وكانت الشيوعية - مثلاً - واحدة منها، والاستعمار الإمبراطوري الليبرالي مثل آخر، وإن الناس خارج الغرب سوف يختارون ما يريدون من الغرب، وما يكون متلائماً مع معتقداتهم الموجودة سابقاً، وتخدم طموحاتهم، ويطرحون البقية جانباً، وإن أي محاولة منظمة لفرض طريقة الحياة الغربية وحدةً واحدة، مصيرها لا إلى الفشل وحسب، بل إلى أن تؤخر التبني العاقل، والجزئي لبعض عناصر التفكير الغربي من قبل الناس الذين يمتلكون عقولاً، وثقافات تخصهم هم.

العالم ـ أمريكا

منذ العام 1918، وإلى حد أكبر منذ العام 1945، ولكن بشكل أكثر تحديداً منذ العام 2001، كان هناك دعم متزايد في دوائر السياسة الأمريكية للرأي القائل: إن سلام العالم وازدهاره يتطلبان قيادة دولية نشيطة، وتدخلاً من الولايات المتحدة، وهذه العقيدة، التي ندعوها العالم ـ أمريكا، هي فعلياً استعمار إمبراطوري جُرِّد من زخارف الديمقراطية الثقيلة.

إنها عقيدة ليست من دون مثلها العليا، وليست مصممة بكاملها لترقية المصالح الأمريكية، إذ إنها تعترف بالسيطرة العسكرية الساحقة للولايات المتحدة، التي تعتبر أقوى من السبع عشرة أمة التي تليها إذا وضعت كلها مجتمعة، فإنها ترى الحاجة إلى تلك القوة؛ لتستخدم استخداماً مسؤولاً لصيانة النظام الجيد، والاحتشام عبر العالم.

أحياناً تستخدم هذه العقيدة بطريقة تسيطر على الإعجاب العام «مثل ما حدث على سبيل المثال في التدخل لإنقاذ الشعب البوسني من الإبادة العرقية، ولكن الرأي الذي يرى العالم» أمريكا يذهب بعيداً إلى ما وراء التدخلات الإنسانية.

إن عرض المنظمات الدولية التي ترعاها أمريكا، من البنك الدولي إلى الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة (غات) إلى صندوق النقد الدولي إلى عشرات من البيروقراطيات الدولية ذات الأسماء المكونة من الحروف الأولى من أسمائها، يصوِّر نظاماً عالمياً شاملاً اقتصادياً، وسياسياً، وإنسانياً، يتبع الأنماط الأمريكية بشكل عام، والرسالة بسيطة، هناك طريقة شاملة، وحديثة واحدة لإدارة الأعمال والجغرافية السياسية، وهي الطريقة الغربية: عقلانية، ومستندة إلى السوق، وكونية، لا تسمح بأي حدود لتحدد نطاق تأثيرها.

ورؤية العالم ـ أمريكا تقدم الأحكام الضمنية الآتية:

- الغرب يمثل الحداثة، وهو متفوق على البقية.
- يجب أن يكون هناك صيغة عالمية شاملة تستند إلى النمط الغربي، وعلى وجه الخصوص النمط الأمريكي.
- يجب على الغرب أن يجعل البقية تنسجم مع هذا النمط.
- يجب على بلدان الغرب أن تقلل تنوعها الثقافي، والسياسي، وتنسجم مع هذا النمط، وإذا دعت الضرورة يجب التضحية بالمصالح المحلية؛ لكي تتطابق مع طبعة شاملة عالمية.

- الطبعة أمريكية بشكل يمكن التعرف به وتحديده، ولكنها تتطلب من الولايات المتحدة أن تتخلى عن خيار العودة إلى القومية الضيقة، أو الانعزالية، وبشكل فظ، العالم ـ أمريكا سيصير وسيبقى الشرطي الرئيس للعالم، وضمن قيد قوى السوق، سوف يؤثر العالم ـ أمريكا تأثيراً ثقيلاً على العوامل الثابتة الاقتصادية للعالم (على سبيل المثال، المعروض النقدي، ومعدلات الفائدة، ومعدلات الصرف، وقواعد التبادل التجاري).

العالم ـ أمريكا لم يصل حتى الآن بشكل كامل، ولا يعتبر مجيئه محتوماً، أو مرجحاً فإنه سؤال مفتوح، ودَعْ جانباً إمكانية أن تضعف أمريكا على مدى القرن القادم بالنسبة إلى القوى الأخرى، وهناك أيضاً قوى قوية داخل أمريكا نفسها تدافع عن أمريكا «القومية» ضد النخب «الدولية» و«الاستعمارية»، وقوى شعبية مؤثرة في كلا الحزبين السياسيين.

في العام 2004، اختتم صامويل هنتنغتون كتاباً عن هوية أمريكا بكلمات مؤثرة: إن عناصر مهمة من النخب الأمريكية ميالة إلى أن تصير أمريكا مجتمعاً دولياً، وترغب نخب أخرى لأمريكا أن تتولى دوراً استعمارياً إمبراطوريا، والكتلة الكاسحة من الشعب الأمريكي ملتزمة ببديل قومي، وبحفظ الهوية الأمريكية التي وجدت طوال قرون وتقويتها، فأمريكا تصير هي العالم، والعالم يصير هو أمريكا، إذ أمريكا تبقى أمريكا، دولية؟ استعمارية إمبراطورية؟ قومية؟ إن

الخيارات التي سيختارها الأمريكيون ستشكل مستقبلهم، بوصفهم أمة، وستشكل مستقبل العالم[1].

ويلاحظ هنتنغتون أن الجمهور الأمريكي أكثر قومية، وأقل ميلاً إلى «عبور القومية» من زعمائه السياسيين، وزعمائه في الأعمال التجارية، والصناعية: ... في ستة استطلاعات للرأي من العام 1978 إلى العام 1998، فضَّل 96 إلى 98 بالمئة من نخب السياسة الخارجية أن تأخذ الولايات المتحدة دوراً نشيطاً في الشؤون الدولية، ولكن 59 إلى 65 بالمئة فقط من الجمهور فضل ذلك ... لقد كان الجمهور أكثر تردداً بكثير من القادة في استخدام القوات العسكرية الأمريكية للدفاع عن بلدان أخرى.

وهنتنغتون، إذاً، ضد ما نسميه العالم ـ أمريكا، وهو بلا شك يتحدث نيابة عن كثيرين، وربما نيابة عن الأغلبية، من الأمريكيين العاديين[2]، ومن الواضح أيضاً أن كلاً من الزعماء السياسيين لأوروبا

(1) هنتنغتون (2004).

(2) توحي استطلاعات الرأي، أن الجمهور الأمريكي، في الأوقات العادية، لا يحب الحروب الأجنبية، وحين تكون هذه الحروب بلا تكلفة نسبياً فقط، أو حين يكون هناك إحساس قوي بأن أمريكا نفسها مهددة بأعداء خارجيين، حين ذلك يميل الأمريكيون إلى تفضيل الحرب، ومن هنا يفضلون دوراً استعمارياً إمبراطوريا، ولقد أنتجت الانتخابات الرئاسية الأمريكية للعام 2004 أغلبية شعبية ضئيلة كانت مفضلة للرئيس صاحب المنصب، الذي جادل، ضد توازن الرأي المطلع، في أن 11/9 احتاجت إلى حرب في العراق، وفي غياب الاعتداءات الإرهابية، أي، في الظروف العادية، فإن من غير المرجح، على الرغم من أنه ليس مستحيلاً أن يفضل الجمهور الأمريكي مدخل العالم =

وشعوب أوروبة يميلون ميلاً قوياً ضد خيار العالم ـ أمريكا بأغلبيات ضخمة، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يمكن أن يحدث، فالبنية التحتية العسكرية والتنظيمية موجودة في مكانها من قبل، ونحن لا نعني «شوربة الحروف»، أي، وفرة كلمات المختصرات، للبيروقراطيات الدولية والوكالات «فوق القومية» الأخرى التي ترعاها أمريكا، التي منها صندوق النقد الدولي الذي هو مجرد أوضح مشغِّل فعال للعالم ـ أمريكا[1]، ونحن أيضاً نعني قوة أمريكا العسكرية الكاسحة تماماً وحضورها، وكما يقول فيرغسون:

قبل نشر القوات العسكرية من أجل غزو العراق، كانت القوات العسكرية الأمريكية تمتلك 752 منشأة عسكرية في أكثر من 130 بلداً، وكانت أعداد مهمة من القوات العسكرية الأمريكية مرابطة في 65 بلداً من هذه البلدان ... فإذا كانت القوة العسكرية هي العنصر الجوهري للإمبراطورية، فإن من الصعب، آنئذ أن نتخيل كيف يستطيع أي شخص أن ينكر الشخصية الاستعمارية الإمبراطورية للولايات المتحدة اليوم[2].

= أمريكا وإن المشاركة الأمريكية في حروب ما وراء البحار كانت قد تم «بيعها» دائماً إلى جمهور أمريكي متردد من قِبَل نخبه السياسة أكثر، مما هي ناشئة من قومية شعبية قوية.

(1) كفاءته، فهناك حالات عديدة فحَص فيها المراقبون الموضوعيون آثار «نصيحة» صندوق النقد الدولي لبلدان العالم الثالث، ووجدوها نصيحة لا ترتفع إلى مستوى المعايير أو التوقعات، وصندوق النقد الدولي فعال في أمر الدول ذات السيادة في جميع الجوانب، لا في جعل اقتصاداتها ناجحة.

(2) فيرغسون (2004).

إن أمريكا تمتلك البرنامج والقوة اللازمين من أجل لعب دور العالم ـ أمريكا، ومن السهل أن نرى كيف أن مدخل العالم ـ أمريكا الكامل الصفات يمكن أن يظهر، وتخيل أن التأثيرات الأمريكية الاقتصادية والثقافية مستمرة بالانتشار على نطاق واسع، وأن التجارة الحرة الشاملة ـ التي تحابي القوي حتماً ـ قد فُرضت في كل أنحاء العالم، وتخيل الأصولية الأمريكية، وقد صارت أكثر تأثيراً مما كانت عليه، وذلك عن طريق تشكيل كتلة سياسية تسهم في دعم أكثر مرشحي الرئاسة محافظة، وأن الأصوليين، وقد صاروا كذلك أشد تعصباً بشكل واضح، وأن هناك هجمات متجددة بالقنابل على مدن الولايات المتحدة، وأن الإجراءات المضادة للإرهابيين تحدِّد الحريات المدنية تحديداً متزايداً، وأن سلطة الرئاسة ووكالاتها تتصاعد أعلى فأعلى، وأن هجرة غير البيض قد أوقفت، وقد تم استئصال الجريمة عن طريق وسيلة سهلة، وهي سجن أي شخص مجرم، أو قد يصير مجرماً، ويكون السلام الأمريكي مفروضاً في كل أنحاء الكرة الأرضية، وأن أنظمة حكم أمريكية من الدمى تقام في الكثير من بلدان الشرق الأوسط والبلدان الآسيوية، وتثبت أنها أكثر بقاء من أنظمة الحكم التي كانت تقام، حين كان الغرب يشعر أنه ملزم بمحاولة إدخال الديمقراطية، وبالرغم من كل ذلك، فإن الشباب الناقمين يزيدون نمو صفوف الإرهابيين المعادين لأمريكا.

ومع السيادة الأمريكية العسكرية، والعلمية، والاقتصادية، يشكل مدخل العالم ـ أمريكا حضارة جديدة وطويلة البقاء، وبقسوة لا تعرف

الرحمة مثل روما الإمبراطورية، قد تحكم رؤية العالم ـ أمريكا معظم العالم، أو ربما تحكم كل العالم، إلى جانب حلفائها في أوروبة، واليابان، وكوريا، وتفرض قوى مثل الصين، وروسيا، والهند مشكلات كبيرة، ولكن، وبعد سنوات قليلة من النزاع الدموي، سوف يمتد السلام، وسهولة الانقياد، والازدهار إلى كل الكرة الأرضية، وإن مدخل العالم ـ أمريكا بقدر ما يبدو غير قابل للتصديق اليوم، قد يحير نقاده، وينقذ كوكب الأرض عن طريق الفرض الاستبدادي المطلق لممارسات «خضراء» صارمة إلى درجة عالية وشاملة للعالم، تكسب بها أمريكا استحسان البيئيين الجادين في كل مكان، وستكون شوارع كل مدن العالم آمنة للسياح من كل لون، والإصابات الوحيدة ستكون هي الحرية، والعديد من الحضارات التي تستحق الاحترام حول العالم، ومن جملتها الحضارة الغربية.

الغرب القلعة

و«النموذج العقلي» الرابع للغرب والبقية هو نموذج من النادر أن يوضح علانية، فهو في الغالب ضمني، وأحياناً صريح في خطابة وسياسات الأمريكيين الشعبيين والانعزاليين، والقوميين، والكارهين للغرباء في عدة بلدان أوروبية، وهؤلاء السياسيون «الهامشيون» أهم مما قد يبدون، فإنهم يقولون في الغالب ما ترك من غير قول في الدوائر المؤدبة، ولكن يفكر فيه العديدون، ومن جملتهم بعض صناع القانون في التيار الفكري العام، و«الثلث غير الليبرالي» الذي يقال: إنه يكمن داخل معظم جمهور الناخبين، فالغرب القلعة يعني ضمناً «تباً للبقية».

- الغرب متفوق على البقية.
- البقية تعني الإزعاج للغرب.
- اعزلوا البقية عن الغرب.

المحتجون من «المعادين للعولمة» يُوبِّخون الغرب بسبب استغلاله للعالم الثالث، ولكن السياسيين المنادين برؤية الغرب القلعة هذه يقلبون الاحتجاج على رأسه، فيلاحظون بشكل صحيح أن كل بلد غربي يقوم بمعظم تبادله التجاري مع بلدان متقدمة أخرى، وهكذا فالحاجة إلى التكامل مع العالم الثالث هي حاجة أقل بكثير مما يُظن عموماً، وعلى الرغم من أن نموذج الغرب القلعة هو من الجناح اليميني، فهو مختلف جداً عن الاستعمار الإمبراطوري الشامل لنموذج العالم ـ أمريكا.

إن سيناريو الغرب القلعة يسير، وقابل للتصديق، فتحت الهجوم الإرهابي المتجدد، والنمو في السكان المهاجرين، يتراجع الغرب إلى نفسه لحماية حضارته، وكما هو الحال مع نموذج العالم ـ أمريكا، فإن الهجرة إلى الغرب تتوقف عملياً، ولتجنب النزاع مع بقية العالم، يتم التخلي عن كل المحاولات الهادفة إلى نشر الديمقراطية والرأسمالية، ويتوقف الغرب عن محاولة مد التبادل التجاري إلى ما وراء حدوده، ولا يُشجع الانتشار التقاني، فهناك دفاع مخيف عن أرض الغرب، ويتم الابتعاد عن المغامرات العسكرية، وفي بناء الغرب لقلعته، وفي إهمال

بقية العالم، في الواقع، يأمل مهندسو رؤية الغرب القلعة في أن النمو في سكان بقية العالم واقتصاداته سوف ينهار، مخففاً الخطر البيئي.

قد لا تعمل الإستراتيجية، فبالنسبة إلى البداية، سيكون هناك حاجة مستمرة إلى الاشتراك مع بقية العالم من أجل المواد الأولية والموارد، وزيادة على ذلك، فمثلما هو الحال مع الجماعات المحمية إلى درجة عالية ـ بالبوابات ـ في الأماكن المضطربة، فسوف نشهد على الأرجح خوفاً متنامياً، وفقداناً للأمن، وجنون العظمة في الداخل، ونشهد خيبة أمل متزايدة، وحسداً، وغضباً في الخارج.

الدولية (الكوزموبوليتانية)

وجهة النظر الدولية، مثلها مثل الشمولية الغربية، ترى أن العالم سينتهي عاجلاً أم آجلاً بحضارة واحدة مهيمنة وحصرية حديثة تقريباً، ولكن دعاة الدولية، خلافاً لدعاة الشمولية الغربية، يرون الفكرة التي تعد أسعد، وأكثر توازناً هي أن ثقافات العالم سوف تختلط، ويخترق بعضها بعضاً، وفي النهاية سوف يلتقي الشرق والغرب، وسيكون العالم عائلة واحدة كبيرة :

- الشرق يصير الآن مثل الغرب، ومثل ذلك في الاتجاه المعاكس.
- الطموحات الإنسانية شاملة، والاختلافات الثقافية هي مجرد عوائق معتدلة فقط على الطريق إلى الحداثة، والتقاليد، والأعراف الشاملة.

- هناك ميزات لكل من الطريقين الغربي والشرقي في معالجة القضايا، وفي النهاية سيكون السوق واضحاً في تفضيل الطرق التي تكون أكثر مساعدة في التوجه نحو السعادة الإنسانية.
- فإذا افترضنا التلاقي الثقافي، فليس هناك حاجة إلى أي إستراتيجية معينة غربية نحو البقية (أو في الاتجاه المعاكس).

وعلى الرغم من أن الغربيين قد لا يوافقون موافقة كاملة على هذه الاقتراحات، فإن معظم الحضريين والمتمدنين منهم قد كانوا متأثرين تأثراً عميقاً بوجهة النظر الدولية، ويبين ريتشارد ئي. نيسبت في كتابه جغرافية الفكر، كيف أن طرق التفكير الشرقية والغربية مختلفة، ولكنه أشار إلى أن هناك بعض العلامات على التلاقي.

لم يسبق أبداً أن كان هناك اهتمام أكبر بين الغربيين في الفلسفة الشرقية، وبالتخصيب المتبادل بين الأفكار، من بوذية زن إلى حركة العقل، والجسد، والروح، ومن مقاومة غاندي السلبية غير العنيفة إلى تكتيكات مارتن لوثر كنغ، ومن الماركسية إلى الماوية، ومفاهيم مثل «الكارما» (المصير)، أي، تأثير أفعال الإنسان على مستقبله حسب الهندوسية والبوذية، قد تغلغلت في معجم الملايين في الغرب، في الوقت الذي عُدِّلت فيه مفاهيم الرأسمالية تعديلاً عميقاً في أماكن، مثل اليابان والصين لتقترن بقوة السوق مع مجتمعات أكثر تراتبية هرمية وجماعية تعاونية، وإن أحد أهم التجديدات العلمية الغربية منذ العام 1970، وهو الدراسة المتعددة الاختصاصات لموضوع

«الفوضى» و «التعقيد»، يمكن النظر إليه، بوصفه نتيجة للتفكير الكلّاني ـ الشرقي ـ، وهو يبين كيف تبرز النظم المعقدة وتنسجم، وتخلق شيئاً أكبر من أجزائها المكونة لها، ومختلفاً عنها[1].

وعلى مستوى أقل تمجيداً، ولكنه ربما كان أكثر تأثيراً، قلدت الثقافات المختلفة تقليداً سعيداً ـ أو على الأقل تقليداً ساخراً (كاريكاتورياً) ـ مطبخ بعضها بعضاً، فلقد استورد الغرب الطعام الآسيوي والطعام الانتقائي المتنوع المدعو «عالمي» (أي، غير غربي)، في مقابل تصدير لا يلين للهمبيرغر، والبيتزا، والمشروبات غير الكحولية ذات العلامات التجارية، وقطع الدجاج المقلي المنتجة من خط الإنتاج الآلي، وبلا شك، كل تبادلات الناس، والمنتجات، والمقترحات بين القارات تفعل شيئاً؛ لتوسيع العقل مثلما تعمل على توسيع القاعدة، وتساعد على جعل العالم مكاناً أكثر تسامحاً، مثلما تجعله مكاناً أقل تلويناً كذلك.

ومع ذلك، فهناك شيء ما مصطنع نوعاً ما بشأن الأطروحة الدولية، فليس هناك دليل على أن الهوة بين طرق التفكير الغربية، وغير الغربية تصير أصغر، حتى في الاقتصادات الرأسمالية المتطورة تطوراً كاملاً، مثل اليابان، فالاستهلاكية، وهوليوود، والعلامات التجارية الغربية، والموسيقا الشعبية تقوم بعمل خطوات كبيرة خارج الغرب، ولكن الجاذبية كبيرة إلى هذا الحد؛ لأنها - بدقة - سطحية،

---

(1) انظر:

Richard Koch (2001) the Natural Law of Business, Doubleday, New York, Chapter 10; James Gleick (1987) Chaos, Little Brown, New York; M. Mitchell Waldrop (1992) Complexity, Simon & Schuster, New York.

وهي حل سريع للحداثة، لا يتطلب أي ملاءمة للمواقف العميقة من الحياة، والمجتمع، ولا حاجة إلى التصرف على نحو مختلف.

واستيراد الأفكار الشرقية، والأديان بشكل خاص، إلى الغرب هو، في معظمه، سطحي بشكل مساو، وغطاء خفيف من الروحانية التي يسهل اكتسابها، وهي محاكاة مضحكة للدين الشرقي الحقيقي، والذوق الغربي الميال إلى الخبرة الأجنبية الجمالية والدينية ليس جديداً، ويعود في تاريخه على الأقل إلى أواسط القرن التاسع عشر، وما غيَّر هذا الذوق المواقف الغربية مثقال ذرة ـ والاهتمام الأكبر من الاهتمام السابق بالأديان البوذية، والشرقية الأخرى، والذي يمثل التأمل الهادئ ووعي العالم فيما وراء نفس المرء قد تطابق مع فردية غربية أكبر مما سبق، ومع تسارع مطرد في إيقاع الحياة وخطوها، ولكلمات أوزولد إشبنغلر من العام 1918 رنين يتردد اليوم: ... نحن نملك في العالم الأوروبي اليوم خداع المؤمن بغيب السحر، والتنجيم، وخرافة مكر ثيسوبس، والعِلْم الأمريكي المسيحي، والبوذية غير الصحيحة في غرف الزوار، وأعمال الفنون، والحرف الدينية (وهي في ألمانيا أسرع نشاطاً منها في انجلترا) التي تعنى بحاجات جماعات، ونظم دينية من رأي قوطي، أو تقليدي متأخر، أو عاطفة تاوية، وهي في كل مكان مجرد لَعِب بالأساطير التي لا يصدق بها أحد فعلاً، وتذوقٍ للأنظمة الدينية التي يؤمل أنها قد تملأ الفراغ الداخلي، فالمادية ضحلة وصادقة، وأما الدين الزائف، فضحل وغير صادق[1].

(1) إشبنغلر (1991)، ص 346.

النظرية الدولية تفشل فشلاً كاملاً في أن تفهم التأثير المغيِّر العنيف الذي تؤثر به الحضارة الغربية على معظم المجتمعات غير الغربية، ومنذ العام 1850، وجدت هذه المجتمعات الأخيرة بشكل متزايد أن من الصعب عليها أن نتجاهل الغرب، وأفكاره، وممارساته، وذلك على الأقل بسبب الرفاهية، والتقدم في عدد سنوات العمر المتوقعة التي يقدمها الغرب، ومع ذلك فقد ثبت، لمعظم غير الغربيين، أن من الصعب عليهم أو من المستحيل أن يصيروا غربيين حقيقة، وذلك مثلما كان من المستحيل بالضبط على لورنس العرب نفسه أن يصير عربياً حقيقة، وبالنسبة إلى الكثيرين من الناس خارج الغرب، فما زال هناك شيء ما غريب، بل مثير للاشمئزاز حول الثقافة الغربية والفردية الغربية.

يحب دعاة الدولية أن يستنتجوا ضمناً أن التبادل الفكري بين الغرب والبقية يسير في طريق باتجاهين، وهو جوهرياً تبادل متساو للتجديدات الغربية وغير الغربية، ولكن هذه ببساطة ليست هي الحالة، فلقد كتب بيتر واطسون حديثاً، وهو مراقب منصف حريص، تاريخاً للأفكار في القرن العشرين، ويخبرنا بالقول «حين تم تصور العمل كان قصدي أن أجعل النص دولياً، ومتعدد الثقافات إلى أكبر قدر ممكن» وثبت أن هذا الأمر كان أصعب مما توقع:

بدأت بالعمل باتجاه محدد لي من خلال العلماء الذين تخصصوا في الثقافات الكبيرة غير الغربية: الصين، واليابان، وإفريقية الجنوبية والوسطى، والعالم العربي، وقد صدمت (وهي كلمة ليست قوية بما

يكفي) إذ وجدت أنهم كلهم (وأنا لا أبالغ، لم يكن هناك أي استثناءات) قدموا الجواب نفسه، وهو أن الثقافات غير الغربية، في القرن العشرين، لم تنتج أي كتلة من العمل يمكن أن تقارن مع الغرب... نسبة جيدة من هؤلاء العلماء كانوا هم أنفسهم... غير غربيين... وأكثر من عالم أفصح عن نقطة هي أن الجهد الفكري الرئيس لثقافته (غير الغربية) في القرن العشرين كان يتمثل في الوصول إلى اتفاق مع الحداثة، والتعلم كيف يعالج بنجاح الطرق الغربية، والأنماط الغربية للفكر، ويرد عليها، وبشكل رئيس الديمقراطية والعلم.

طبعاً، هناك كتاب صينيون مهمون، ورسامون من القرن العشرين، ونحن كلنا نستطيع أن نفكر بمخرجي الأفلام اليابانيين المهمين، وبالروائيين الهنود، وبالمسرحيين الأفارقة... ولكن، لقد قيل لي تكراراً: إنه لا يوجد مكافئ صيني في القرن العشرين، ولنقل: لما فوق الواقعية (سريالية) أو للتحليل النفسي، ولا يوجد إسهام هندي يضاهي الوضعية المنطقية، ولا يوجد مكافئ إفريقي لمدرسة حوليات التاريخ، وأي قائمة حرصتَ على أن تعملها لتجديدات القرن العشرين، ولتكن اللَّدَائِن، أو المضادات الحيوية، أو الذرة، أو روايات تيار الوعي، أو الشعر الحر، أو التعبيرية المجردة، فإنها بأكلها تقريباً غربية[1].

إن وجهة النظر الدولية ساذجة على نحو يائس، وإن نماذج الفكر والعمل متجذرة تجذراً عميقاً في التاريخ، والجغرافية، والدين، وبنى السلطة في مجتمعات معينة، وليس بالمستطاع أن يتم تبادلها حسب

(1) واطسون (2000).

الإرادة من خلال الاستهلاكية، أو التغيرات الثقافية، أو التفكير المعبر عن الرغبات.

التعايش والجاذبية

إن الخيار الذي نعتقد أنه يتلاءم أفضل تلاؤم مع الحقائق الواقعية الثقافية هو تركيبنا الخاص بنا، وهو إستراتيجية التعايش والجاذبية، وهو خيار يراعي :

- هناك العديد من الحضارات غير الغربية المختلفة، وكلها مختلفة جوهرياً عن الحضارة الغربية.
- وبحسب المعيار الذي يراه الغربيون عزيزاً، فإن الحضارة الغربية انتصار مذهل، ولقد كانت أنجح من أي حضارة أخرى في زيادة رفاهية مواطنيها، ومدة العمر، والكرامة، والإبداع، والحرية الشخصية، وفي نصف القرن الماضي، زادت الآمال بالنسبة إلى الغربيين في حياة حرة من دون ويلات الحرب.
- والمظهر السلبي للحضارة الغربية هو تمزيقها الذي لا يفتر للتقاليد، ولأنماط الفكر المستقرة، وللسلطة الدينية والعلمانية، وللاستقرار الشخصي والاجتماعي، ولمحيط بيئة الكوكب الأرضي.
- لقد تطفل الغرب على حضارات أخرى بشكل ضخم، بالقوة وبالتوسع الاقتصادي، ومن خلال قواها غير المسبوقة في الاتصالات، ولم تتطفل أي حضارة أخرى على الغرب بطريقة يمكن مقارنتها طوال 500 سنة على الأقل.

● يقدم الغرب منافع ضخمة، وتكاليف ضخمة لغير الغربيين، والمنافع بالدرجة الرئيسة في شكل فرصة شخصية وحرية، والتكاليف بالدرجة الرئيسة هي التمزق الاجتماعي، والاضطراب الشخصي، والتحدي للمعتقدات والهويات الراسخة.

● ومع أنه ما من حضارة غير غربية تقدر منافع الغرب عالياً، بمثل ما يقدرها الغربيون، وأن كل الحضارات غير الغربية تقدر التكاليف التي يأتي بها الغرب تقديراً أثقل بكثير من تقدير الغربيين لها، فإن الحضارات غير الغربية المختلفة، والناس المختلفين، والجماعات المختلفة داخل تلك الحضارات، يزِنون منافع التغريب وتكاليفه وزناً مختلفاً، وتنقسم الحضارات إلى ثلاثة أصناف رئيسة:

* الحضارات التي تعتبر مستقبلة نوعاً ما على الأقل للحضارة الغربية، بسبب التعرض التاريخي لها، وبسبب الخصائص الثقافية و/أو العرقية المشتركة (الأمريكيون اللاتين، الروس/ الأرثوذكس، بعض الأفارقة).

* الحضارات التي تقدر العلم والنمو الغربيين، وهي مفتوحة للمعرفة وللمهارة الغربية، ولكنها تريد أن تحتفظ بثقافتها وقيمها الخاصة (اليابانيون، والصينيون، والبوذيون، وربما الهندوس، وبعض الأفارقة).

* الحضارات المعارضة للحضارة الغربية معارضة جوهرية، أو بشكل عنيد (بعض الإسلاميين).

- في كل حضارة هناك أقلية (أحياناً أقلية قليلة جداً) من الأفراد الطامحين الذين يتماهون مع القيم الغربية، وهؤلاء الأفراد يسعون على الأرجح إلى الهجرة إلى الغرب، وهذه العملية، على الأقل إلى زمن، تسحب معظم الموالين للغرب من غير الغربيين، وتجعل المجتمعات غير الغربية أقل موالاة للغرب.

ونحن نعتقد أن كل هذه النقاط قد ثبتت بالدليل الذي قد عرضناه، أو هي استنتاجات معقولة منه، فإذا كان هذا مقبولاً، فما الذي يمكن للغرب أن يفعله، بالنسبة إلى البقية ليرتقي بمصالحه وبأمنه؟ نحن نعتقد أنها ثلاثة أشياء:

الأول: احترام التنوع، فإن العالم لن يصير غربياً. وكذلك، لا الغرب، ولا البقية، سيصير هو العالم، فالتنوع هنا ليبقى، فإذا كان التفاهم المشترك هو الذي سيسود، فإن الغربيين يجب أن يكونوا محترِمين له، وأن يتوقفوا عن افتراض أن غير الغربيين يمتلكون، أو يجب عليهم أن يمتلكوا القيم نفسها، وإن أقصى ما يستطيع الغرب أن يتوقعه من حضارات معينة هو أنها تتسامح مع طرق الغرب، ولو كانت تمقتها بشدة، ونحن لا نستطيع أن نتوقع مثل هذا التسامح ما لم نتسامح نحن أيضاً مع ما نمقته بشدة.

الثاني: أعد تقوية المثل العليا الغربية، ففي تنازع الأفكار والمثل العليا، الأعداد لا تهم، ولو كانت تهم، لما تغيرت الآراء والمعرفة أبداً، وما يهم هو، إلى حد معين، القيمة الذاتية للأفكار وللمثل العليا[1]، وإلى حد أكبر الشدة التي تُعتقد بها هذه الأفكار والمثل، وكل دين مهيمن بدأ بصفته طائفة ضئيلة، قادرة على تغيير عقيدة الآخرين من خلال قوة القدوة والإقناع، وإن قيادة الغرب الإيديولوجية ـ أي، حقيقة أنه لا توجد حضارة أخرى تمتلك مثل هذه المجموعة من الأفكار المتقدمة، أو المتماسكة التي تعمل على هذا الوجه الصحيح إلى هذا الحد ـ ليست ضماناً أن الإيديولوجية سوف تبقى مهيمنة، أو تبقى على قيد الوجود كذلك، فإذا كنا نحترم التنوع، ولا نفرض مثلنا العليا بالقوة، فإن شدة الإيمان حينئذ ستكون هي الأسمى.

والإيمان ليس بالدرجة الرئيسة مسألة إيمان يستخدم كالأداة، أي أن الفكرة قيِّمة؛ لأنها مفيدة مادياً، والإيمان بالدرجة الرئيسة هو مسألة أخلاقية و/أو إيمان روحي، أي أن الفكرة هي أيضاً مثل أعلى، وطموح إنساني ذو قيمة، وإن الغرب يستطيع أن يبيع محيطات من الكوكا كولا، ولكن محيطات الكوكا كولا لا تستطيع أن تبيع الغرب، وما يستطيع الغرب أن يعرضه عرضاً متميزاً ليس الوفرة؛ لأن هذه الوفرة

(1) في الحديث عن ـ القيمة الذاتية ـ للأفكار، لا نعني أن نضمر أن بعض الأفكار صحيحة بشكل مطلق، أو قيمة بشكل مطلق، نعني فقط أن بعض الأفكار أفضل من أفكار أخرى في تحقيق أهداف إنسانية معينة في بيئة محددة، وفي وقت محدد.

تستطيع أن تأتي، مثلما أظهرت ذلك اليابان، من دون تبني المجموعة الكاملة من القيم الغربية، وما يمتلكه الغرب ليقدمه هو الحرية الفردية، فإذا كان الغربيون لا يقدرون الحرية الفردية كثيراً، أو يتظاهرون بأنهم لا يفعلون، فلن يكون لدى الغرب شيء يملكه ليعطيه، ولن يكون لديه شيء يملكه، وينبغي أن يحفظه.

الثالث: اجتذب البقية إلى الغرب، فلا يكسب المرء، في هذه الأيام، زوجاً أو شريكاً رومانسياً بالقوة، أو بالتودد الملحاح، أو المتجاوز للحدود، بل يجتذب المرء الآخرين بكونه صديقاً، وفاتناً، ومرضياً، ومتآمراً، لا بل قليل الثقة بنفسه أو متظاهراً بالخجل، باختصار، بأن يكون جذاباً. في السوق الحديث للآباء وللأصدقاء، ينشد الناس العلاقة ويسعون لها، لا تباع لهم، وإذا كان هناك أي بيع، فهو ناعم للغاية، ومرهف دقيق.

وهكذا يكون الأمر مع الحضارات والمجتمعات، ففي القرن التاسع عشر، مد الغرب حضارته بالقوة، وفي غضون عشرين سنة فقط بين العام 1875 والعام 1895، استولت ست قوى أوروبية على ربع أرض الكرة الأرضية، ودمجت تلك البلدان في إمبراطورياتها، ورأى القرن العشرون انهيار الإمبراطوريات الغربية، وفي تعابير جغرافية محضة، ومن حيث الأرض، وعدد الرعايا، انحدر الغرب، كما تنبأ إشبنغلر في العام 1918، إلى جزء صغير من حجمه المنتفخ، وفي الحقيقة، لم يكن هذا انحداراً: لقد كان ببساطة فكاً لمشروع غير قابل للاستدامة، وهو تحويل الثقافات الغريبة والشعوب وتغييرها بالقوة.

حدث تحول عميق في وسط القرن العشرين، تحول من تلك التحولات التي ترفع قيمة الحياة في المواقف وفي السلوك، وهي تحولات يجري التقليل غالباً من تميزها والثناء عليها، أو لا تكاد تلحظ، ففي الغرب، خرجت فكرة الاستيلاء على الأرض، أو غزو بلد مجاور أو بعيد وادعاء أن أرضها وشعبها ملك لمن غزاها، فقد خرجت فجأة من الطراز الدارج، وربما إلى الأبد، والمنفعة فيما يتصل بالسعادة الإنسانية، وغياب البؤس منفعة ضخمة، ولا تحصى.

والطريقة الحديثة لنشر النفوذ والأفكار هي الطريقة الطوعية، لا بالقوة، ولكن بالجاذبية، وذلك هو السبب الذي من أجله قامت الأفكار الغربية ـ وخصوصاً المسيحية، والتفاؤل، والنمو، والعلم، والليبرالية ـ بشكل ثابت بتغلغلات في المجتمعات غير الغربية منذ العام 1950 أكبر مما فعلت في السابق في القرن التاسع عشر، وفي آخر 60 عاماً، كان الغرب في تقديم خير أفكاره في الأماكن التي تجنب فيها استعمال القوة (أوروبة الشرقية ، وروسيا، ومعظم أمريكا الجنوبية، وإفريقية الجنوبية، وأجزاء من آسيا) أنجح منه في الأماكن التي استخدم فيها اليد الثقيلة (كوريا، وفيتنام، والشرق الأوسط). والقوة ليس لها تكلفة ضخمة في الأنفس والمعاناة فقط، إنها أيضاً لا تعمل جيداً في الوصول إلى أغراضها، فالدماء والصواريخ لا تكسب القلوب والعقول، إن للقوة تكاليف أعلى ومنافع أقل من الجاذبية، ويبدو أن هذا الدرس لم يجر تعلمه تعلماً كاملاً من الجميع حتى من الغرب، ولكن مع اكتساح تاريخي طويل طولاً كافياً، فهو درس واضح، ولا يمكن النزاع فيه.

لقد كانت الشيوعية، على الأقل في أشكالها المدفوعة من الدولة والمتطورة تطوراً كاملاً والمنتسبة إلى هذه الأشكال، واحداً من الشرور الكبيرة من شرور القرن العشرين، وفي الحقيقة من شرور كل الزمان، وكان ستالين وماو في جرائمهما أكثر قتلاً من هتلر، فهل الأسلحة النووية هي التي أنهت الشيوعية؟ هل أنهتها حروب النجوم؟ هل أنهتها قوة السلاح؟ بالتأكيد، من دون القوة المعادلة لحلف الأطلسي (الناتو) كان ستالين وماو سيستعبدان المزيد من الأراضي والشعوب، ولكننا إذا سألنا ما الذي كان أكثر أهمية في إنهاء الشيوعية، القوة الصلبة أم القوة الناعمة؟ والقوة أم الجاذبية؟ فإن الجواب واضح، وأمعن النظر فيما كان سيحدث في الإمبراطورية السوفيتية بين العام 1980 والعام 1991 لو أن حكامها، وعلى وجه الخصوص ميخائيل غورباتشوف، لم يتم إغراؤهم بالقيم الغربية، فقد كانوا سيقمعون الثورات في أوروبة الشرقية بالوحشية الستالينية، لقد كانوا يملكون القوات العسكرية، ولكنهم لم يملكوا الإرادة. لقد فكك الاتحاد السوفيتي نفسه؛ لأنه توقف عن الإيمان بقيمه الخاصة المناوئة للقيم الغربية، وبعد ذلك في الحال، وببراعة أكبر، وإن كان باكتمال أقل، تحركت الإمبراطورية الصينية في اتجاه مشابه.

التسلسل واضح، فإنما تكتسب الأفكار أرضية حين تكون جديدة، ويكون الإيمان بها حماسياً، ويتوصل المزيد من الناس إلى الإيمان بها إيماناً شديداً، فقوة الأفكار تغير العالم، وبعدئذ تفقد الأفكار قوتها على التفعيل ومنح الطاقة، وتصير الأفكار ناضجة، وغير مثيرة،

وتقليدية، ورسمية، وموضوعاً للتعبير اللفظي غير المخلص، ويكثر التشكك والمصلحة الذاتية، وتصير الأفكار الجديدة أكثر إثارة للاهتمام وأشد جاذبية، وتبدأ الدائرة تدور ثانية، وفي معركة الأفكار، عليك أن تؤمن قبل أن تستطيع الإقناع، عليك أن تكون جذاباً قبل أن تستطيع أن تجذب، وتستطيع أن تمتلك أروع قصة في العالم، ولكنك إن لم تؤمن بها، فلن يؤمن بها أحد آخر كذلك، أين هم المؤمنون الحقيقيون اليوم؟

إذا كان الغرب يؤمن بقيمه، ويريد أن ينشر تأثيرها ـ لأن الغرب سيكون أكثر أمناً، ولأن العالم سيكون أسعد حالاً في الوقت نفسه نتيجة لذلك ـ فعليه، حيثما يستطيع على نحو ممكن وخلاق، أن يستخدم القوة الناعمة، لا القوة الصلبة، الجزرة لا العصا، القدوة لا التوجيه، الشد لا الدفع، ويجب عليه أن يتمسك بقيمه لا أن يخرقها، فإن الهيمنة العسكرية الأمريكية المائلة بلا توازن ميلاً ضخماً هي تهديد مزعج، لا لأعدائها فقط، ولكن لها نفسها أيضاً.

إن عملية الجذب لن تنتج نتائج سريعة، ومن الصعب رؤية أماكن معينة «لنفترض الصين أو العالم الإسلامي» تبنى الديمقراطية الليبرالية والفردية، ومع أنظمة الحكم القمعية نفسها، فإن أفضل سياسة للغرب هي بالتأكيد أن يترك جاذبية الغرب تؤثر على شعوب تلك الأنظمة، والاتصال السلمي مع الغربيين المحتشمين قد يعمل ببطء على تآكل الانحياز المعادي للغرب وهكذا، وفي نهاية المطاف، قد

يعمل على تآكل الطبيعة المعادية للغرب لأنظمة الحكم تلك، فإذا بقيت الأنظمة معادية عداء حازماً للغرب، فسيكون السبب في النهاية هو أن القيم الغربية لا تثبت أنها جذابة جاذبية كافية لغير الغربيين، وسيكون ذلك مخيباً للأمل. ولكن، وشريطة ألا تؤوي أنظمة الحكم هذه إرهابيين، أو تغزو الأراضي الغربية، فإن الغرب يستطيع أن يعيش مع مثل هذه النتيجة، ويجب عليه أن يفعل ذلك برضا، وطيبة نفس.

خاتمة

لن يكون العالم بوتقة انصهار، ولا سيتبنى القيم الغربية تبنياً طبعياً، ومحاولة فرض هذه النتيجة بالقوة، أو تقديمها عن طريق القسر بشكل جوهري، هو عمل غير ليبرالي، وغير عملي، وغير مجد، وبالتأكيد، تستطيع أمريكا أن تفرض إمبراطوريتها بلا رحمة على الكثير من العالم، ومن الممكن على كل العالم، ولكن الحرية والأجزاء الجذابة من الحضارة الغربية سوف تفشل بالاستمرار وتنسحب، والنتيجة نفسها سوف تتبع أي محاولة جادة من الغرب للتراجع إلى معسكره.

إن البديل الوحيد العملي المعقول بالنسبة إلى الغرب هو أن يحترم الاختلافات الثقافية، وأن يمارس الصبر وطول الأناة، وأن يؤمن بأفضل أفكاره، وأن ينشر نفوذه بالقدوة، وأن يترك الأفكار، ونتائجها تتكلم عن نفسها، وأن ينزع سلاح الأعداء بالتدريج ويجتذب الأنصار المشايعين.

ومن المؤكد، أن أمريكا، وأوروبة وحلفاء الغرب يجب أن يردوا على أي اعتداء على تربتهم بقوة فورية، فعالة ومتناسبة، فما من حضارة

قوية، وواثقة بنفسها يمكن أن يُتوقع منها أن تفعل أي شيء آخر، ولكن سلام الغرب والعالم، وأمنهما، وسعادتهما سوف تعتمد في نهاية المطاف على تقليد أمريكا من خلال معظم تاريخها، وأوروبة منذ العام 1945، وهو تجنب الاستبداد والعدوان، ورفض ترقية المصالح الاقتصادية، أو السياسية بغزو الأراضي الأجنبية واحتلالها، ومد يد الصداقة والتعاون أولاً لجيران المرء، ثم بعدئذ إلى جميع الذين جاؤوا في السلم.

إنها غاية صعبة المنال، وهناك دائماً ذرائع وأسباب للارتداد إلى العدوان، وهو تاريخياً الفطرة الطبعية، أو الخيار التلقائي، لأي دولة أو حضارة قوية، ولقد ضرَّج الغرب غالباً نفسه وأعداءه بالدماء، فهل تطورت الحضارة الغربية إلى النقطة التي يمكن فيها كسر دائرة الكراهية المتبادلة؟ وهل يؤمن الغربيون بالحرية والرحمة؟ وهل ستكون السياسة الخارجية الغربية مستندة إلى إستراتيجية الاجتذاب؟ وهل ستتوحد أمريكا وأوروبة؛ كي يعرضا تراثهما، ليحققا إمكانية حضارتهما المشتركة؟

أو هل سيختطف الغرب الهزيمة من فكي النصر؟ في الفصل الأخير، نقوِّم الاحتمالات.

الفصل التاسع

هل الانتحار محتوم؟

آن الأوان كي نجمع خيوط مناقشتنا معاً، وننظر إن كان هناك أي طريق لمصالحة أفضل ما في الحضارة الغربية مع الاتجاهات التي فرضتها على نفسها بنفسها، وهي تمزقها إلى أجزاء، ويمكننا أن نلخص أطروحتنا لتتركز في ثلاث نقاط يسيرة.

الأولى: هي أن الحضارة الغربية حققت، في القرنين الأخيرين، وفي أفضل تجلياتها، شيئاً ما لم يسبق لأي حضارة أخرى أن نجحت في تحقيقه، فلقد حققت مجتمعاً وثقافة غنيين غنى هائلاً، لا غنى في مستويات المعيشة فقط، التي يستطيع فيها كل جيل أن يتوقع أن يتجاوز المستوى الذي وصله آباؤه، ولكنه غنى في شيء ما أثمن بشكل غير محدد، إنه غنى في الحرية.

الحرية، وهي مغفلة في الغالب إلى حد ما، مشتقة اشتقاقاً مادياً ـ فهي حرية من الحيوانات البرية، وهي تبحث عن وجبتها الآتية، وحرية من الجوع، وحرية من الريح، ومن المطر، ومن الحر، ومن البرد، وهي حرية من الجهل، والمرض، وحرية من العمل الذي يكسر الظهر، وحرية من الفقر من كل الأنواع.

والحرية أيضاً حرية من الاضطهاد من الرفاق البشر، حرية من الرق، وحرية من أعمال السخرة القسرية، وحرية من الخدمة

العسكرية غير الطوعية، وحرية من اللصوص، ومن العنف، وحرية من الآباء، ومن الرؤساء، ومن الإكراه الحكومي، ومن التمييز على أساس الجنس، أو العرق، أو القومية، أو الخلفية، أو التفضيل الجنسي، وحرية من أي شيء ينكر الكرامة الإنسانية، والحقوق في معاملة منصفة ومتساوية.

وأخيراً، فالحرية إيجابية، فهي حرية في إبداع المرء لحياته الحاضرة، وحرية في التعلم عن العالم، وأن تسهم في التعليم الجديد، والحرية في الاقتراع لتساعد في تقرير من الذي سيحكم، وحرية اختيار المرء لعمله الخاص، ولأصدقائه، ولدينه، وترتيبات حياته، وحرية جعل المرء الحياة أفضل لنفسه ولدائرته.

وبهذه المعايير تكون الحضارة الغربية بعيدة عن أن تكون كاملة، ولكنها أفضل بكثير جداً من أي حضارة أخرى، ماضية أو حاضرة، من حيث إنها تستحق الاحتفاء بها والحفاظ عليها، وعلى الرغم من كل التهديدات للمثل العليا للحضارة الغربية، فإنها اليوم أقرب إلى تلك المثل العليا منها في العام 1900، أو العام 1950.

ونقطتنا الثانية: هي أن الحضارة الغربية نتجت عن عملية طويلة وبطيئة، مستندة في نهاية المطاف إلى معتقدات متميزة عن العالم، وعن طبيعة البشر، ومستندة إلى أعمال تعمل وفق تلك المعتقدات، وهذا يصدق على أي حضارة، ولكنه صادق على نحو خاص على الغرب، وذلك لأن الغرب وضع توكيداً أكبر مما وضعته أي حضارة

أخرى على دور الرجال والنساء العاديين، وعلى عملهم التلقائي لتحسين المجتمع.

المؤسسات مهمة، طبعاً، في إدارة المجتمع، ولكن المؤسسات أقل أساسيَّة من المعتقدات، على الأقل في الغرب، وذلك لأن المعتقدات هي التي تقرر المؤسسات وتغيرها، والمؤسسات، بمعنى من المعاني، معتقدات مجمدة، وفي الغرب كان يجري تذويب التجميد عن المؤسسات في الغالب، ويعاد التجميد لها بحسب المعتقدات الجديدة، وعلى سبيل المثال، أدت المعتقدات الجديدة إلى الإصلاح البروتستانتي، وإلى كنائس جديدة، فالمعتقدات، في الغرب، هي دائماً أكثر أهمية من المؤسسات؛ لأن الغربيين يعتقدون أنهم يملكون الحق والمسؤولية لتغيير المؤسسات إن لم تبق متناسبة مع معتقداتهم، والمعتقدات تقود إلى الأفعال، وفي النهاية تصير الأفعال طبيعة ثانية، وقد لا تبقى المعتقدات الموجودة خلف الأفعال متميزة واضحة، ولا موضع تقدير كذلك، وفي هذه المرحلة، حين يكون المعتقد لا شعورياً تقريباً أو لا شعورياً بشكل كامل، فإنه يكون في أشد حالاته وأقواها.

والمثال الجيد هو «الأخلاق البروتستانتية» التي قادت الناس العاديين إلى رؤية «دعوتهم»، وعملهم، بوصفها أهم شيء في حياتهم، وبوصفها شكلاً من أشكال التعبير عن الذات، وهذه الرؤية الجادة لمسؤولية الفرد نشأت من العقائد الكالفينية واللوثرية، ولكنها صارت في غضون قرن أو قرنين بشكل جوهري تلقائية، ومنفصلة عن الدين.

وفي تحديدنا لما هو مختلف بخصوص الغرب، قمنا، بالتنقيب عن المعتقدات التي قررت، وتقرر، الأعمال الخاصة المميزة للغربيين، وقد وجدنا ستة معتقدات مهيمنة، وأنماط عمل هي التي قررت الشخصية الغربية، وهي المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية، و«عوامل النجاح» الستة هي الآن مطبوخة في طرق تفكير وتصرف خاصة ونمطية (روتينية) لا تحتاج بالضرورة إلى إعادة التوكيد، أو إلى وعي العقائد الأصلية التي تكمن خلف كل معتقد، وعلى سبيل المثال، يؤمن الغربيون بمبدأ «شخص واحد، صوت واحد»، وسيكونون منزعجين لو أخذ منهم الصوت، ولكنهم لا يحتاجون إلى أن يعرفوا أن فكرة الديمقراطية كانت قد أعطيت شكلاً مميزاً بفكرة القرن السابع عشر عن العقد الاجتماعي، ومثال آخر: يؤمن الغربيون عموماً بأفكار المسؤولية الشخصية، وبتحسين الذات وبالرحمة لمن هم أقل يسراً من حالهم، ولا يحتاجون إلى أن يكونوا مسيحيين ليشاركوا بهذه القيم، على الرغم من أن الأفكار كانت قد اشتقت من المسيحية البدائية.

المعتقدات وأنماط العمل التي تقرر طبيعة المجتمع تنشأ ببطء فقط، ومن خلال الخبرة المشتركة، وقد برزت فِكَرنا الست في تعاون وثيق إحداها مع الأخرى، طوال مدة طويلة جداً من الزمن، وتمعَّن، على سبيل المثال، في العلاقة بين النمو، والليبرالية، والفردية، فمجتمع السوق الحر الغربي، والمجتمع الفردي والديمقراطي استغرق مئات من السنين؛ ليصعد إلى السطح، ولينتصر، فلقد جاء ببطء، ومن الأدنى

بشكل رئيس، من الأعمال التلقائية للتجار الأوروبيين، وللحرفيين، وللعمال المهرة الذين شكلوا أولاً ثروة جديدة، ثم كانوا بعدئذ قادرين على أن يساوموا من أجل الحصول على حريتهم، ولقد احتاج إلى البناء التدريجي لعادات التعاون بين أولئك الموجودين في السلطة، وأولئك الناشئين في المجتمع، وقد كان لدى كل جانب شيء ما يقدمه إلى الجانب الآخر، وقد احتاج إلى الثقة واحترام الذات من أعداد كبيرة من الأفراد، وكل جانب يستفيد من الموارد الداخلية، ومفاهيم الكرامة الإنسانية، والمساواة، والمسؤولية عن العمل، وقد سبق التقدمُ الاقتصادي التقدمَ السياسي، واحتاج التقدم الاقتصادي إلى المبادرة الفردية الإنسانية، التي احتاجت بدورها إلى إيمان واسع الانتشار بقيمة الأفراد وقوتهم، وبقدرتهم على تحسين حياتهم، وحياة الجماعة التي خدموها.

ونقطتنا الثالثة والأخيرة: هي أننا نعيش في تلك المرحلة الغادرة، الساحرة التي تكون فيها المعتقدات، والأعمال الساندة للحضارة واقعة تحت الهجوم، وهي بهذا ربما تعطي إشارة إلى تحرك من حضارة إلى أخرى، وحين تختفي الحضارات، فإنها إما أن تتطور إلى حضارة أخرى، وإما أن تنهار تحت وطأة صعوبة ملاءمة طرق قديمة للتعامل بنجاح مع الظروف الجديدة، وهي عادة مناخات جديدة، أو أعداء أقوى، ولقد رأينا كل معتقدات الغرب الأساسية الستة تقع تحت هجوم شرير مستمر في القرن الأخير، من داخل الغرب نفسه، وإلى أي مدى

قد تم نقض الأفكار بالتفكير الجديد، أو بالخبرة الجديدة؟ وهل المعتقدات الجديدة، والأفعال الجديدة ضرورية لإدامة نجاح الغرب؟ دعونا نلخص تحليلنا لكل واحد من الصفات المميزة الست الأساسية.

المسيحية

من السهل أن تصير معجباً بالمناظرات الحيوية، والخطيرة غالباً، والتي تجري داخل الكنائس، بين الأديان المختلفة، وبين المؤمنين، وغير المؤمنين، ومع ذلك تفشل في ملاحظة حقيقة واحدة بسيطة، وهي أن المناقشات لم تغير قيم المجتمع، أو أنماط العمل فيه، فالتراث المسيحي، وهو المسؤولية الفردية، والتنمية، وتحسين الذات المرتكز على الحب، وعلى الالتزام بالمساواة وبالرحمة، فجَّر منذ وقت طويل ضفاف الدين المنظم، وسيكون مسيحياً شجاعاً، أو ملحداً شجاعاً مَن يؤكد أنه كان هناك الكثير من الاختلاف بخصوص المسؤولية الفردية، والحب، والرحمة بين المسيحي الغربي النموذجي، وبين غير المؤمن.

إن الصعود المتواصل لحركة مساعدة الذات، وتحسين الذات في القرنين الماضيين هو شهادة على أن روح المسيحية قد صارت منتشرة انتشاراً واسعاً، ومشرَبة إشراباً عميقاً في داخل المجتمع الغربي، ولقد جعلت الأفكار المسيحية من الممكن للمجتمع أن يتقدم من خلال مبادرة الناس العاديين، وجعلت المسيحية كذلك من الممكن أن يتم تصور حضارة مشتركة، وموحدة تنتقل إلى ما بعد سلسلة من القبائل الفردية

والأمم الفردية، مستندة إلى مبادئ من الإنصاف والمساواة، وهذا الاختراق التصوري هو الأساس للمجتمع الحديث، والمعقد، والذي يكون فيه النزاع مروّضاً ومنزوع السلاح وأن يكون هناك تعاون تلقائي وإرادي بين مئات الملايين من الأفراد، وما من حضارة غير غربية سبق لها أن استمتعت بهذا الخليط من الفاعلية، المستندة إلى المسؤولية والمبادرة الفرديتين، مع وجود انسجام اجتماعي غير قسري، إلا من خلال تأثير الغرب نفسه.

ولذلك، فنحن نعطي ضوءاً أخضر للحضارة الغربية المعاصرة في قضية المسيحية.

التفاؤل

إن كسوف التفاؤل هو تحذير للحضارة الغربية، وإن الحضارات الواثقة والمتطلعة إلى الأمام هي التي تسير قُدماً، ومن المؤكد، أن التفاؤل والتشاؤم طِرازان من الأزياء، وهما يأتيان ويذهبان، وهناك دائماً أسباب وجيهة ليكون الناس متفائلين، وأسباب مرغِمة على أن يكونوا متشائمين، ومع ذلك، فالتفاؤل مكمل للنجاح الغربي، فإذا لم يَعُد التفاؤل، إلى الأوروبيين، وإلى الأمريكيين كذلك، فإن النجاح المستمر للغرب سوف يكون مائلاً على أحد الجانبين في أفضل الأحوال، وعلى أساس أن التفاؤل فضيلة، فإننا نمنحه، بألفاظ أنوار المرور، ضوءاً أصفر لامعاً، ولكن هذا قد يكون متفائلاً جداً.

العلم

نشأ العلم الغربي من القناعة بأن الكون كان عقلانياً، وخلَقه إلهٌ أهلٌ للتوكل عليه وقدير موجود، ولقد كان من الممكن اكتشاف أسرار الكون؛ لأنها كانت قابلة للتنبؤ بها وكانت منسجمة خالية من التناقض داخلياً، وامتلك العلم سلطة أخلاقية، لا لأنه حسَّن حياة الإنسانية وحسب، بل لأنه تتبع أيضاً عظمة الله.

ومع ذلك، فقد بدا العلم، في القرن الماضي، وكأنه يكشف عن كون غير قابل للتنبؤ به، وهو كون غريب، كون أعمى أخلاقياً، ومن دون وجود أي غاية له، أو أسباب معقولة يمكن رؤيتها فيه، ولم تكن مصادفة أن الغرب رأى نشوء المعتقدات غير العقلانية، والخرافية في الوقت نفسه الذي فقدَ فيه العلم ثقته بأن الطبيعة حكيمة معقولة، وفقدَ العِلمُ الغربي، لا من خلال أي غلط بدر منه هو، بل ببساطة من خلال عملية الاكتشاف، فقدَ السلطة الأخلاقية التي تمتع بها العلماء السابقون الذين كانوا أقل معرفة، وفقدَ الثقة بأن عملهم كان قد كشف عن كون منسجم انسجاماً جميلاً ذا معنى، وعلى نحو محزن أيضاً، فإن إزالة المنطق الداخلي المثالي للعلم حدث في الوقت نفسه، مع ظهور وعي جديد تماماً، وهو أن العلم قد لا يكون دائماً صديق الإنسانية، فالأسلحة النووية، والكيماوية، والحيوية ـ وهي أسلحة من المستحيل أن تخطر للعقل من دون الرؤية العلمية الجديدة للعالم ـ قد تتسبب في الانتحار الجماعي للعالم، وهذه أسلحة ليس من المستطاع أن «لا تخترع»، وما من أحد يعرف كيف يسيطر عليها، وإن جعل

المجـتـمع لا مـركـزياً، والوصـول إلى المعـرفـة، كـان هو أعـمق اتجـاهات القرن العشرين وأدوَمها.

إن إخفاق سلطة العلم هـو حسبمـا نعتقـد، ضوء أصـفر آخـر، ولماذا ليس أحمـر؟ حسناً، إن العلم الغـربي، وعلى الرغم من أنه غيـر محبوب شعبياً في الغـالب، فإنه لم يكن من قـبل أبداً أكثر حيوية، وأكثـر فائدة، أو أفضل انسجـاماً مع مجتمع الأعـمال، وأفضل تمويلاً (على الأقل في أمـريكا)، أو أقـرب إلى فهم طبـيـعـة كوننا، والعلماء واثقـون بأنفـسـهم، والتجـديد المفتوح ينتصـر. وما يفكر فيـه المواطنون العاديون حـول العلم مـهم، ومع ذلك فـإن إمكانيـة قيـام غـربٍ معـادٍ للعلم، أو غـربٍ بعـد العلم هي أمر بعيد.

النمو

النمـو الاقـتـصـادي آمنٌ، آمـنٌ بشكل كـامـل جـداً، والتـقـدم القـاسـي الذي لا يعرف الرحمة في الصناعة المستندة إلى الآلة قد أخل إخلالاً عميقـاً باسـتقرار التوازن البيئي للأرض، وقـد يجـادل المتفـائلون، ضـد ذلك، بأن الغـرب يقـوم بتـوليـد مـصـدر أخضـر جـديد لنمـو «بلا وزن»، وذلك باستخدام مصادر متناهية أقل، تحل محل المصدر غير المتناهي للخيـال الإنسـاني، ولكن تحويل ـ الاقـتصـاد المشخـصن ـ تحـويلاً كـاملاً إلى بلدان غـيـر غـربيـة سـوف يسـتـغـرق عـقـوداً عـديدة، ولا يمـكن عـمل ذلك مـطلقـاً، إلا في حـالـة غـيـر مـحـتـملة فـقـط، وهـي أن تصل تـلك البلدان إلى احتضان الأنماط الغربية للفكر، والعمل.

وفي الوقت نفسه، فإن البلدان غير الغربية تلحق الآن بمستويات الغرب القديمة من الإنتاج الصناعي والاستهلاك، فإذا وصلت البلدان النامية في نهاية المطاف إلى المستويات الحالية من استهلاك الدول المتقدمة، فإن الآثار السلبية على كوكب الأرض، كما رأينا، سوف تزيد 12 ضعفاً، ولو استطعنا نوعاً ما أن نتجنب انهيار الكوكب الأرضي، فإن أراضينا لن تبقى بعد ذلك خضراء، وبهيجة.

وإذا كانت ستقع نهاية كارثية للحضارة الغربية ـ بدلاً من أن تتطور تلك الحضارة إلى حضارة جديدة مختلفة ـ فإن الانتحار البيئي هو إلى درجة كبيرة أكثر الأسباب ترجيحاً، وضوء أصفر آخر ـ يلمع لمعاناً قوياً.

الفردية

صارت الفردية جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الغربية، وفوق كل شيء في نصف القرن الماضي، إلى درجة صار معها موت الفردية أمراً غير ممكن إلى درجة عالية، فالحضارة الغربية، لا غيرها، قد طورت الاقتصاد المشخصن، والمجتمع المشخصن، الذي يقف فيه الأفراد كيانات منفردة، أو مستقلة استقلالاً ذاتياً، وهي صانعة ذاتها، أو مدمرة ذاتها، وحرة من السلطة، وغير معزولة بوقاية ضد الفشل الشخصي، وبالنسبة إلى الغربيين، جلب انتصار الفردية معه منافع ضخمة، في حث الإبداع، وتوسيع كل بُعّد من أبعاد الفرصة والحرية، وفي خلق نوع جديد تقريباً من الإنسانية، الإنسان المستقل استقلالاً ذاتياً.

وعملت الفردية أيضاً على تآكل الجماعة، وزادت ارتفاع القلق الشخصي زيادة عالية.

والفردية الغربية يكرهها أعداء الغرب، وهي تسبب الكثير من القلق المشوب بالخوف داخل الغرب، وخصوصاً في أوساط المثقفين، ومع ذلك، فنحن نحاجج، في أن البروز الحديث للفردية «الريغانية» و«الثاتشرية» قد ضلَّلتنا جميعاً، وإن سلالة الفردية المحبة لذاتها، والمنكرة للمجتمع هي سلالة ليست جوهرية داخلية للفردية، ولا هي كذلك موضوعاً مناسباً لها، والفردية الأنانية هي رِدَّة جاءت في أواخر القرن العشرين، وهي تقريباً مثل الجمع بين النقيضين المختلفين، ولقد نشأت الفردية؛ لأن الله طلب من الفرد، الذي صار آمناً من قبل ضمن الجماعة، أن يقف أمام الله، ويشرح أعماله، ويعللها ذكراً كان أو أنثى، وإن الفردية قد تقدمت دائماً تابعة للقيم المسيحية والليبرالية، لقد كانت قوة محرِّرة، ومسؤولة، وديمقراطية، والتعبير الرئيس للفردية الغربية، من القرن السادس عشر، وحتى الخمسينيات من 1950 على الأقل، كان هو ما يسمى الأخلاق البروتستانتية. والشيء الرئيس بخصوص الأخلاق البروتستانتية كان نكران الذات، بل ليس العمل الشاق، ولكنه بالأحرى الإيمان بأن الفرد يجب عليه أن ينجز احترام الذات، والنجاح الدنيوي من خلال عمل إسهام كبير في النشاط الاقتصادي، ولذلك كان تعريف الفردية، والنجاح، تعريفاً اجتماعياً إلى درجة عالية، في كل الأحوال، حتى حين أخذ شكل جمع أكثر ما يمكن من المال، وعملياً، تقدم كل من الأفراد والمجتمعات الغربية على طول

طريق فردية أكبر، في نفس الوقت الذي اكتسبوا فيه حرية أكبر، وأدوا مسؤوليات أكبر لزملائهم المواطنين.

الفردية الآن، وكانت دائماً، كثيرة المطالب أخلاقياً، وإنها كذلك ميالة إلى العيش في جماعة إلى درجة عالية، فأعظم الفرديين، من يسوع المسيح إلى جان دارك إلى فناني اليوم ومديري الأعمال، كانوا متواصلين أقوياء، وكانوا بناة المجتمع، والفردية ترخي الروابط الاجتماعية الآلية، هذا صحيح، ولكنها تسمح ـ بل تتطلب ـ روابط جديدة يجب أن يختار الفرد بنفسه أن ينشئها، مثلما تحل العلاقة التبادلية محل السلطة.

ولذلك، فنحن نستنتج أن المشكلة بالنسبة إلى الحضارة الغربية ليست هي الفردية، بل هي إخفاقنا الجزئي في احتضانها احتضاناً صحيحاً، وناضجاً، واجتماعياً، وغيْرِيّاً، وعلى الرغم من ذلك، فليس هناك ضوء أخضر هنا، فأعداء الفردية، والمشكلات الحقيقة «وهي نفسية أكثر منها اقتصادية كذلك» التي تخلقها الفردية لأقل أعضاء المجتمع نجاحاً، تملي ضوءاً أصفر لامعاً آخر.

الليبرالية

تركنا الليبرالية إلى الآخر؛ لأننا هنا نكتشف أعظم التعرض لخطر الإصابة بالأذى، ولقد لاحظنا خمس نقاط انتكاس إلى الاتجاه المعاكس بالنسبة إلى الليبرالية الغربية أوقعتها هي بنفسها: مكافحة الإرهاب التي أسيء توجيهها، إعادة انبعاث ما يدعى الاستعمار

الإمبراطوري «الليبرالي»، وتشظي السياسة الديمقراطية وتخفيض قيمتها، والخواء الأخلاقي لليبرالية الحديثة، والنسبية الليبرالية المفرطة، التي تقول: إنه لا يوجد أي شيء خاص بشأن المجتمع الليبرالي الغربي في نهاية المطاف، وهي تحتضن عقلية «الضحية».

وأشد ما ينذر بالخطر هو الطبيعة البنيوية لانعكاسات الليبرالية، فصحة الليبرالية متأثرة تأثراً عميقاً باللامركزية، وكذلك بالتشظي، والترذيذ اللذان يكتسحان الغرب، فحين تنضج المجتمعات الغربية، وتنمو لتصير أكثر تعقيداً، وأكثر ازدهاراً، وحين تصير الاقتصادات أكثر شخصنة، فإن السلطة واتخاذ القرارات في المجتمع تصير أكثر، فأكثر انتقالاً وتحولاً، وتصل في النهاية إلى أنشط الأفراد وأكثرهم إبداعاً داخل المجتمع، وهؤلاء الأفراد، ولأول مرة في التاريخ، لا يشكلون طبقة، أو نخبة، أو نظاماً اجتماعياً «مستقراً»، وليس لديهم عائلة مشتركة، أو روابط اجتماعية، ولا إيديولوجية مشتركة، ولا ولاء مشترك، وخلافاً لكل أسلافهم، فهم لا يحتاجون إلى هذه الصفات ليكونوا ناجحين، وهكذا، وعلى وجه العموم، فهم لا يملكون القيم وشبكات العمل التي كان من عادتها أن تساند المجتمع الليبرالي وتديمه.

هذا التضييق للآفاق (دعنا نسمه «الترذيذ») يجلب معه منافع - فهو يستطيع توسيع الحرية توسيعاً عظيماً - ومع ذلك، فقد يكون هو القوة التي تدمر الحضارة الغربية في نهاية المطاف، والمفارقة التي تبعث على السخرية هي أن الترذيذ لا يمكن عكسه إلا بعمل من

الإرادة السياسية، ويكون على الأرجح بالعودة إلى الحكم الفردي المستبد، ولذلك فإن من المغري أن نصل إلى الاستنتاج المظلم، وهو أن الحضارة الغربية إذا لم تُنتقض وتخرب بالترذيذ واللامركزية، فإنها سوف تُنتقض وتخرب على الأرجح بإعادة المركزية.

هل تستحق أزمة الليبرالية ضوءاً أحمر، أو أصفر؟ نحن نقول: إنها أكبر قضية تواجه الغرب، لسببين اثنين متناقضين تقريباً، فالليبرالية متجذرة تجذراً عميقاً في الغرب، وهي غير قابلة للتوقيف تقريباً، ومع ذلك فهي تستفز رد فعل شرير من القوى غير الليبرالية في خارج المجتمع الغربي وفي داخله، والفردية لا تقسم الغرب فعلاً، وذلك لأن الغربيين أنفسهم الذين يزعمون أنهم مناوئون للفردية هم، بأي معيار حضارة أخرى، فرديون متحمسون، ولكن أقلية كبيرة من الغربيين، تكره الليبرالية، وخصوصاً في أمريكا، وفي صفوف الأصوليين المسيحيين.

وفي الوقت نفسه، فإن الإرهابيين المعادين للغرب ـ الذين يكرهون الليبرالية طبعاً، إلى جانب الفردية ـ يحرزون حتى الآن نجاحاً غير عادي، وغير مستحق في صبهم الوقود على نيران الاستعمار الإمبراطوري الغربي الجديد، وهو حتى الآن قوة أخرى معادية لليبرالية، ومثلما هو الحال مع الشيوعية والفاشية، فالعدوان التوأم من الإسلامية المتطرفة والمحافظة المفرطة في أمريكا وأوروبة يجدان أرضية مشتركة في نبذ الليبرالية كالنفاية.

وعلى قمة كل هذا، تقترب نوعية الليبرالية الغربية، وعمقها من أخفض حال لهما في كل الأوقات، بل إن ما هو أكثر خطراً من العاطفة المعادية لليبرالية في الغرب هو الارتياب واللامبالاة اللتان تظهرهما قطاعات واسعة من السكان الغربيين الذين اعتادوا أن يكونوا، من الناحية السكانية، أو فيما يتصل بأسلوب الحياة والمواقف، أعظم مساندي الليبرالية، وهم المتقدمون من المثقفين، ودعاة حرية الإرادة والفكر والكلام، وأعضاء الاتحادات النقابية، ومَنْ جرت العادة على تسميتهم الطبقات العاملة، فهذه القطاعات المتمايزة غالباً كان من عادة كل واحدة منها أن تقدم أعداداً كبيرة من الناس الذين يملكون آراء ليبرالية قوية، وهي الآن تقدم أعداداً أقل إلى حد بعيد.

وهذا ما يلوح كأنه ضوء أحمر، ولكن هل هو كذلك حقيقة؟

* * *

وفي خلاصة أطروحتنا، نعود مرة أخرى بعد مرة إلى الغرض المشترك لأعضاء المجتمع، وهو الغرض الذي يشتق في نهاية المطاف من معتقدات يحملونها بشكل عميق، وهي في الغالب معتقدات مغمورة تماماً، وفي السنوات الأربع مئة الماضية، انهمك الغرب في تجربة كبيرة، تزيل بشكل تقدمي القيود التي كانت على الحرية وسلطة جميع أفراد المجتمع، وقد رأى المحافظون دائماً أن التجربة كانت خطرة ـ وكثيرون قالوا: إنها متهورة ـ لأنها لا تحتاج إلا إلى أقلية قليلة فقط

من المستائين لتخريب المجتمع، ومع ذلك، وبعد وضع المجرمين جانباً، فإن التجربة قد عملت، وعلى العموم، هناك قيود أقل إلى حد بعيد على الأفراد في الغرب من أي قيود كانت في أي وقت في الماضي، وفي أي مكان في العالم اليوم، ومع ذلك، فإن المجتمع الغربي يعمل عملاً جيداً على شكل مدهش، ومئات من الملايين من الأفراد يتحركون؛ ليعالجوا عملهم، وحياتهم، ويعملوا بنجاح في التعاون تعاوناً فعالاً من دون أن يدركوا مدى تعاونهم، وكم كان تعاوناً إعجازياً، وهذه التجربة الكبرى ما كان يمكن أن تكون قد عملت من دون النفوذ القوي لفِكَر الغرب الست الأساسية.

والآن، ماذا يحدث، حين تُضعِفُ الاتجاهات الموجودة في المجتمع ـ مثل الترذيذ، ومثل التحدي البيئي، ومثل وجود أسلحة مرعبة يمكن أن يصل إليها المتعصبون، ومثل القوة العسكرية اللاتماثلية الضخمة للولايات المتحدة اليوم - الفِكَر الساندة للتعاون اللاشعوري، إما بسبب أن الفِكَر لا تملك أي جواب للمشكلات الجديدة، أو لأن الناس العاديين لا يدركون أن أفضل أمل لهم لحفظ حضارتهم الرائعة هو استخدام الفِكَر التي كانت ناجحة جداً حتى تاريخه ومواءمة هذه الفِكَر؟ إن المشكلات التي تفرض نفسَها بنفسها تذهب من دون حل، وإلا فإن المحاولات التي تبذل لحل المشكلات تغير طبيعة الحضارة.

مداخل إلى حضارة غربية جديدة

كانت هناك محاولتان جادتان في القرن العشرين، وكلتاهما نشأت في داخل الغرب، لتخريب فِكَر الغرب السابقة الرابحة، وإدخال «حضارة» جديدة «وهما الشيوعية والنازية، وكلا النظامين الجديدين سحق جوهر المسيحية، والليبرالية، والفردية، في الوقت الذي تبنيا فيه نسخاً زائفة من التفاؤل، والعلم، والنمو، وإنه لتأمل مثير للاهتمام أن نتأمل فيما إذا كانت الحضارة النازية، أو الحضارة السوفيتية، ستستطيع في أي وقت أن تكون قد حكمت العالم ودامت، وهي التي استندت إلى إنكارات الكرامة الإنسانية، والرحمة، والإبداع، والعلم التجريبي الحقيقي، وربما كانوا سيستطيعون، لو أنهم كانوا قد تخلصوا أولاً من التنافس من الحضارة الغربية» وحدث هذا في العام1941 تقريباً. ولكن النازيين والسوفيتيين شاركوا في نواحي الضعف، مثلما شاركوا في نواحي القوة لتطرفٍ اتصف إلى درجة عالية بتدمير الأفكار التقليدية والدينية، ومن السهل أن نتخيل حضارة أقل تطرفاً، وأكثر نفعية (براغماتية) كان يمكن أن تكون ناجحة إلى درجة عالية، وتحتفظ بقسم أكبر من التراث الغربي، ولكنها مع ذلك تنبذ العديد من القيم الأساسية للغرب نبذاً يصل بها إلى النقطة التي ستكون فيها ممثلة لحضارة مختلفة.

في الفصل السابق، فحصنا ثلاث إستراتيجيات غربية متنافسة معاصرة مؤثرة، وهي: ما يدعى الاستعمار الإمبراطوري الليبرالي، والعالم ـ أمريكا، والغرب القلعة، وجميعها سيناريوهات معقولة في

ظاهرها، فإذا كان ما يحدث هو أي واحدة من الإستراتيجيات الثلاث، أو أي مزيج منها، فإن الغرب سيكون قد تخلى عن حضارته المميزة، وعن رؤية الآباء المؤسسين لأمريكا، ولقد كان مخططهم هو الوصول إلى الحرية الشاملة، إذ رغبوا في أن تمتد الحرية، التي كانت بلادهم قد كافحت، وعانت من أجل الحصول عليها، حتى تصل إلى أطراف الأرض، وذلك ليكون من الممكن استبعاد الاضطهاد، والانحياز، والدكتاتوريات، والحرب، إلى أقصى حد ممكن إنسانياً، إلى الماضي الذي جلله الظلام، وقد ألهمَ حلمُهم أنشطَ المثاليين الغربيين في القرنين الماضيين، وكانوا، بالتأكيد، متفائلين، إذ تجاوزت طموحاتهم الممكن إلى ما تبين أنه مستحيل، ومع ذلك فقد حركوا العالم ـ الذي كان دائماً في أيامهم، مثلما هو في أيامنا، مكاناً مضطرباً، تحاصره مشكلات ضخمة ـ ليكون أقرب إلى نموذجهم بشكل معبِّر مهم.

المثالية تتراجع، وليس الأمر مجرد أن الليبرالية ضعيفة، ومملة إلى الدرجة التي تجعل خرقها سهلاً، بل إن الواقعيين الجدد، والمرتابين وجمعاً غفيراً من «الضحايا»، ومنخفضي الإنجازات، وغير المتعلمين عمداً منهم، هم مدمرون نشيطون أو سلبيون لا للمثل العليا الليبرالية وحسب، بل لكل المثل العليا أيضاً، مدمرون لروح المسيحية، مع فاعليتها القلقة، ومدمرون للضمير ولأوامر الرحمة، وللرؤية المتفائلة للإنسانية، وهي التي تنظر إلى إمكانية الرجال والنساء أكثر من النظر إلى عيوبهم، وإلى الثقة في قيمة المعرفة الممتدة وأهميتها الأخلاقية، وإلى إمكانية استخدام النمو الاقتصادي لاستئصال الجوع، والحط من الكرامة والعوز، ومدمرون للفردية المسؤولة.

كل هذه المعتقدات جوهرية لطبع الغرب وتقدمه، والأعمال المدفوعة من هذه المعتقدات أجزاء متكاملة لا تتجزأ عن نشوء الغرب، وهذه المثل العليا قد أثبتت عمليتها على مر القرون، فهي تعمل، وتلهم، وتقود إلى نتائج أكبر، وإلى تعاون أكبر من أي مجموعة أخرى من المعتقدات والأعمال التي سبق لها أن عملت، وكل مجتمع خرق هذه المثل العليا، أو جعلها في مقياس أصغر ونسخٍ أكثر دونية، قد أخفق في العمل، ومثله الغرب أيضاً، أو، في حالات كثيرة، فإنه يخفق في العمل مطلقاً، وهكذا فحين نفقد نحن هذه المثل العليا، لا ينبغي أن نفاجأ إذا وقعت كل أنواع العواقب غير المقصودة، وفي هذه اللحظة، نحن نحصد تراثنا الماضي، ونتعيَّش بلا مقابل على الشعور الودي، والروح الإنسانية التي زرعها أسلافنا، ونستهلكها استهلاكاً كاملاً.

هل يمكن لرؤية الغرب أن تتحقق؟

الحضارات تتحرك إلى الإمام، أو هي تتحرك إلى الخلف، إنها تحقق الأحلام، أو هي تنبذها، وفي آخر 230 سنة، وصل الغرب إلى الاقتراب اقتراباً قطعياً إلى شكل جديد على نحو كامل من الخبرة الإنسانية، خبرة موسومة بالمثل العليا العالية جداً، ومن جملتها، داخل تلك الحضارة المشتركة، القضاء على الفقر، وتخفيف المعاناة، ومد حقوق الإنسان إلى كل واحد، ونهاية التراتبية الهرمية والتوقير، والتشديد غير المسبوق على تنمية كل المواطنين، ونهاية الحرب بين الأمم الغربية، وهذه الطموحات تطورت على مدى 2500 عام، وكان

روادها قـادة بارزين، وجُـربت فـي أتون النـزاع الاجـتـمـاعي والحلول الوسط، واستقرت على مفاهيم دينيـة وسياسيـة فريدة، وعلى التفاؤل بشأن مصيـر الإنسانيـة، وصارت مفهومة قابلة للتصـور بانتصارات العلم، والتقانة، والنمو الاقتصادي التلقائـي، ووصلت، في نصف القرن الأخيـر، قريباً قـرباً رائعاً من الإنجاز التام، بل إن هذا الاقتراب هو إنجاز مذهل.

كـيف كـان ممكناً لنـا ألا نلاحظ؟ أين الكتـاب، والسـيـاسـيـون، والمذيعون، وهم يحثون على «دفعة أخيرة واحدة» لنحقق شيئاً ما نبيلاً ومرضيـاً إرضـاء هائلاً؟ لماذا نحن مشغـولون بالكوارث الممكنة، وليس بالمجـد الممكن، المجـد المعـرَّف، لا بالدم والإمـبـراطورية، بل بالكرامـة، والحرية الإنسانيتين الشاملتين؟

وأسفاه! الأخطار حقيقية، والنذير لـه ما يبـرره، والمجتمع الحـديث غير ميال إلى الحماسة البسيطة، أو إلى الطموح المشترك الجدي، فروابطنا الاجتماعية قد تراخت، وآمالنا قد صارت فردية، ومخاوفنا قد صـارت جماعيـة، وأولئك الذين يفكرون حول العالم، بوصفه كلاً واقعيون بشكل مفرط، ونحن منـوَّمون تنويماً مغناطيسياً بقوى مؤذية، ونحن قـد تخلينا تخليـاً كامـلاً، وفـقـدنا إيماننـا بفكرة أننا نستطيع أن نسيطر على تلك القوى، وأن نشكل حضـارة عظيمة من أجل منفعة كل واحد.

التشظي ينتصر، ويأخذ السلطة من السلطات العامة، ومن المؤسسات المجتمعية، ويفوضها إلى الأفراد، وهذا ما يجعل من الأصعب أن يُهيكل المجتمع من أجل الخير المشترك، ولكنه لا يجعله مستحيلاً. صحيح، إن القرارات المهمة تُتخذ بشكل متزايد على المستوى الفردي، وهكذا فإن المجتمع لا يستطيع أن يستمر بالازدهار ما لم يتصرف معظم الناس تصرفاً مسؤولاً، وإن الإشارات المنذرة واضحة في كل أنحاء الغرب، مع وجود دلائل كثيرة على التفكك الاجتماعي، والاستهلاكية القسرية، والانحطاط، والتواكل، والأنانية الشخصية الساحقة، والتراجع إلى الغسق النفسي من عوالم شخصية محضة، ومخصَّصة.

ومع ذلك، فإن من مصلحة كل فرد أن يستمر في التمتع بمجتمع يعمل من أجل كل واحد، وأن يجعل الجميعُ العطفَ والحبَ مركزيين لطموحاتهم الشخصية، والغربيون أيضاً مكيفون تكييفاً قوياً بخلفيتهم وثقافتهم، وإلى هذا اليوم، ليمزجوا الفاعلية مع الرحمة، وتحسين الذات مع الضمير والاهتمام، وهذا التراث المشترك ربما يكون أضعف نوعاً ما، مما كان عليه، ولكن صلابته قد تفاجئنا، وإلا فكيف نفسر، من غير ذلك، السلوك التعاوني المستمر لمعظم المواطنين في وقت تكون فيه الإيديولوجية السائدة هي الأنانية المرتابة، والدائبة، والمدمرة للذات؟ إن قوة الغريزة المتعاونة السائدة يمكن أن تُرى في الاستجابة التلقائية للمواطنين العاديين في لحظات الأزمة الكبيرة، مثلما كان على سبيل المثال في أعقاب الهجمات الإرهابية في نيويورك، ومدريد، ولندن.

وفي نهاية الأمر، فإن الغرب يقوم على فكرة عظيمة واحدة، ومجموعة واحدة من الأفعال، واحدة تقف خلف الفِكَر الست العظيمة للحضارة الغربية، وتوحدها، والفكرة العظيمة،وهي العنصر المشترك، هي تولي المسؤولية الفردية لتحسين المرء لذاته وللعالم، وكانت هذه هي تركة المسيحية، وهي فكرة أن الله مهتم بكل رجل وامرأة، مهتم بأفكارهم الداخلية، وبفرديتهم، وبأعمالهم، ولقد بقيت هذه الفكرة على قيد الحياة سليمة سلامة كاملة، بعد الاختفاء الجزئي للإيمان بالله، لقد تطورت الروح إلى النفس، والغربيون الذين لا يؤمنون بالله يؤمنون بأنهم يمتلكون نفساً داخلية بنفس القوة تماماً التي يؤمن بها جيرانهم المسيحيون بذلك، ولقد قادت المسؤولية الشخصية إلى التفاؤل، وإلى الفاعلية، وإلى الاتجاه المعاكس، فالمسؤولية الشخصية، والإيمان بقوة لطيفة مفردة عاقلة في الكون، قادت إلى العلم التجريبي، واستحثت المسؤولية الشخصية أيضاً طبقة من النشيطين الحضريين ـ من التجار، والعاملين على التبادل التجاري الدولي، والمستكشفين، والصناع المهرة الأحرار، والحرفيين، والفنانين، والمخترعين ـ الذين استخدموا العلم والتقانة لخلق نمو تلقائي، وقاد نمو الطبقات الدنيا الطموحة، والواثقة بنفسها، والمحسِّنة لنفسها، ببطء على مرور عدة قرون إلى فكرة أن المجتمع يجب أن يضبط الدولة، ويسيطر عليها، وقاد في نهاية المطاف إلى الديمقراطية، وإلى الالتزام القوي بالمساواة في الفرص لكل شخص، وإن فكرة المسؤولية الشخصية، وتوليها على أيدي مئات الملايين من الناس، قادت على

درجة من الفردية الخلاقة في الغرب، وهي فردية لا نظير لها في التاريخ، وفي الجغرافية المعاصرة، لا في ثراء نتائجها الفكرية والعملية، ولا في تحدي الأفكار الراسخة، والسلطة في أي مكان في العالم.

الغرب يساند المسؤولية الفردية، إنه يقف بالمسؤولية الشخصية، أو يسقط بها، فهل سيقف أم سيسقط؟

بلا ريب، فإن مئات الملايين من الغربيين، المؤمنين، وغير المؤمنين يتولون المسؤولية الشخصية عن حياتهم، ويسعون إلى تحسين حياتهم، وتحسين العالم من حولهم، والأغلبية الكبيرة من هؤلاء الغربيين النمطيين يفعلون ذلك بهدوء، ومن دون بروز، ومن دون تفكير عموماً فيما يقومون به، وهم مدبرو البيوت ومدبراتها، والعمال، والمتطوعون، والأفراد الذين يختارون بقراراتهم كيف يعيشون حياتهم، ويتحملون المسؤولية الكاملة عن أعمالهم، ويقرون بنقاط ضعفهم، وبإخفاقاتهم، ولكنهم يسعون إلى أن يُحِبّوا، وإلى أن يكونوا محبوبين، ويعملون بأقصى إمكاناتهم الشخصية.

ولكن هناك كذلك، مئات الملايين من الغربيين الآخرين من المؤمنين، ومن غير المؤمنين، الذين يجدون العالم الحديث شديد التشويش، شديد الغموض، وشديد التهديد، وببساطة يجدون العالم صعباً جداً، فهؤلاء هم الناس الذين يكونون، إما ضحايا أو أتباعاً مطيعين، أو كلا الأمرين، الناس الذين يرون أنفسهم فاشلين، وهم الذين يفتقرون إلى تقدير الذات، والذين قد يكونون مدمنين على الكحول، أو المخدرات،

أو الاستهلاك، أو العمل، أو هم الناس الذين يرفضون قبول تحدي الفردية، وبدلاً من ذلك يتبعون طبعة ضيقة من السلوك المفروض، ويحاولون أن يفرضوا ذلك الهيكل على الناس، وكثيرون من هؤلاء الأخيرين أصوليون متدينون، ويبدو أن عددهم ينمو في كل يوم، لا خارج الغرب وحسب، بل وبشكل أكثر خطورة داخل الغرب أيضاً.

والمسألة ليست مسالة أعداد فقط، من الغربيين المسؤولين في مقابل أولئك الذين يرفضون المسؤولية الشخصية، ولو كانت المسألة مسألة أرقام، لساد أولئك الذين يحملون المسؤولية بشكل جيد للغاية، فالكثرة في الأغلب أبرع من القلة، وأكبر المآسي في القرن العشرين كانت قد فرضتها القلة على الكثرة، القلة التي أنكرت الديمقراطية، أو تجاوزتها، والخطر الحقيقي اليوم، أيضاً، لا يأتي من الناس العاديين، ولكنه يأتي من واضعي الآراء، ومن اتجاهات المثقفين، والاتجاهات المناوئة للمثقفين، ومن المواقف السائدة، ومن الفِكَر والمواقف التي اخترعها ونشرها أولئك الذين يجب أن يعرفوا معرفة أفضل، ومن المشاهير والرموز الشعبية، ومن وسائل الإعلام، ومن الإنجيليين المتسلطين، ومن السياسيين الذين لا ضمير لهم، ومن رؤساء الأعمال التجارية والصناعية الأنانيين، ومن المثقفين المفرطين في الليبرالية، ومن المحافظين الجدد على حد سواء.

ولأول مرة في التاريخ، نحن نرى أناساً نجحوا، من خلال جهودهم الخاصة، ويعظون لا بإنجيل الكفاح والنجاح، وبالتفاؤل والخير العام، بل بإيديولوجية الارتياب، والتشاؤم، وعقلية الضحية، وهؤلاء من النخبة الجديدة، بعد أن ارتفعوا بفضل سُلَّم المجتمع الليبرالي،

والتراث الفكري للغرب، فإنهم يرفسون السُلّم بعيداً، وينكرون الصعود على الشباب من الناس، ويحرمونهم منه(1).

ويجري الانتقاص من الإنجاز الشخصي، ومن التميز الفكري، ومن الولاء للجماعة، ومن العقل والحقيقة، ويساوي ذلك في الخطر، أننا نرى قادة آخرين، وخصوصاً أولئك الذين يتولون السلطة السياسية، وخصوصاً في أقوى بلدان الغرب، يديرون ظهورهم إلى الليبرالية، والمساواة، وحقوق الإنسان، والرحمة لجميع بني الإنسان، مستخدمين أعذار الإرهاب، والجريمة، والهجرة، والباحثين عن اللجوء، و ـ المستويات المنخفضة ـ ليعيدوا تشديد السلطة في الوطن، ويبنوا الإمبراطوريات في الخارج، فالليبراليون المفرِطون في الليبرالية والمحافظون الجدد يتظاهرون باحتقار بعضهم بعضاً، ولكن يحتاج بعضهم إلى بعض ويدعم بعضهم بعضاً دعماً قوياً، والأثر الناتج عنهما متشابه تشابهاً مرعباً. والموضوع المشترك هو إنكار المسؤولية الداخلية، فإحدى الفئتين من خلال اللامبالاة، والأخرى من خلال معرفة ما هو خير لنا، من خلال توكيد الانضباط الخارجي والسلطة، وكلتا الفئتين تقود إلى دمار حضارتنا، وكلتاهما تلقَى المساعدة على طوال هذا الطريق من قوة الأخرى.

وهناك، طبعاً، مستقبل بديل، مستقبل يستند إلى إعادة الإمساك بالفِكَر، وبالمثل العليا التي سبق أن جعلت الغرب قوياً، وناجحاً على

(1) جورج وولدن (2000) النخب الجديدة: صنع مسيرة وظيفية في الجماهير. بنغوين، لندن.

مدى سنوات عديدة جداً، مستقبل مستند، أيضاً إلى العزم والتصميم من أفراد ملتزمين ومسؤولين؛ كي يسهموا بالتبرع لمجتمعهم ولجيرانهم، ولقد رأينا هذا التصميم يبرز، على سبيل المثال، في سلسلة من «الثورات المخملية» في أوروبة الشرقية وفي غيرها، وفيها مارس آلاف الأفراد القيادة والمسؤولية، وأطاحوا بأنظمة الحكم الديكتاتورية بشكل سلمي، ونحن رأينا ذلك في التحول المذهل لإفريقية الجنوبية، لا من نظام التمييز العنصري إلى الديمقراطية فقط، بل من شبح الحرب الأهلية إلى مجتمع مستقر مؤسس على الغفران والتسامح أيضاً، ورأينا ذلك في قرار الملايين في أن تهرع إلى الشوارع عبر المدن الغربية لتقوم بحملة من أجل إنهاء الفقر، أو من أجل تبادل تجاري منصف، وديمومة بيئية، أو ريف ناضر[1]، ورأينا ذلك على مستويات محلية، في ديمقراطية منطقة صغيرة المدى، ورأيناه في وفرة من المبادرات لتحسين حياة الجماعة.

ومعظم هذه الأعمال وأعمال كثيرة أخرى ذات روح عامة، حدثت خارج نطاق السياسات الحزبية التقليدية،وخارج نطاق المحاولات المؤسسية، وخارج إطار القيادة من الأعلى إلى الأدنى، ولكن مثل هذه

(1) هذه الأفعال، طبعاً، ليست دائماً غيرية بشكل كامل، أو واقعية حين تكون منكرة للذات، فالفقر العالمي، على سبيل المثال، لن يحل بالمظاهرات، وحفلات الروك، والبذل الكريم، أو بأي وكالة خارجية أخرى، فلقد أعطى الغرب إفريقية عونا مقداره 450 بليون دولار منذ العام 1965، ولكن في أماكن مثل بوتسوانا فقط هرب الناس من الفقر، وهي الأماكن التي كان الأفارقة أنفسهم مسؤولين فيها عن إقامة مؤسسات ليبرالية وسياسات اقتصادية معقولة.

الأفعال لا تمثل شيئاً أقل من الناس، وهم يجتمعون معاً، بوصفهم أفراداً أحراراً؛ ليمارسوا المسؤولية الفردية، فهذه هي أفضل خصائص الغرب، وهي تعيد توكيد ذاتها في طرق جديدة، وهي تبين أن هناك حياة ما تزال موجودة حتى الآن في الوحش القديم.

خاتمة

المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو، والليبرالية، والفردية هي مجموعة متلاحمة من الفِكَر والمعتقدات، والممارسات، والأفعال، سبق لها أن حددت، وما زالت تحدد، حضارة عظيمة، حضارة نظرت إلى الداخل، وإلى الخارج معاً، حضارة هدفت إلى تحرير الروح الإنسانية ورفعها، رجالاً ونساء، أثرياء وفقراء، داخليين وخارجيين، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، حضارة أمَّلت كثيراً للغاية، وأنجزت كثيراً للغاية، حضارة، تركت، بشكل غريب الفِكَر التي أعطت على هذا النحو الرائع، حضارة مقدر لها أن تفشل من خلال قيود فرضتها على نفسها، حضارة مهيأة لتتحول إلى حضارة أقل جاذبية بكثير، وقبل مرور وقت طويل، حضارة يحتمل أن تكون أقل نجاحاً بكثير!

إن الذي فرضه الأفراد على أنفسهم يمكن أيضاً أن يزيلوه بأنفسهم، فالانتحار الجماعي ممكن تماماً، لا بل إنه قد يكون مرجحاً، ولكن لا، إنه بالتأكيد ليس محتوماً.

إن الحضارة الغربية قد وصلت إلى مَفْرَق، على أحد شعبتيه، **يحمل** الطريق حالياً المزيد من المرور، ويوجد فيه الارتياب، والأنانية **غهر**

الملطفة، واللامبالاة، وإعادة المركزية والعدوان ، وهي صفات دعت لها ومارستها معاً عناصر مختلفة في المجتمع، ومع ذلك فهم يساندون مساندة كلية خصومهم الظاهرين، ويمكن لهذه الطريق أن يأخذ أشكالاً عديدة، من الفوضى السياسية إلى الفاشية الجديدة، والانهيار البيئي، إلى الإمبراطورية الأمريكية الجديدة، ومثل هذه الأشكال كلها، على كل حال، سوف تشير إلى نهاية الحضارة الغربية، بوصفها المثل الأعلى الديمقراطي والفردي الذي تخيله الأوروبيون والأمريكيون، وغذوه واجتذبوا إليه؛ ليقتربوا اقتراباً أكثر طوال مئات السنين، والحضارة الغربية لن يدمرها أعداؤنا، ولكنها قد تُدَمَّر بأيدنا نحن أنفسنا.

وعلى الشعبة الأخرى من الطريق توجد استعادة الشجاعة، والثقة بأنفسنا وبثقافتنا، وبالوحدة العاطفية داخل أمريكا وداخل أوروبة، وبين أوروبة وأمريكا، ومع العناصر الأوروبية الأخرى، يوجد مجتمع وحضارة يضمان بليوناً من الأفراد المسؤولين، مرتبطين معاً لا بالسلطة، أو بالقسر، أو بالمعتقدات التقليدية التي لا تخضع للمناقشة، ولكن بالمواقف المكتشفة ذاتياً والموثقة ذاتياً من الكفاح الشخصي، والتفاؤل، والعقل، والرحمة، والمساواة، والفردية، والهوية المشتركة، وهذه الطريق معبدة ومضاءة إضاءة ساطعة، والارتحال فيها ليس صعباً تلك الصعوبة، ولكنه يتطلب تغييراً في الاتجاه.

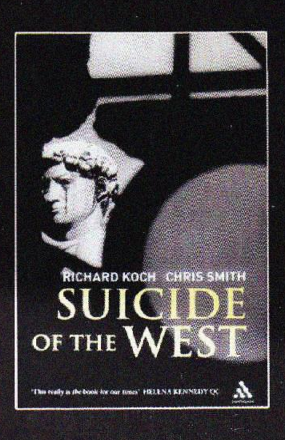
وسواء أُكمِل، أم لم يستكمل، فإن مصير الغرب ـ النابع من فِكَره الفريدة، والواضح فيما سبق له أن أحرزه بشكل جوهري – هو أن يخلق حضارة رحيمة إنسانية على نحو كامل، وحرة وثرية، بفضل إطلاق

الآمـال، وأهم من ذلـك، إطلاق الصـفـات الكامنة الممكنة والأخـلاقـيـة، لجـميع شـعـبهـا، وحسب المتصـور تمامـاً، وفي الوقت المناسب، لتكون نموذجاً جذاباً جاذبية كافية؛ لتستنهض معظم الإنسانية.





منذ مئة سنة كان معظم الغربيين يشعرون بالاعتزاز الهائل والثقة الكبيرة بحضارتهم. وكان الغربيون يعرفون ما الذي تمثله حضارتهم وترمز له، وكانوا يؤمنون بها. أما اليوم فإن ذلك المعنى قد تلاشى...



في هذا الكتاب المثير للجدل، يحدد ريتشارد كوك وكريس سميث ستة أعمدة رئيسة للحضارة الغربية وهي: المسيحية، والتفاؤل، والعلم، والنمو الاقتصادي، والليبرالية، والفردية. ويبين المؤلفان كيف أن هذه الأفكار قد عانت طوال قرن من هجوم مستمر من الداخل وكيف أنها لم تبقَ بعد ذلك ملهمة للغرب أو موحدة له، وهو ما يجعل الانجراف نحو الانتحار الجماعي يبدو حتمياً.

ومع ذلك، فربما لا تكون كل الأمور موحشة مثلما قد تبدو. فالفحص المتبصر للعوامل الستة يُظهر أنها تمتلك مرونة كبيرة ترجع بها إلى ما كانت عليه. والكثير من عداء اليوم الموجّه لهذه الأفكار مستند إلى مفاهيم دارجة ولكنها غريبة، يدحضها الدليل العلمي. ومن الناحية النظرية، فإن تركيباً أكثر حنكة للأفكار الستة كفيل بتوفير طريق للغرب يستعيد بها شجاعته وكرامته. وأما من الناحية العملية فإن هذا الكتاب الآسر للب والذي لقي ترحيباً رائعاً يسبر غور الإجابة.

... بصيرة وتحليل نادران، مع بعض الاستنتاجات المقلقة... لقد أطلق المؤلفان صيحة اليقظة (الإنذار) وقدّما حلاً في الوقت نفسه معاً.

سير مينزيس كامبيل

... يصف ماضياً من الإنجازات وحاضراً من الهشاشة. يجب أن يوجه أهلَ التفكير إلى جهود جديدة تبذل من أجل حماية الحريات والثقافة التي يقدرونها حق قدرها....

نيل كينوك

ISBN:978-9960-54-641-4







